أعلام التّاريخ



متزيني

دار المعارف بمصر

اهداءات ٢٠٠٤

أسرة أ / سيد أحمد متولى الجوهرى
طنطا


متنبی

أعلام التاريخ
٤

متزينى

بقلم
على أدهم

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

مقدمة

كان القرن التاسع عشر حافلاً بالشخصيات العظيمة ونوادر الرجال ، سواء في ميادين الفلسفة أو العلم أو الأدب أو السياسة ، وقد كان چوزيف متزيني الزعيم الوطني الإيطالي من أشهر زعماء ذلك القرن وقادته السياسيين ، ولا أحسبني مبالغاً إذا قلت إنه كان أنبلهم جميعاً منزعاً ، وأنقاهم صفحة ، وأسماهم مثالية ، وأخلصهم نية ، وأطهرهم نفساً ، وأعفهم ذيلا ، وأمضاهم عزماً ، وأصبرهم على احتمال التضحية ، وممارسة الشدائد ، ومصابرة الخطوب .

تألبت عليه الدول والحكومات ، وطاردته مطاردة عنيفة ، واضطهدته ما وسعها الاضطهاد ، وحاربه الأقوياء أصحاب النفوذ والسلطان الذين يحاربون بكل سلاح ، ونصبوا له الحبائل والشباك ، ولم يعفوا عن ثلبه ورميه بكل نقيصة ، وقذفه بمختلف التهم ، وتنكر له الأتباع والزملاء والأصدقاء ، ونكثوا عهده ، ولم يرعوا ذمامه ، وخرج عليه المارقون ، وخانه الخائنون ، فلم يهن عزمه ، ولم ينفد صبره ، وانتابته الآلام الفكرية والجسدية ، وهزت كيانه الأزمات النفسية ، وخاض غمار المعارك الداخلية الروحية ، وبقي بعد ذلك كله سليم العقيدة ، قوي الأمل .

وكانت أمته مصدوعة الوحدة ، متفرقة الشمل ، قد تناهبتها الدول ، واقتسمها الأمراء الأجانب ، وأنهكها الفقر وسوء الحكم ، وجللها العار . وساءت سمعتها بين الأمم حتى قال بعض الناس إنها أمة ليس لها وجود ، وإنها ليست سوى اصطلاح جغرافى ، ولكن ذلك لم يرخص قدرها عنده ، ولم يضعف حبه لها ، وتعلقه بها ، وكانت همومها وأحزانها همومه وأحزانه ، وكانت نكبتها نكبته ، وقد قضى حياته فى محاولة استنقاذها من الجهل والظلم والاستعباد ، ورد وحدتها ، وإعادة استقلالها ، واحتمل فى سبيل ذلك الفقر والحرمان ، والحبس والتشريد ، والنفى والاستهداف للمكاره والعداوات والخصومات ، وبذل جهوداً جبارة ، وعاش عيشة لا تعرف الراحة ولا المتعة ولا الاستقرار .

كان متزينى يخفق فى محاولاته ، ويخونه التوفيق ، والإخفاق المتكرر قد يستذل الإنسان ، ويجعله يسىء الظن بقدرته ، ويشك فى تحقيق غايته ، ويغرى به اليأس ، ويثنى عزيمته ، ولكن متزينى كان له من يقينه الثابت وأمله العريض ونظره الثاقب البعيد وقوة احتماله وعمق عاطفته القومية ومدى فهمه للحركات التاريخية والنهضات الوطنية ما يهون عليه احتمال الهزائم ، والصبر على الإخفاق ، ومتابعة الجهاد ، ومواصلة السعى ، ورصد الجو ، واغتنام الفرص ، ومراقبة الأحوال بعين لا تغفل ولا تنام ، والعمل على الاستفادة من كل موقف ، واستغلال كل مناسبة ، والحياة فى رأى متزينى معركة بين الخير والشر ، والتقدم والرجعية ، والعبودية والحرية ، فكيف يستسلم فى هذه

المعركة ، ويلقى السلاح ، ويفر من الميدان؟ ولقد كانت الهزائم المتوالية تزيده إقداماً . ويقيناً ، وصبراً وثباتاً ، وتجعله يحاول من جديد أن يستصلح ما فسد ويعيد بناء ما تهدم ، ويراجع خططه ، ويجدد نشاطه ، ويستأنف جهاده ، غير عابئ بوعورة الطريق ، وبعد المرتقى وصعوبته ، ولم يكتف بالدفاع عن قضية بلاده وحدها بل دافع كذلك عن قضايا الأمم المسلوبة الحرية ، وكل أمة فى دور استكمال استقلالها واستبقاء وحدتها تجد فى حياة متربنى بوجه خاص درساً نافعاً ، وعبرة صالحة ، وكانت وطنيته وطنية واسعة النطاق إنسانية شاملة ، ولم تكن القومية عنده غاية فى ذاتها ، وإنما كانت خطوة لازمة للأممية والوحدة العالمية ، ورسالته لم تكن مقصورة على أمته وعصره ، وإنما كانت رسالة عامة شاملة تتجاوز أمته ، وتترامى إلى ما بعد عصره ، وغايتها حرية الأمم والأفراد فى ظلال الدمقراطية الحقة ، والنظام الأممى العادل ، والإنسانية المتحابة المتضامنة ، ولقد أعجبت فى صدر حياتى الأدبية بشخصية متربنى ، وصحبته طويلاً ، وقرأت له وعنه كثيراً ، وفى اعتقادى أنه لم يكن من هؤلاء المثاليين الحالمين أصحاب الأفكار الغامضة والرؤى العجيبة ، وإنما كان رجلاً واضح التفكير إلى حد كبير ، له منطق خلاب ليس فيه جفاف وإنما له نضارة وفيه عذوبة ومائية ، وأسلوبه بليغ ولكنها ليست البلاغة الصناعية التى تتعمد التأثير ، وتحتال على الإقناع ، وإنما بلاغة الكلام الصادر من القلب ليدخل إلى القلب ، وسأعرض فى هذا الكتاب حياته الحافلة بقدر ما أستطيع من الدقة

والاستيفاء ، وهى فى رأيى حياة مثاليـــة فى النبل والمثابرة ، والإخلاص والتضحية ، وسأتحدث عن أفكاره ونظراته وآرائه وفلسفة حياته ، وهى ذخر للإنسانية لم تبل الأيام جدته ، ولم تذهب برونقه ولمعته ، وفى مأمولى أن القارئ سيجد متعة رفيعة فى تعرف حياة مترينى ، والاطلاع على أفكاره .

الفصل الأول

حالة إيطاليا فى أوائل القرن التاسع عشر — نشأة متزينى وثقافته — بدء انصرافه للسياسة .

تعزى يقظة إيطاليا فى القرن التاسع عشر إلى حادثتين عظيمتين ، وهما الثورة الفرنسية وغزو نابليون ، وقد كانت إيطاليا قبل ذلك مستغرقة فى رقاد العصور الوسطى ، متقاعدة الهمة ، متقاصرة السعى فى سبيل الاستقلال والوحدة ، يستغل دوقاتها الضرائب فى سبيل الاستمتاع والإسراف ، ويشاركهم رجال الدين فى إهدار حقوق الشعب ، وإهمال مصلحته ، واعتباره كمية مهملة ، على حين يشقى الفلاحون فى الحصول على ما يقيم أودهم ، ولما هبت على إيطاليا رياح الثورة زلزلت قواعد الأرستقراطية ، وهزت نظم الحكم السائدة .

وقد كان تأثير الثورة مقصوراً على أقلية من المفكرين ، ولكن برغم ذلك ظهرت بوادر تدل على الضيق بنظم الحكم المطلق ، والتمرد عليها ، وخشى الأمراء الإيطاليون مغبة سريان الأفكار الحرة وتغلبها فحاولوا أن يوطدوا نفوذهم المطلق بتشجيع دعاة الإصلاح ، والمشاركة فى الحركات التقدمية ، والعطف عليها ، ولكن سرعان ما توقفت هذه الحركة ، وتلاها رد فعل شديد ، ومهما كان من الأمر فقد وجدت

المثل العليا للحرية والتقدم صدى لها ومعبراً عنها فى الأدب الإيطالى ، فقد كان فيثوريا الفييرى (١٧٤٩ – ١٨٠٣) شاعر النهضة الحديثة والجيل الجديد ، وقد ضمن مآسيه أفكاره عن مصير إيطاليا ومستقبلها المرجو ، وذكّر الشباب بعظمة إيطاليا السابقة ومجدها القديم ، وكان تأثيره عظيماً فى إثارة النخوة القومية والشعور الوطنى حتى قال النقادة الإيطالى الكبير دى سانكتيز فى سنة ١٨٥٥ « فى كل مرة تجدد إيطاليا قوتها ويشرق فى تاريخها الحديث فجر إحياء جديد فإنها ترجع فى حماسة بالغة إلى الفييرى » .

وقد بدأ القرن التاسع عشر فى إيطاليا بغزو نابليون ، وقصة غزواته بها وأساليبه فى حكمها وما استحدثه من تغيير قصة طويلة مسهبة لا حاجة بنا إلى الخوض فيها ، ونكتفى بالإشارة إلى أنه انتزع نيس وساڤوى من حكومة پيدمونت ، وأخذ اللومباردى من النمسا ، وكون من الولايات الصغيرة الواقعة فى جنوب نهر البو جمهوريته ، واستولى على سلطة البابا الزمنية فى روما ، وأقام هناك جمهورية ، ثم حول چنوا إلى جمهورية ليجوريا ، ولما أصبح إمبراطوراً فى سنة ١٨٠٥ جعل الجزء الشمالى من شبه الجزيرة ما أسماه « مملكة إيطاليا » ، واحتفل بتتويج نفسه فى ميلان قائلاً وهو يضع التاج الحديدى على رأسه « لقد أعطانيه الله والويل لمن يمسه » ولكن إخفاق نابليون فى الحملة الروسية هدم سلطانه فى إيطاليا ، وقوض نظام حكمه بها ، وبانهيار ذلك السلطان وزوال ما أدخله من نظم أخذت الولايات الإيطالية تستعيد أحوالها

السالفة ، ونظمها العتيقة البالية .

ففى پيدمونت أخذ ڤكتور عمانويل الأول يعيد كل شىء إلى ما كان عليه قبل عهد نابليون حتى كأنه لم يحدث شىء ، وألغى التشريع النابليونى ، ورد الامتيازات للأشراف ، وبعث القانون القديم من رمسه ، وضم جنوا إلى مملكته ، أما فى الولايات البابوية فقد كان رد الفعل تاماً شاملاً ، فقد أعيدت بها دواوين التفتيش وتوطدت أقدام اليسوعيين (الجزويت) وأبعد عن الحكم جميع الرجال العلمانيين .

وسيطرت النمسا على لومبارديا وڤينتيا ، واستطاعت بذلك أن يكون لها الرأى الأعلى والكلمة النافذة فى شبه الجزيرة ، وتم الاتفاق بين حكومة النمسا وسائر أمراء الولايات الإيطالية على ألا يكون هناك أى تغيير فى إدارتهم وسياستهم يخالف نظام الحكم الملكى القديم ، وكان من جراء تركيز السلطة فى يد حكومة أجنبية — وهى حكومة النمسا — أن اعتاقت العوائق الحركة القومية فى الولايات الإيطالية جميعها ، وأقيمت العقبات فى سبيل إذاعة الأفكار الحرة والمثل العليا الداعية إلى الاستقلال والوحدة وجمع الشمل المبدد والقوى المتناثرة ، وهكذا أصبحت أحوال إيطاليا من السوء والانتكاس والتأخر والرجعية بحيث لا يجدى إلا العمل فى غلس الظلام وفى تكتم وخفاء ، لأنه لم يكن هناك سبيل إلى المجاهرة بالرأى والقيام بالأعمال العلنية الصريحة ، وأوجد أنصار الاستقلال جمعية الكاربونارى التى نبه شأنها ، وعظم نفوذها بين سائر الجمعيات السرية الكثيرة التى عمت إيطاليا ، وقد استمدت هذه الجمعية اسمها

الرمزى من الفحم ، فإن لونه أسود ، ولكنه إذا اتقد واشتعل لمع لونه ، وأشرق وهجه ، وأضاء الغياهب ، وبدد الظلام ، وكانت تشبه الجمعيات الماسونية فى حفلاتها ومراسمها وشعائرها وأقسامها وعهودها وكان أعضاؤها يعدون السيد المسيح الضحية الأولى من ضحايا الظلم والطغيان ، ويقطعون على أنفسهم عهداً بأن يقاوموا الظلم والطغيان الأجنبى مقاومة مستديمة مصممة لا تلين ولا تنثنى .

وقامت الثورة الأولى فى نابولى سنة ١٨٢٠ ، وكان أكثر القائمين بها من رجال الجيش الذين انضموا إلى جمعية الكاربونارى، وسرعان ما سرى لهيبها فى أنحاء مملكة نابولى ، واضطر الملك إلى أن ينحنى للعاصفة ويوافق على إقامة الحكم النيابى ومنح الدستور ، وساء ذلك دول الاتحاد المقدس وهى النمسا وبروسيا وروسيا ، واستدعت ملك نابولى للمفاوضة والمشاورة ، وأغروه بسحب الدستور ، وتكفلت النمسا بصيانة الحكم المطلق فى نابولى ، وفى مدى قصير ألغى الحكم النيابى ، وأعيدت الرقابة على المطبوعات ، وأزيلت سائر النظم الدمقراطية التى وعد بها الملك ، وقام الملك فرديناند بتمثيل دور المستبد الغشوم الذى ينزل العقوبة الصارمة بكل من يجترىء على إعلان الولاء للثورة وقضيتها .

وفى أثناء ذلك كان أعضاء جمعية الكاربونارى فى پيدمونت مجدين ناشطين ، وكانوا يرمون إلى هدفين ، وهما إعلان الحرب على النمسا وإقامة الحكم النيابى فى پيدمونت تحت ظلال بيت سافوى ، وكان دعاة الحركة وقادتها فريقاً من المستنيرين وعدداً قليلاً من أشراف الإيطاليين ،وقد

تولى إخماد الثورة وخنق الحركة جيش نمساوى جرار ، وقد دلت هذه الحركات والثورات برغم إخمادها وحبوطها وعجزها عن تحقيق أهدافها على أن المثل العليا القومية قد استقرت فى النفوس ، وتملكت الأرواح ، وقد رفض الشاعر الإيطالى أوجوفو سكولو أن يحلف يمين الولاء للحكومة المستبدة ، وفر إلى إنجلترا ليضرب لإيطاليا الحديثة مثلاً من أمثلة الإباء ، ويعلمها احتمال النفى والتشريد ، وبرح إيطاليا فوج من الكتاب والسياسيين الأحرار والوطنيين الأوفياء ، وجعلوا أوربا جميعها تشعر بحركة الإحياء الإيطالية ، وقد كان للأدب الرومانتيكى نصيب وافر فى هذه الحركة المثمرة ، فقد جدد ذكريات الأمجاد السالفة ، ورد على الأمة الإيطالية اعتزازها وثقتها بنفسها ، وشعورها بقوميتها ، وجعلها مستهامة بالحرية ، صبة بالاستقلال ، متطلعة إلى المستقبل فى ثقة ورجاء .

وهكذا كانت التيارات الغالبة على الفكر الإيطالى فى إبان نشأة متزينى وحداثته ، وقد شاء القدر أن يكون هذا الرجل العظيم العبقرى الموهوب نبى هذا البعث ، ومحور حركاته ، وأكبر عامل فى تحقيق أهدافه ، وأقوى معبر عن مثله العليا وغاياته السامية .

وقد ولد متزينى يوم ٢٢ يونيه سنة ١٨٠٥ بمدينة جنوا ، وكان أبوه طبيباً معروفاً وأستاذاً للتشريح فى جامعة جنوا ، وكان رجلاً دمقراطى العقيدة نزاعاً إلى الأفكار الحرة ، وكانت أمه السيدة ماريا متزينى امرأة سامية الأخلاق ممتازة قوية العزيمة ، بارزة الشخصية ، مخلصة

متفانية فى تعهد أولادها الأربعة ، وفى الوقت نفسه متيقظة للحركات السياسية العظيمة التى كانت تهز أوروبا فى تلك الأيام ، وتزلزل كيانها . وكانت ميولها دمقراطية خالصة ، وكانت تخص ابنها چوزيف بنصيب خاص من الحب والتقدير ، وغير غريب أن تكون الأم بابنها معجبة ، وله مقدرة ، ولكن السيدة ماريا كان لها فى ابنها عقيدة كأنما كانت تطالع الغيب ، وتستشف ماوراء أستار المستقبل ، وقد نشأ ابنها طفلاً ضعيف البنية ، واهن الجسد ، مرهف الحس رقيق المزاج ، جم العطف ، سريع الفهم ، متوقد الذكاء ، مبكر النبوغ والتفوق ، قوى التحصيل ، واعى الذاكرة ، وقد ظهرت فى بواكير طفولته بوادر عطفه الشديد على الناس وشدة تأثره بما يرى من مظاهر الفقر والحرمان ، ففى أول مرة استطاع أن يسير على قدميه مع والدته ويتجاوز حدود منزل أسرته وقف بغتة وأخذ يحدق فى متسول عجوز قد جلس على سلالم إحدى الكنائس فى الطريق ، وتلبث الطفل فى مكانه حتى خشيت والدته أن يكون منظر الرجل المتسول الرهيب بلحيته البيضاء وأسماله الملونة قد أفزع الطفل ، فانحنت عليه لتحمله بعيداً ، ولكنه أفلت من يدها ، واندفع إلى الأمام ، وطوق عنق الرجل البائس بذراعيه ، وقبله مرات ، وصاح بوالدته قائلاً « إعطيه شيئاً يا والدتى ، إعطيه شيئاً » وتأثر الرجل المسن حتى دمعت عينه ، وقال لوالدته « أحبيه ياسيدتى فإنه سيكون من الذين يحبون الناس » وقد عدت السيدة ماريا هذه الحادثة رمزاً لما ستكون على مثاله حياة طفلها الناشىء وابنها المرجى للمستقبل ، وقد تحققت نبوءة هذا المتسول

الإيطالى، وتحدث الغيب عن لسانه ، فقد نشأ هذا الطفل يحب الشعب، ويثق به، ويطمئن إليه ، ويعتقد أن مصير الأمم فى يد الشعوب أسلم وأضمن وأجل وأسمى منه فى أيدى العواهل الطغاة والأباطرة المستبدين . وقد نشأ كلفاً بالقراءة والاطلاع ميالاً إلى التأمل والتفكير ، وقد تلقى فى المنزل مبادئ الدمقراطية وإيثار النظام الجمهورى الذى ظل متعلقاً به طوال حياته .

ولما بلغ متزينى السادسة عشرة من عمره قامت فى پيدمونت الثورة المخفقة التى أشرت إليها ، وقد أخمدها النمساويون فى غلظة وعنف بالغين وعاملوا الكثيرين من الأحرار الإيطاليين معاملة منكرة وحشية ، وهرع إلى جنوا كثيرون من الثائرين زرافات وأفراداً وفى مأمولهم أن يبحروا منها إلى إسبانيا ، وكان أكثرهم قد أنفضوا وأعدموا ، واتفق فى ذات يوم أن كان متزينى يسير مع والدته وأحد أصدقاء الأسرة فى شارع من شوارع جنوا ، وإذا برجل طويل القامة أسود اللحية تبدو على محياه الشدة والصرامة وحدة النشاط وتقدح عيناه الشرر يتقدم منهم ويبسط منديلاً أبيض اللون قائلاً « للإيطاليين اللاجئين » فألقت والدته وصديق الأسرة شيئاً من النقود فى المنديل ، فتركهم وتقدم بنفس الطلب إلى آخرين ، وكان هذا الرجل أحد اللاجئين إلى جنوا بعد حبوط الثورة وقد تركت هذه الحادثة أثراً عميقاً فى نفس متزينى الحساسة اليقظة ، وأخذ يدمن التفكير فى تحرير بلاده وخلاصها من نير الحكم الأجنبى ، وكانت هذه اللحظة من اللحظات الفاصلة فى حياته الحافلة العاصفة ،

فقد امتلأت فيها شعاب نفسه بالعقيدة القومية حتى ملكت عليه مذاهبه واستغرقت تفكيره فى آناء الليل وأطراف النهار ، ولم يبرح مخيلته منظر هؤلاء المهاجرين الذين خانهم الحظ ، وغدر بهم الأصدقاء ، وتنكرت لهم الأيام ، ولكنهم لم يغلبوا على أمرهم ، ولم تلن قناتهم ، ولم يدب إليهم اليأس ، وإنما كانوا يريدون الذهاب إلى بلاد أخرى ليستأنفوا جهادهم فى سبيل الحرية والاستقلال ، ولحظ أقرانه فى الجامعة حيث كان يدرس الآداب أنه فى خلال أيام قليلة قد بدا أكبر سناً مما كان وأنه قد أصبح مؤثراً للصمت ساهماً مشغول البال شارد الفكر ، وأنه يلبس سود الثياب ويتخذ ربطة للرقبة سوداء ، وقد أصبحت هموم بلاده وأحزانها همومه الخاصة وأشجانه الشخصية ، وظل هذا دأبه حتى توفاه الله .

ولما استفاق من هذه الغاشية التى غشيته ، وتضام شتات نفسه ، واستعاد توازنه ، عاودته حماسته القديمة للمطالعة والدرس ، وكان فى تلك الفترة قد بدأ يدرس الطب ليزاول مهنة أبيه ، ولكنه حينما حضر فى قاعة العمليات لأول مرة أغمى عليه ، وكان من الواضح أنه لا يصلح لتلك المهنة ، وكانت خيبة أمل قاسية احتملها أبوه صابراً ، ولم يجد مندوحة عن النزول على حكم الضرورة فسمح له بدراسة القانون ، ولم تكن دراسة القانون حينذاك شائقة محببة تروى غلة شاب متفتح الذهن متطلع إلى المعرفة ، ولكنه ثابر وواظب ، وبرز فى الامتحان ، وذلك بالرغم من أنه كان يقضى معظم وقته فى المطالعات الأدبية ، وبخاصة

فى قراءة الشعر والتاريخ ، على أن مترينى الطالب لم يكن بالشخص الخاضع السلس القياد وإنما كان طالباً متعباً متمرداً لا يطيق الخضوع والاستسلام للأوامر والنواهى والنصائح والمواعظ ، وقد رفض إلى النهاية القيام ببعض الفرائض الدينية ، لا لأنه كان يكرهها ، وإنما لأن الطلبة يحملون عليها حملاً ، وكانت الجامعة تغضى على تمرده وعصيانه ، وكان يعيش عيشة دراسة واعتزال ، وكان ولوعاً بالألعاب الرياضية واللعب بالسيف ، ولم يكن يعرف من الملاهى سوى احتساء القهوة وإشعال لفافات التبغ ، وكان يقضى نهاره بين الكتب ويقضى أمسياته مع والدته أو فى جولات طويلة منفردة أو فى زيارات نادرة مختلسة للمسرح ، وكان يضطر إلى تركه بعد الفصل الأول لأن باب منزل أسرته كان يقفل فى الساعة العاشرة ، ولم يكن سريعاً إلى عقد الصداقة مع الناس ، ولكنه مع ذلك لم يكن كارهاً للبشر ، وكان يجيد العزف على القيثار ، ويحسن الغناء ، وقد اشتهر ببراعته الموسيقية وحسن الإلقاء ، وكان فيه حينذاك دعابة وميل إلى الفكاهة ، ولم يكن ألم به بعد ذلك الحزن المرير الذى لازمه بعد انقضاء تلك الأيام وتوالى الحوادث الفاجعة ، والصدمات الساحقة ، وكان فى تلك الأيام كما كان فى سائر أيام حياته يصدق فيه قول المتنبى :

تلذ له المروءة وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

فكان يقاسم أصدقاءه الفقراء كتبه وماله ، ولا يضن عليهم بملابسه ، وكان سر تفوقه عليهم سمو تفكيره ، وسراوة أخلاقه ، وطبيعته الميالة إلى

العدل الكارهة للجور والظلم ، لا تلك الأثرة الغلابة ، والميل إلى المفاخرة وتقرير السلطان ، وفرض الإرادة الذى تظهر لوائحه فى طبائع المترعمين الولوعين بقيادة الأحزاب والمتهالكين على الرياسة . وهذه الروح العالية الصافية التى لم تشبها شوائب الأنانية والتى كانت لا تعرف الخوف ولا التراجع أسبغت عليه وهو لا يزال يافعاً لم يطر شاربه قداسة لا نعهدها فى غير الصالحين من أولياء الله الذين استعلوا على الضرورات الإنسانية وتخلصوا من إسار الأهواء الأرضية والصغائر البشرية .

وكان أقرب أصدقائه إليه، وآثرهم عنده الإخوة الثلاثة : چاكوبو ، وچيوفانى وأجستينور افينى ، وكان چاكوبو أكبر الثلاثة وأكثرهم تأثيراً فى حياة مترينى ، وكان من لداته ، ويشابهه فى رقة الإحساس ورهافته وحماسة النفس ويقظتها ، وقد قوى هذا التأثير فى نفس مترينى مصرعه الباكر ، وقد ظلت ذكرى هذا الصديق العزيز الذى جاد بنفسه فى سبيل خلاص بلاده مصدر وحى وإلهام لمترينى ، ينير له السبيل ، ويرد عليه اليقين ، ويزوده بالقوة فى سنوات الإجهاد والإعياء والهزيمة ، ولم يكن أخواه فى مستواه العقلى أو الأخلاقى ، وقد أتعبا مترينى فيما بعد حتى انقطعت بينه وبينهما الأسباب ، وقد كون مترينى من أصدقائه المقربين وفى ظل زعامته ورعايته جمعية لدراسة الأدب والسياسة والعمل على استحضار الكتب التى يحرمها الرقباء ، وتجلى فى هذه الحقبة ولعه الشديد بالأدب ، ونهمه بالقراءة والاطلاع ، وكان يقرأ كثيراً فى الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والمترجمات من اللغة الألمانية ، وكانت

الكتب التى يؤثرها ويديم القراءة فيها هى الكتاب المقدس ومؤلفات دانتى وشكسبير وبيرون، ودراسته للأناجيل واضحة فى كتاباته ، وقد مرت به نوبة من نوبات الشكوك استنقذته من مخالبها والدة چاكوبو ، واستولى عليه شعور دينى عميق ظل هو النبع الذى يستمد منه القوة فى أزماته الحازبة المتوالية ، ومآزقه الحرجة الكثيرة ، وكان أحب الشعراء إلى نفسه دانتى وبيرون ولم يفتر إعجابه بهما وحبه لهما ، وقد استمد من دانتى الكثير من أفكاره الرئيسية ، وتعلم منه الوطنية الصادقة الحارة والثقة بإيطاليا ، والإيمان بوحدتها ، وقد كتب وهو لا يتجاوز العشرين مقالاً عن دانتى ووطنيته دل على معرفة واسعة بأدبه وآثاره ، وكان بيرون حينذاك فى أوج مجده وشهرته ، وكان متزينى يعتقد أنه أعظم شعراء إنجلترا المحدثين ، وربما أعظم شعراء أوروبا الحديثة جميعهم ، وظل ثابتاً على هذا الاعتقاد ، وكان معجباً بجيتى ، ولكن إعجابه به لم يدم طويلاً ، على حين أن إعجابه ببيرون أخذ ينمو ويزداد ، وكان يكبر شلر ويضعه إلى جانب إسكيلوس وشكسبير ، وعنده أن هؤلاء الثلاثة هم أعظم كتاب الدراما فى العالم ، وكان فى بادىء الأمر متحمساً للسير ولتر اسكوت ثم قل اهتمامه به ، ولم يكن يعجبه من الكتاب الفرنسيين المعاصرين سوى ألفرد دى ڤنى وڤيكتور هيجو وچورچ ساند ، وكان يتعصب لألفييرى وفوسكولو من شعراء إيطاليا المحدثين ، ولم يكن كثير الميل إلى مانزونى ، والذى أثر فيه من القدماء هماتاسيتوس المؤرخ واسكيلوس ، وقد قضى جانباً من وقته فى قراءة الفلاسفة والمفكرين

السياسيين وألم بفلسفة هجل ، ولكنه كان يمقتها لنزعتها القدرية ، وقرأ كانت وفختـه ، ولكن المفكر الألمانى الذى أثر فى تفكيره هو المفكر المنسى الآن هردر ، فقد تأثر متزينى بتصوره الروحى للحياة ، واعتقاده بالخلود ، ورأيه فى تقدم الإنسانية ، وقد عنى بدراسة الفيلسوفين الإيطاليين چوردانو برونو وڤيكو ، وكان يقدر مكياڤلى ، ويرى أن أخلاقه كانت ثمرة عصره ، ويبدو أنه عرف الكثير من أفكار روسو وڤولتير ، وقد ألم بأراء كوزان وجيزوه ، وهما من المفكرين الفرنسيين المعاصرين له .

ونرى من ذلك أن متزينى كان ولوعاً بالأدب ، محباً للاطلاع ، واسع الأفق ، غزير المعرفة ، وكان يتطلع إلى أن يكتب روايات مسرحية أو قصصاً تاريخية ، وكان يستشرف ذلك اليوم الذى يرى فيه إيطاليا حرة موحدة ليفرغ للأدب والاطلاع والكتابة والتأليف ! ولكن عبء بلاده كان ثقيلاً على كاهله ، وقد أقنع نفسه وهى تعاصيه وتتأبى عليه بأن الوقت ليس وقت انقطاع للأدب والدراسة والاستمتاع بالكتابة والتأليف فليس الأدب الخالص هو أول واجبات الوطنى ، وبأن الكاتب الذى لا يحاول أن يحط عن كاهله الواجب القومى يجب عليه أن يشتغل بالسياسة ، وينقطع لخدمة قضية تحرير بلاده ، وليس العصر عصر دراسة لذاتى ، أو عصر تأليف روايات تمثيلية ، على أن جانب القدرة على النقد الأدبى ظل ظاهراً فى شخصيته ، ولم تستطع السياسة أن تصرفه عنه أو تقتلعه من نفسه ، ويشعر الإنسان حين قراءة فصوله فى النقد بأن هذا الرجل الموهوب لو كانت يسرت له

الظروف التفرغ للنقد لكان فى طليعة نقاد أوروبا فى عصره .

ولما ثار النزاع فى إيطاليا بين أنصار الأدب المدرسى وأنصار الأدب الرومانتيكى انحاز متزينى إلى صفوف أنصار الأدب الرومانتيكى ، ولعل السياسة كان لها أثر فى هذا التفضيل ، فالأدب المدرسى يميل إلى الخضوع للقدماء ، والسير على منهجهم ، والضرب على قالبهم ، ومتزينى يرى فى ذلك تكبيلاً للروح الإنسانية التى يجب أن تكون طليقة حرة لا توهنها الأصفاد ولا تتحكم فيها الحواجز والأسداد ، وكان متزينى يرى أنه لن يكون لإيطاليا حياة سياسية حرة إلا إذا كان لها أدب ينشد الحرية ، وينزع إلى التقدم ، والثقافة العقلية قرينة الحياة السياسية .

وكان متزينى فى تلك الفترة يوالى الكتابة فى المجلات الأدبية حتى قبلت مجلة أنتولوجيا — وكانت حين ذاك أولى المجلات الإيطالية — أن تنشر له ، وكانت مسرحاً لأقلام قادة الفكر فى إيطاليا ، وقد دلت الفصول التى نشرت له بها على النضج ، وطرافة التفكير ، وأصالة الرأى .

وكان فى أثناء ذلك يحترف مهنة المحاماة ، وكان المتبع حينذاك بإيطاليا أن يدافع المحامون الشبان عن الفقراء مدة سنتين بغير أجر ، وذلك لأن الإجراءات العادية للدفاع عنهم كانت باهظة لا يستطيعون احتمال تكاليفها ، وامتاز متزينى فى هذا المجال ، وقدر له إخلاصه فى الدفاع عن الفقراء والمجهود الذى كان يبذله فى درس قضاياهم ، واشتهر بلوذعيته وسرعة بديهته ، وقوة عارضته ، وسمو بلاغته ، وكان يضاف إلى ذلك

كله العطف الإنسانى العميق الذى كان يطبع أعماله بطابع خاص من الإخلاص المحض والوفاء الجم .

وأخذت السياسة تطغى عليه ، وكانت إقامته بجنوا تغرى بذلك ، لأن العمال والأشراف بها لم يكونا على وفاق مع حكومة پيدمونت ، على أن هذا الباعث المحلى لم يكن هو أقوى الأسباب فى توجيه حياة متزينى وانصرافه بكليته إلى السياسة ، وقد التحق بجمعية الكاربونارى لينفذ برنامجه و يحقق أهدافه .

الفصل الثانى

انضمام متزينى إلى جمعية الكاربونارى — تأليفه حزب إيطاليا الفتاة — إخفاق الحركة التى دبرتها الجمعية

كانت جمعية الكاربونارى حين التحق بها متزينى تعانى الهمود والوهن الذى سرعان ما يدب إلى أمثالها من الجمعيات السرية، وقد أشرت إلى الثورتين الفاشلتين اللتين قامت بهما الجمعية وهما ثورة نابولى وثورة بيدمونت ، وقد استلزمت المحافظة على كيان الجمعية بعد هاتين الثورتين الكثير من الحذق والبراعة والمثابرة ، ولكن طبيعة الجمعية أخذت تتغير وتتحول ، فلم تعد جمعية إيطالية خالصة ، وذلك لأن أعضاء الجمعية الذين شردوا عن وطنهم جعلوا مقرها الرئيسى فى باريس ، حيث حاول بعض الساسة الفرنسيين استغلالها فى تكوين حلف لاتينى بين فرنسا وإيطاليا لمقاومة الاتحاد المقدس ، وأصبحت الجمعية بمعزل عن الشعب ، وكان أغلب قادتها من المتقدمين فى السن ، ولذا كانوا لا يرحبون بانضمام الشبان المتحمسين للجمعية ، ولم تكن لهم رغبة فى مراجعة مبادىء الجمعية وتجديد قواها .

ولم يستطع متزينى أن يهضم بسهولة ولع الجمعية بالحفلات ومراسيمها وشعائرها ، ولم يكن قانعاً بالمكانة التى وضعته بها الجمعية بوصفه أحد

الشبان ، ولكنها كانت الجمعية الثورية الوحيدة فى إيطاليا ، وكان متزينى يعجب بالرجال الذين لا يخشون السجن ولا النفى وإن كان لا يرى أهدافهم كافية ولا يقبلها كل القبول ، وقد وجد بعد أن حلف يمين الولاء للجمعية أنه يدين بالطاعة العمياء لرؤساء مجهولين ، وأنه لا يسمح له إلا بمعرفة اثنين أو ثلاثة من الأعضاء الذين يعملون معه ، وقد اشتبه فى برنامجهم السياسى وشك فى قيمته ، وكان لا يعجبه منهم وهو الإيطالى الوطنى استهانتهم بقوة بلادهم واستخفافهم بها وتبشيرهم بأن خلاص إيطاليا لا يتم إلا بمساعدة فرنسا ، ولم يعجبه ما كانت الجمعية تحاول أن تدخله فى روع أعضائها من ناحية تصميمها على اغتيال كل من يجترىء من أعضائها على نقد قادة الجمعية ورؤسائها ، والظاهر أن زعماء الجمعية المجهولين كانوا يحسنون به الظن ، فقد عهدوا إليه فى القيام بالدعوة فى تسكانى حيث استطاع أن يكسب أنصاراً للجمعية ، والظاهر أنه شرع يكون جمعية أخرى من الشبان الذين يشبهونه فى نزعته تحت ستار اسم الكاربونارى ، وكان غرضه أن يستبدل بجميعة الكاربونارى جمعية أنشط وأقوى عزماً وأنهض بالأعباء ، وكانت ثورة يوليو سنة ١٨٣٠ فى فرنسا قد سمت بآمال الأحرار فى كل مكان ، وبدأ متزينى وأصدقاؤه يبثون الدعوة ويحشدون الأنصار ، ولم يحفل بطريقة الكاربونارى فى أخذ الإيمان المغلظة على الأعضاء الجدد واستعمال الشارات السرية ، وإنما كان يكتفى منهم بأن يقطعوا على أنفسهم عهداً بأن يعملوا إذا لاحت فرصة للثورة ، وكان للحكومة عيون بين جماعة الكاربونارى ، فقبض على

متزينى بتهمة الإغراء على الانضمام إلى الجمعية ، وكانت الحكومة قد بدأت تشتبه فيه وتراقبه من قبل ذلك ، فقد قال حاكم المدينة لأبيه حينما سأله عن التهمة الموجهة إلى نجله « إنه على جانب من الذكاء وولوع بالمشيات المنفردة فى جنح الليل وهو مستغرق فى التفكير ، فما الذى يفكر فيه شاب فى مثل سنه ؟ نحن لا نريد أن يفكر الشبان دون أن نعرف موضوع تفكيرهم » واعتقل فى حصن ساڤونا ، وكان يتسلى بالنظر إلى البحر وإجالة الطرف فى السماء ، ونظرت قضيته أمام مجلس تورين وكان أرقى محكمة فى البلاد ، وقد كان متزينى بارعاً فى إتلاف جميع المستندات التى تؤيد التهمة الموجهة إليه ، وبالرغم من البحث الدقيق فى جيوبه وملابسه وفى بيته لم يهتد الباحثون إلى شىء يلصق به التهمة أو يثير الشبهة ، وقد ظلت ملازمة له سرعة الخاطر التى كانت تيسر له الخروج سالماً من أمثال تلك المآزق الحرجة ، ولم يكن هناك سوى شاهد واحد فى حين أن القانون يتطلب وجود شاهدين ، وقد أنكر متزينى التهمة ، ولعله كان يبرر هذا الإنكار أمام ضميره بأن المتآمر ليس عليه التزامات أدبية نحو حكومته التى يعدها غير شرعية ، ويرى بولتن كنج — أحد من ترجموا لمتزينى — أن هذا الإنكار من الأخطاء الأدبية القليلة التى وقع فيها متزينى ، وأن ذلك قد يغتفر لغيره ممن لم يصلوا إلى مستواه الأخلاقى ولكنه يقيسه بالمقياس الذى كان متزينى يجب أن يقاس به ، وهو مقياس الرجل الذى تقوم سياسته على أساس وطيد من اليقين الدينى والسمو الأخلاقى والتطلع المثالى ، وقد برأته المحكمة ، ولكن الحكومة لم تر هذه

التبرئة كافية لإخلاء سبيله ، فخيرته بين النفى وبين الإقامة فى بلدة صغيرة ، وقد اختار النفى ، وهو اختيار أملته عليه الحوادث الجارية المعاصرة ، فقد كانت الثورة قد اشتعلت نيرانها فى إيطاليا الوسطى ، وكانت الحكومة الفرنسية قد شجعت أعضاء جمعية الكاربونارى وجعلتهم يترقبون المساعدة المباشرة أو غير المباشرة ، واعتقد متزينى أنه فى باريس يكون أقدر على خدمة بلاده ، وقوى أمله فى أنه سيعود بعد قليل إلى إيطاليا الحرة المستقلة ، ففى شهر فبراير سنة ١٨٣١ ودع أسرته التى هرعت إلى ساڤونا ، وعبر جبال الأپناين ثم جبال الألب وقد راقب شروق الشمس من مونت سنيز ووصفها وصفاً فنياً رائعاً ، ولما كان فى سويسرة أشير عليه بالانضمام إلى المنفيين الإيطاليين فى ليون ، فتوجه إليهم ولم يذهب إلى باريس ،وامتدت الثورة التى قامت فى إيطاليا الوسطى إلى الولايات البابوية وتقدم جيش الثائرين إلى روما ، وكان قادة الثائرين يعلمون أنهم يستطيعون التغلب على البابا وإزالة حكم الدوقات ، ولكن لم يكن لهم قبل بمقاومة الجيش النمساوى ، وإنما كانوا يعتمدون على مؤازرة فرنسا ، وكانت الحكومة الفرنسية قد وعدت جمعية الكاربونارى بأنها ستعلن الحرب على النمسا إذا عبثت بمبدأ الحياد وتدخلت فى شئون إيطاليا الداخلية ، ولكن أكثر الوزراء لم يكونوا مخلصين فى هذا الوعد ، ورأى لويس فيليب أن إثارة حرب لتأييد مبدأ القومية قد يحدث حركة ثورية تزلزل عرشه المتداعى ، وأفضت حكومته إلى مترنخ بأنها لا تؤمن بنظرية عدم التدخل ولم ينقض شهر مارس حتى كانت الثورة قد أخمدت ، واتضح أن من

أسباب فشل الثورة عجز قادتها من رجال الكاربوناري عن اجتذاب الشعب إلى صفوفهم ، كما أن فرط اعتماد القائمين بها على فرنسا أضعف فيهم روح المقاومة ، وقد أقنع فشل هذه الثورة متزيني بضرورة إنشاء جمعية على نظام جديد ، وكان يرى أن سبب فشل الثورة هو سوء القيادة ، فإذا حرص القائمون بالثورة التالية على النجاح فلا بد أن يضطلع بقيادتها الشبان المتحمسون الواثقون أصحاب الأفكار الجديدة ، وأصر متزيني على هذه الفكرة ، والواقع أن الأشهر القلائل التي قضاها متزيني فى فى سجن سافونا أتاحت له فرصة ثمينة لتنظيم أفكاره ، ووضع أسس خططه السياسية ، وتحديد أهدافه ، وقد تكونت فكرته عن جمعية إيطاليا الفتاة وهو فى هذا المعتقل ، أى أنه فى الفترة من نوفمبر سنة ١٨٣٠ إلى آخر يناير سنة ١٨٣١ وهو فى المعتقل تصور الرسالة التى ظل يجاهد من أجل تحقيقها طوال حياته ، وقد قدر لهذه الرسالة أن تشغل بال حكومات أوربا المطلقة ، وتقض مضاجع الطغاة ، وتحقق ما كان يبدو مستحيلاً ومعدوداً من قبيل الأخيلة والأحلام ، وكانت هذه الرسالة تكاد تكون شيئاً فوق المناقشة ومن وراء الحجة ، كانت شيئاً قد انكشف لبصيرته وكأنها دعوة آمرة آسرة قد استولت عليه واستأثرت به ، وكانت هناك مؤثرات كثيرة قد تجمعت واصطلحت لتعده هذا الإعداد وتوجهه هذا التوجيه ، منها غزو بونابرت لإيطاليا ومنها اطلاعه على كتب روسو وفسكولو ودانتى وأشعار بيرون وتأثره بالحركة الرومانتيكية والفلسفة الألمانية وجيزوه وكوزان ، وحتى جمعية الكاربوناري نفسها كان لها تأثير

فى إيقاظ وعيه وتدبير خططه، فى الوقت الذى كان فيه أبعد الناس أملاً وأجرأهم خيالاً يرى أن أقصى ما يمكن أن تظفر به إيطاليا هو تحرير بعض ولاياتها كانت تتراءى لمتزينى صورة إيطاليا حرة مستقلة موحدة، ويروى أن كافور كتب فى سنة ١٨٥٠ عن الزعيم الوطنى مانين يقول: « هو رجل طيب إلى أقصى حد ولكنه يكثر من الكلام عن وحدة إيطاليا وأمثال هذه السخافات » ، ولم تصرفه عن هذه الفكرة الشدائد المتعاقبة والهزائم المتوالية ، ولم تكن « إيطاليا الموحدة وعاصمتها « روما » برنامجاً سياسياً لمتزينى وإنما كانت عقيدة راسخة ويقيناً ثابتاً لا يتردد فى الدفاع عنه ولا يشك فى إمكان تحقيقه مهما ينكره المنكرون ، ويشك فى إمكان حدوثه المتشككون الساخرون .

ولما شرع متزينى فى تأسيس جمعية إيطاليا الفتاة كان لا يقبل فى عضويتها — إلا فى حالات خاصة — من جاوزوا الأربعين ، وكانت ثقته بالناس فى هذه الفترة من حياته عظيمة وثقته بنفسه أعظم ، وكان يعتقد أن الحركات القومية العظيمة يقوم بها رجال مجهولون من غمار الشعب ليس لهم من سند سوى اليقين القوى والإرادة المصممة ، والحركة الجديدة لا بد لها أن تستمد القوى من وحى العقيدة الدينية ، وإيطاليا فى حاجة إلى من يقيل عثرتها ، ويستنهض عزيمتها ، ويستنقذها من ظلمة اليأس وذل الهزيمة .

وأدرك متزينى بعبقريته النافذة وبصيرته الكاشفة أن الذى يريد الناس على القيام بالأعمال الجليلة والمطالب السامية لا بد له أن يعتمد على

بواعثهم المنسرحة من سلطان الأثرة والجرى وراء المصلحة الخاصة ، حتى إذا أهاب بهم المبدأ ارتفعوا إلى مستوى البطولة ، وضحوا بكل ما يستوجب الحرص على الحياة والتعلق بها ، ومحاولة تحرير إيطاليا وتوحيدها ليست بالمطلب اليسير ، ولا الغاية القريبة المنال ، وهى تستلزم التضحية بآلاف الحيوات ، واحتمال آلام الاعتقال والنفى والتشريد والفقر والحرمان ، ولا يستطيع الناس مواجهة ذلك إلا تلبية لنداء الواجب ، وجماعة الكاربونارى لم تقدر ذلك ، ولم تذهب هذا المذهب ، ولذا باءت جهودها بالفشل ، وعجزت عن تحقيق أغراضها ، فجمعية إيطاليا الفتاة إذاً ليست حزباً سياسياً خالصاً ، وإنما هى عقيدة ومبدأ ، ولا يجىء النصر إلا باحترام مبادئها والاستمساك بالحق والعدالة ، والإقبال على التضحية والإصرار على ذلك ، وهم أفراداً وأمة لهم رسالة قد ندبهم لها الله ، وقانون الواجب الذى سنه الله يعدهم بتحقيقها .

والمبدأ الآخر الذى قامت عليه جمعية إيطاليا الفتاة هو الإصلاح الاجتماعى ، وقد لحظ متزينى أن الحركات السالفة لم تفكر كثيراً فى الجماهير ، ولم تشعرها بما يعود عليها من فائدة إذا نجحت الحركة ، وجمهرة الشعب لا تلبى نداء الثورة إلا إذا قدرت ما تسفر عنه من الخير للمجتمع ، وإنجيل الواجب قد يهيب بالطبقة المستنيرة المثقفة ، ولكن الشعب المضيع الحقوق المهدر الكرامة لا يستجيب لنداء الواجب إلا إذا ملأ نفسه الأمل فى الخلاص من المساوئ الاجتماعية التى ترهقه وتأخذ بأكظامه ، ولن تقوم حرب مظفرة إلا إذا استشعرت الجماهير

ذلك ، ومتى عرف الشعب سبب شقائه وطرائق العلاج وأدرك أن الله فى جانب المظلومين نهض للمطالبة بحقه ، وعلى هذا الأساس وضع متزينى برنامجه السياسى ، وكان ولوعاً بتنسيق البرامج ورسم الخطط ، لأننا لا نستطيع توحيد الجهود وتنظيم الصفوف بغير ذلك ، وكان يرى أن من الخير تسوية الخلافات وتصفيتها قبل أن يحين وقت العمل حتى لا ينجم الخلاف الذى يشل القوى حينما تحتشد للقاء العدو ، وكان عنده أن من أسباب فشل جماعة الكاربونارى عدم الاتفاق على برنامج ثابت ، وكانت سياسة جمعية الكاربونارى لا ترمى إلى أكثر من إسقاط الحكومة القائمة .

ويرى متزينى أن قوة الجماعات لا تجىء من ناحية كثرة عدد الأفراد ، بل من ناحية التجانس والاتفاق على الهدف ، ويرى القارىء من خلال ذلك أن متزينى كان صارماً فى مبادئه ، وهو لم يقبل فى جمعيته إلا الذين يوافقونه على مبادئه فى كلياتها وجزئياتها ، وكان لا يلين فى ذلك ولا يتساهل ولا يساوم ، وكان يرى أن الجبن هو الذى يمنع المعتدلين من قبول موقفه ، ومن أقواله فى ذلك « لا يوجد اعتدال فيما بين الخير والشر والحق والباطل والتقدم والرجعية » ومع تقديرى لموقف متزينى وإعجابى بآرائه أرى أنه كان كثيراً ما يعتقد أن الحق مقصور على التعلق بآرائه والولاء لنظرياته ، ولذا كان لا يتسامح مع الرجال الذين يوافقونه على مقدماته ولا يتابعون منطقه حتى النهاية ، وقد أحبط هذا التطرف الكثير من مساعيه ، وجعله يبدد قوته فى

مجاهدة رجال كان يمكن أن يعمل إلى جانبهم ، وعلى أية حال قد كان متزينى يطلب من الذين كانوا يعملون معه قبول نظرياته التى تشمل كل ناحية من نواحى الحياة القومية والدين والسياسة والأدب والفن ، وفى طليعة مبادئه الوحدة الإيطالية ، وإيثار الحكم الجمهورى ، ويرجع استمساكه بالحكم الجمهورى إلى اعتقاده الراسخ الوطيد بأن النظام الدمقراطى لا يقوم فى ظل الملكية على أية صورة من صورها ، وربما كان من أسباب إيثاره النظام الجمهورى أن الأمراء الإيطاليين كانوا يدينون بالولاء للنمسا ، ويناصرون الرجعية ، أما رأيه فى الوحدة الإيطالية فمما يدل على بعد نظره وقوة حدسه ، فقد آمن بها وسعى لتحقيقها وبشر بها فى الوقت الذى كان الجميع يشكّون فى إمكان حدوثها ، فقد كان فى إيطاليا ملكان لا يمكن أن يعنو أحدهما للآخر إلا بعد معركة حامية مدمرة ، وكان العداء مستحكماً بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وكان لكل ولاية قوانينها وأساليبها فى التربية والحياة ، وتعلق متزينى بفكرة الوحدة وإصراره عليها وتأكيده لها حمل الإيطاليين على الإيمان بها ، وتحقيقها فى النهاية يجعله بحق فى طليعة صانعى أوربا الحديثة .

ولكن الوحدة لن تتم إلا بعد الاشتباك فى حرب مع النمسا ، فهى لا تتنازل عن سلطانها فى ولاياتها الإيطالية إلا بقوة السلاح ، وكان متزينى يرى أن المسألة لا يمكن أن تسوى تسوية سلمية ، وأن مصير إيطاليا سيفصل فيه فى سهل اللومباردى ، وكان يرحب بالحرب ما دامت

القضية التى تقوم من أجلها الحرب قضية عادلة ولا تعالج بغير هذا الأسلوب ، ومن أقواله فى ذلك « إن الحرب هى القانون الأبدى الذى يقف بين السيد والعبد الذى يصدع أغلاله » وكان يرى اللجوء إلى حرب العصابات لأنها الوسيلة الوحيدة التى يستطيع بها الثائرون أن يقاوموا الجيوش المنظمة ، وكان يؤيد هذا الرأى بشواهد تاريخية كثيرة ، وكان مترينى يعتقد أن إسقاط الطغاة الإقليميين أمر هين لا يستلزم سوى القليل من الشدة ، وأن الحكومات العتيقة البالية لا تقوى على المقاومة ، ولكن النمسا يلزم أن يحسب لها حساب ، ولا يمكن زحزحتها إلا بالحرب ، وقد عاب عليه الميالون إلى السلم هذا الرأى وعدوه ناحية من نواحى الضعف فى مثاليته ، وقد اجترأ المستر توماس كوپر الإنجليزى على مواجهته بهذا النقد قائلاً له لماذا لا تعمل القومية الإيطالية على الإصلاح التدريجى ؟ وإن رقيها الأدبى يجعلها تسمو على الطغيان النمساوى ، ولكن مترينى رد عليه قائلاً : « إن ما تقوله يا مستر كوپر يصدق عن وطنك ، فأنتم قاومتم الطغيان مقاومة عنيفة ، وآباؤك قضوا عليه ، وعندكم الآن مجلس نواب ولكم حقوق مكتسبة وقوانين معترف بها فلستم فى حاجة إلى استعمال الشدة واللجوء إلى العنف ، وبلادكم لا تحتاج إلا إلى الإرادة والاتحاد للتعبير عنها ، وأنتم تنالون بذلك كل شىء ، وأنّى لنا مثل هذا الأمل فى إيطاليا ؟ وكيف نؤمل فى التقدم الهادئ والطغيان جاثم على صدورنا بجيشه المثلث من الجواسيس وضباط الجمارك ورجال الشرطة الذين يحمون ذماره ويحرسون استحكاماته ؟

وكيف السبيل إلى التقدم التدريجى فى بلاد محرومة من حرية النشر وإبداء الرأى وليس بها مجلس نيابى وجامعاتها إما مغلقة وإما مستعبدة ؟ وكيف السبيل إلى الإصلاح الداخلى وكل حركة ترمى إلى طلب الحرية سرعان ماتخمدها أسرة الهابسبورج أو أسرةالبوربون أو تدخل البابا ، وكل مصلح فى متناول الأيدى يرسل إلى المشنقة أو إلى الأشغال الشاقة أو يقذف به فى غيابات السجون ؟ فالذكاء يقضى عليه فى الطفولة لأنه لم يجد التعهد الموافق ولا التغذية اللازمة ، والشبان الناشئون يبيعون يقينهم فى سبيل طلب السلامة والتماس التيسير على أنفسهم أو يبددون قوتهم فى نوبات الكلبية العقيمة مترددين بين التشبه بدون چيوان والتشبه بتيمون الأثينى » واسترسل متزينى فى الضرب على هذه النغمة ، وقال المستر كوپر فى ذكرياته عن هذا الحديث « أفحمنا جميعاً » ، ونرى من ذلك أن متزينى لم يكن يؤمن بنظرية عدم المقاومة ومبدأ « اللاعنف » أو « الأهمسا » الذى نادى به الزعيم الهندى العظيم المهاتما غاندى ، ومن أقوال متزينى فى تسويغ مذهبه « هناك صوت يهيب بنا قائلاً : « إن ديانة الإنسانية هى الحب » ولكن الحب يستلزم المساواة فى التقدير والاحترام ، والعفو ثمرة الانتصار ولا نستطيع أن نبتهل إلى النمسا لتخرج من إيطاليا » . والسلام فى رأى متزينى هو التعاون الأخوى ، وهو ثمرة القانون ، القانون الضاربة جذوره فى الحرية والعدالة ، والطغيان فى رأى متزينى هو لون من ألوان الخروج على القانون ، والحرب هى الجواب الخالد والرد الأبدى على هذا الخروج

على القانون ، فحرب التحرير المقدسة هى مهوى فؤاده ، وأعز أمانيه ، وهكذا كانت طبيعته الإيطالية المركبة ! فهو يكره إراقة الدماء ، ويعرض حياته مرة للخطر وهو مختبىء ومتوار عن أعين الرقباء ليصيح بغلام شرع يعذب جرادة ، وفى الوقت نفسه لا يحجم عن الموافقة على استعمال الشـــدة وإثارة الحرب من أجل تحرير إيطاليا وإجلاء النمساويين عن أراضيها ، وقد اكتسب مرة ثقته أحد الجواسيس النمساويين وهو فى مرسيليا وأجاد معرفة شخصيته فكتب عنه يقول : « إن هذا الشاب المتحمس شديد الخطر ، إنه برىء كل البراءة من التماس المصلحة الذاتية ولا يعمل إلا لتجديد إيطاليا وإعادة خلقها وهو مستعد لمواجهة الخطر فى هذا السبيل والتضحية بكل شىء حتى الحياة نفسها وهو لا يتردد فى ارتكاب جريمة القتل لو وجد فى ذلك مصلحة لإيطاليا » .

ووضح لمتزينى أن إشعال الثورات ليس كافياً ، فإشعال ثورة ليس من الأمور المعجزة الخارقة للعادة ، ففرقة واحدة ناقمة من فرق الجيش أو فرقتان يهتفان بطلب الدستور أو مظاهرة شعبية تهتف تحت نوافذ القصور قد ترغم الدوقات وصغار الملوك على إعلان الدستور أو ترغمهم على الفرار ، ولكن المتاعب تبدأ فى اليوم التالى ، إذ يتبين للثائرين أن استعداداتهم لم تتجاوز الثكنات ، وحينما تواجههم الحاجة إلى الأخذ بسياسة إنشائية يتعثرون فى عمل برامج مرتجلة متناقضة ، وفى رهج الفوضى الضاربة بجرانها ينتقل التوجيه إلى أيدى الساسة

الإقليميين المتأهبين لاستغلال الثورة متى نجحت ، وتنتهى الثورة التى كانت تبشر فى أول أمرها بأنها ستكون حركة قومية شاملة إلى ثورات منفصلة متقاطعة يسهل إخماد أنفاسها والقضاء عليها ، واللازم فى مثل هذا الموقف هو أن كل ثورة محلية يجب أن تقوم باسم الحركة القومية الشاملة وتحت إرشادها وتوجيهها ، ويلزم أن يرجع منظمو الثورة إلى برنامج سياسى موحد ملائم لفكرة الثورة ، ويجب أن يسبق ذلك إعداد تربوى يقوم به المشرفون على تنفيذ تلك الرسالة الآخذون بعقيدتها ويقينها ، وعهد الكاربونارى بأسراره الخفية وتعاليمه السرية قد انتهى ، ولا فائدة من حركة يسيطر عليها الشيوخ الذين اشتركوا فى الثورات السابقة وأصبحوا مقيدين بتقاليد قديمة عفى عليها الزمن أو فقدوا القدرة على النضال ولقاء الأخطار ، والشباب هم بناة المستقبل بحماستهم الملتهبة ورغبتهم فى العمل والجهاد ، وجمعية إيطاليا الفتاة بسيطة فى تكوينها ونظامها ، واضحة الخطة ، صريحة الغاية ، مشرقة اليقين ، تنتظم صفوفها الشبان الإيطاليين .

وما العمل الذى تقوم به جمعية إيطاليا الفتاة إذاً ؟ عمل جمعية إيطاليا الفتاة هو التنظيم والتربية ، ولما كان متزينى واثقاً الثقة كلها من أن الثورات العظيمة إنما تقوم على المبادىء قبل أن تقوم على السلاح وأنها تحدث أولا فى عالم الأفكار والأخلاق قبل أن تنتقل إلى عالم الواقع والمشاهدة لذلك فكر فى إنشاء جريدة تهذب النفوس ، وتسمو بالعقول عن طريق إذاعة مبادئ الحرية والتقدم وإظهار

آثارها وتقريبها إلى العقول والقلوب ، وقد كان لهذه الجمعية أعظم الأثر في تربية الشعب الإيطالي وتزويده بالأفكار الحرة وإثارة حميته ، فقد كانت الرسائل والنشرات والبيانات التي تصدرها تصل إلى كل ركن من أركان إيطاليا ، وتتغلغل في كل ناحية من نواحيها ، فتحفز النفوس ، وتثير الحماسة والنخوة ، وتبعث الأمل ، وكان متزيني يعتقد حينذاك أن الثورة آتية لا ريب فيها ، وأن ميعاد نشوبها قريب ، وأنها تهدد أوروبا جميعها ، وأن إيطاليا يجب ألا تتخلف عن سائر الأمم في هذه الحركة الغامة الشاملة ، وكان واثقاً من النجاح .

وقد انتقل متزيني من ليون إلى مرسيليا ، وهناك بدأ إصدار جريدة « إيطاليا الفتاة » واشترك معه في الإدارة والتحرير جماعة من الإيطاليين المنفيين ، وظل مثابراً على الكتابة مدة عامين ، وبذل هو وأصحابه مجهوداً ضخماً ، ولم يلن من عزمهم الفقر والحرمان ، وقد استطاع في خلال هذين العامين أن يبذر بذور الثورة القادمة ، وقد أعدى زملاءه بحماسته وبث فيهم من روحه فارتفعوا إلى مستواه ولم يقصروا في مسايرته والمشاركة في وجوه نشاطه ، وكانوا جميعهم يشعرون بالغبطة والسرور برغم ما يعانون من الضيق والعسر ، وقد أصابت دعوته في إيطاليا آذاناً صاغية وقلوباً واعية ، وأسمعت كلماته من به صمم ، وأثارت هوامد الهمم ، وأحيت في قلوب الشبان ميت الأمل ، وعلمتهم أن يكونوا جديرين بقول المتنبي :

وإنا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل

فالمجهود الضخم ، وتجشم العناء والدمع المسفوح ، والدم المراق ، كل ذلك يمهد السبيل ، ويزيل العقبات ، ويدنى من الغاية المنشودة ، ويسمو بالبلاد ويزيل عنها أوضار الذل والمهانة والاستعباد .

ولقى مترينى فى مرسيليا شاب شديد الإيمان بمستقبل إيطاليا ، وكان لا يقل حماسة عن مترينى ، وقد قام بنصيب وافر فى حركة الاستقلال الإيطالى ، وهذا الشاب هو غاريبالدى ، وقد انضم إلى الجمعية ، وأرسل الفيلسوف الإيطالى چيوبرتى إلى الجمعية رسالة تأييد وتشجيع .

وقد استطاع مترينى بتأسيسه جمعية إيطاليا الفتاة أن ينتزع زمام الحركة القومية الثورية من يد جمعية الكاربونارى ويتولى هو بنفسه قيادة الحركة ، وكان فى الجو السياسى الأوربى علامات مبشرة تدعو إلى التفاؤل ، فبلجيكا انتزعت حريتها من هولندة ، وكانت بولندة شاكية السلاح متحفزة للوثوب ، وكان بالمرستون فى إنجلترا يقاوم سياسة مترنخ ، وأرسل السير چون رسل حينذاك كلمته المشهورة « حينما أسأل هل تصلح هذه الأمة أو تلك لنيل حريتها أسأل فى دورى هل يصلح هذا الإنسان أو ذاك ليكون طاغية مستبداً ؟ » وفى إيطاليا نفسها ارتقى عرش پيدمونت شارل ألبرت سنة ١٨٣١ وكان جندياً مجرباً ، ولم يكن صديقاً للنمسا ، ويقال إنه كان فى صباه عضواً فى جمعية الكاربونارى ، وقد كاد يفقد تاج پيدمونت لأن مترنخ حاول إقناع الملك السابق شارل فلكس بتنحيته عن وراثة الملك لاشتباهه فى ميوله ، وفى أثناء وصايته على العرش فى سنة ١٨٢٠ وعد بالدستور ، ولذا

علق الأحرار على تسنمه العرش الآمال ، وقد أرسل إليه متزينى خطاباً مفتوحاً يحرضه فيه على أن يلبس تاجاً أنبل من تاج پيدمونت ، وهو أن يضع نفسه على رأس الحركة القومية ويقود الأمة الإيطالية إلى الحرية والوحدة ، وأكد فى خطابه للملك أن إيطاليا جميعها ستلتف حوله إذا جرد سيفه وألقى بغمده ونازل النمساويين فى حومة القتال ، وذكر له أنه إن لم يفعل ذلك فإن غيره سيتولاه بغير حاجة إلى مساعدته أو ضد إرادته ، وبطبيعة الحال لم يعبأ الملك بهذه الرسالة ، ومضى متزينى فى طريقه ، وعظم شأن جمعيته ، وانضم إليها رجال من مختلف الطبقات ، وقد قابل شارل البرت رسالة متزينى بإصدار تعليمات مشددة بالقبض على كاتب الرسالة إذا حاول أن يعبر الحدود .

وفى سنة ١٨٣٣ كانت جمعية إيطاليا الفتاة قد أصبحت جمعية قوية مرهوبة ، وأخذت خططها تثمر ، وأغرقت منشوراتها ومطبوعاتها ورسائلها شبه الجزيرة ، فى اللومباردى وپيدمونت وتسكانى ونابولى أو الولايات البابوية كان رجال بارزون يتولون تدريب الشبان الوطنيين المخلصين ويلقنونهم مبادىء الجمعية ، ويعملون على تهريب الأسلحة والذخائر إلى الثغور الإيطالية ، وفى كل مقاطعة قامت الاستعدادات لمقاومة النمسا ، وكان چاكوبو رافينى صديق متزينى الحميم وعضو جمعية إيطاليا الفتاة المخلص العامل يمثل رئيسه فى توجيه الحركة فى چنوا . وأعد متزينى العدة لتبدأ الحركة فى المركزين الرئيسيين فى ولايات سردينيا وهماچنوا والسندرية ، وكان أنصار الجمعية فى هذين

المركزين أكثر عدداً وأقوى نفوذاً ، ومما زاد الأمل ،فى انتصار الحركة انضمام بعض ضباط الجيش إلى الجمعية ، ووعد بعض القواد بمناصرة الحركة إذا ظهرت قوتها وبدا أنها ناجحة موفقة ، ولم تخالج الشكوك متزينى فى نجاح الحركة ولكن جواسيس الحكومة لم يكونوا غافلين ، وقد أمكن شرطة بيدمونت الاهتداء إلى صندوق به مخبأ خفى يحوى وثائق سرية تشمل الشفرة السرية ومفتاحها ، وقد أخذت الحكومة ذلك الصندوق وعملت صورة بمحتوياته ثم أعادته إلى مكانه ، وحدث بعد ذلك خلاف بين اثنين من رجال المدفعية كانوا من أعضاء الجمعية وانتهى الخلاف بأن هدد أحدهما الآخر بإذاعة سر انتسابه للجمعية وإبلاغه للحكومة القائمة ، وتمكنت الحكومة بذلك من أن تقبض على الخيط ، وألقت القبض فى منتصف الليل على مئات من أعضاء الجمعية ، وتبع ذلك المحاكمات العسكرية والتعذيب والقتل والتمثيل بالقتلى ، وهكذا أغرقت الحركة فى سيل من الدماء ، وكان من بين القتلى اثنا عشر شاباً ذنبهم الوحيد أنهم كانوا يقرءون بعض مطبوعات الجمعية ، وافتنت الحكومة فى ابتكار طائفة من التهم السخيفة لتشوه بها سمعة متزينى وتحط من قدره .

على أن الضربة الصادعة التى أصابت متزينى فى غمرة هذه المجزرة الرهيبة التى لوثت سمعة الملك شارل البرت هى انتحار چاكوبو رافينى أعز أصدقاء متزينى عليه وأحبهم إليه ، وقد تخاذل تلقاء هذه الحادثة صبر متزينى ووهى تجلده وكاد يذهب الحزن الشديد بعقله .

ولما بدأت حركة الاعتقالات أعلم چاكوبو كل الذين انضموا إلى الجمعية بجلية الأمر ، وطلب إليهم أن يبحثوا عن ملجأ فى فرنسا أو سويسرة ، ولكنه هو نفسه رفض الفرار قائلاً : « إن حامل العلم عليه أن يظل حاملاً العلم أو يسقط والعلم فى يده » وسرعان ما قبض عليه ، وحاول المحققون بمختلف الوسائل أن ينتزعوا منه معلومات عن الجمعية ، ولكن الوعود المعسولة والتهديدات المنذرة لم يجديا شيئاً مع هذا المجاهد القوى الشكيمة ، ولما نفدت الحيل فى حمله على الاعتراف قدمت لهذا المضطهد المعذب وثيقة تفصل حقائق المؤامرة وأعطى له مفتاح الشفرة الأخيرة ، فقد كانت الجمعية تغير شفرتها فى كل شهر ، وكانت بعض الأسماء التى لم تحم حولها الشبهات مكتوبة كاملة مستوفاة ، ورأى چاكوبو فى آخر الوثيقة إمضاء زعيمه المحبوب وصديقه الوفى متزينى ، وقرأ چاكوبو الوثيقة حتى آخرها وسأله قضاته والمحققون معه موافاتهم بأسماء أخرى فأجابهم « إنكم ستتلقون جوابى غداً » وفى اليوم التالى وجد چاكوبو ميتاً فى محبسه ، فقد انتزع من باب محبسه قطعة من الحديد وسنها على الأحجار وفتح بطرفها المسنون شرياناً فى رقبته ، والظاهر أن تأثير الحبس الانفرادى والمعاملة القاسية التى كان يعامل بها وإزعاجه فى أطراف الليل وأثناء النهار أرهق أعصابه وبلغ كل مبلغ من نفسه الحساسة فلما أطلعوه على الوثيقة الزائفة ساء ظنه بصديقه وزعيمه واعتقد أنه قد خان العهد وانحرف(١) عن الطريق

(١) فى صفحة ٣٩ من كتاب ايديث هنكلى عن متزينى أن الخائن الحقيقى =

السوى ، وكان ذلك أشد ما أثر فى نفس متزينى ، فقد كبر عليه أن يقضى صديقه المقرب ورفيقه فى الجهاد نحبه وقد أساء به الظن وشك فى إخلاصه ، وآلمه ذلك إيلاماً شديداً ، فإمضاؤه الزائفة جعلت صديقه المؤتمن وصفيه المخلص يعتقد فيه أنه خانه ، وخشى هذا الصديق الوفى على نفسه أن ينقلب خائناً فآثر الانتحار على حياة مجردة من الثقة حتى بأخلص الأصدقاء، ومثل هذه الحياة من غير شك لا قيمة لها ولا أمل فيها ! واستمر متزينى طويلاً مستهدفاً لنوبات الحزن اللاذع والألم الموجع ، وكان فى بعض الأحيان يمسك عن الشراب والطعام ، وكان أصدقاؤه يسمعونه وهو يذرع غرفته جيئة وذهاباً مسهد الجفن مسلوب العزاء مردداً لنفسه قوله : « چاكوبو چاكوبو . . . . إنى لم أخنك ! » .

وهكذا خرجت حكومة پيدمونت منتصرة ولكنها ملوثة اليد بدم الأحرار من الشبان مجللة بالخزى والعار .

وأصدرت الحكومة الفرنسية أمراً بنفى متزينى من فرنسا وإبعاده وتعطيل جريدته ، فاختفى فى منزل أحد أصدقائه الفرنسيين وبدأ يصدر نشرات سرية ، وظل يتنقل فى فرنسا من مخبأ إلى مخبأ ، ثم غادر مرسيليا إلى جنيف كسير القلب محزون النفس ، وقد زاده حبوط الثورة الأخيرة إيماناً بضرورة قيام ثورة أخرى فى پيدمونت .

= كان أحد من تثق به أسرة رافينى ، وطالما أحسنت إليه الأسرة ولم يشتبه فى خيانته ويعرف سرها إلا بعد موت متزينى .

الفصل الثالث

متزينى فى سويسرة — فشل الثورة التى أعدها فى مهدها — أثر المرأة فى حياة متزينى

ذهب متزينى إلى چنيف كسيف البال مكتئب النفس ، لكنه مع ذلك مصمم على معاقبة الملك شارل البرت لتنكيله بإخوانه الأحرار ، وكان يرى أن يستغل النيران المشتعلة ليضرب ضربته البكر ويقدم إقدام الأتى ، وكان يعتقد أن الحالة فى أوروبا عامة تؤذن بقرب اتقاد الثورة وحدوث الانقلاب ، وأن انبعاث الحركة الجمهورية فى إيطاليا سيكون بمثابة إعلان لقيام الثورات فى فرنسا وإسبانيا وألمانيا ، وكان هذا كله للأسف خيال متحمس وحلم حالم ألهته آماله المترامية عن الحقائق الواقعة ! .

على أن هذه الآمال البعيدة كان لها إلى حد ما ما يسوغها ، فإن روح الثورة التى خلقتها جمعية إيطاليا الفتاة كانت قد تملكت النفوس واستقرت بها ، وكان هناك استعداد وقابلية للثورة فى نواحى چنوا وساڤوى والولايات البابوية وفى بعض أجزاء من ناپولى ، وأكد متزينى لنفسه أنه فى اليوم الموعود ستبدأ حرب العصابات فى نواح عدة ويلوذ المحاربون بالجبال ، واختار متزينى ساڤوى لتكون مكان بدء الحركة وقيام الثورة .

وفى خريف سنة ١٨٣٣ احتشد فى سويسرا مئات من المنفيين كان أكثرهم من البولنديين والألمان ، ورحب متزينى بالمساعدة والتطوع لأنه كان يعتقد أن ذلك خطوة صالحة نحو الاتحاد الدولى الدمقراطى وسبيل إلى تكوين جمعية « أوربا الفتاة » ، واستعان ببعض الضباط المنفيين على تكوين فكرته عن تنظيم الجيش الإيطالى ، وجاء بحث مسألة اختيار القائد ، فاختلف متزينى مع الذين يعملون معه وبخاصة اللجان التى كانت بعيدة عن التأثر بشخصيته الساحرة ، وكان كثير من الأعضاء يريدون رجلاً له مكانة حربية وماض يجعله أهلاً للثقة ، ووقع اختيارهم على قائد اسمه رامورينو قد اكتسب بعض الشهرة فى الحروب النابليونية والثورة البولندية، وعارض متزينى فى ذلك ، وكان رأيه يختلف عن رأى زملائه فيما يجب توفره فى قائد مثل هذه الثورة ، وكان له رأى خاص فى شخصية رامورينو نفسه ، ولكنه غلب على أمره ، وأثبت القائد المختار أنه سبب إخفاق المشروع ، وأتم متزينى استعداداه ، وبذل فى ذلك جهداً كبيراً ، وأصبح عنده ثمانمائة رجل مجهزين بالسلاح ومتأهبين للعمل ، وكانت هناك خطط موضوعة ومدروسة لتنظيم الثورات فى جنوا ونابولى وغيرهما فى الوقت نفسه ، وتعهد غاريبالدى بأن يشرك أسطول پيدمونت فى الثورة ، ولكن القائد المدعو رامورينو أضاع فرصة النجاح ، ولم يكن على ما يظهر حريصاً على اجتناء النصر ، ويظن أنه حصل على رشوة من الحكومة الفرنسية لإحباط الحملة ، وقد ذهب إلى باريس وتلبث بها وأخذ يبدد نقود الحملة التى جمعها متزينى بصعوبة

وأخذت الحكومات تضغط على الحكومة السويسرية لتبدد شمل المتطوعين ، ولما أصر متزينى أخيراً على قيام الحملة رفض المتآمرون فى سافوى التعاون معه إلا إذا جاء رامورينو ، وبذل متزينى جهوداً مضنية لإنقاذ الموقف ، ولما جاء رامورينو فى يناير سنة ١٨٣٤ كانت الفرصة قد أفلتت وماتت الثورة فى مهدها .

وتبع هذا الإخفاق حملة من أشد حملات التشهير بمتزينى والزراية به ، ونصح له بعض أصدقائه بالانسحاب من الميدان لأن القدرة على الصراع بينه وبين خصومه غير متعادلة ، ونال الفقر المدقع والحاجة الملحة وخيبة الرجاء وفقدان الأمل وتوالى الاضطهاد من نفوس المنفيين فى سويسرة ، وثلم عزائمهم ، وبذر فيما بينهم بذور الشقاق والخلاف ، فأخذوا يتبادلون التهم ويتقارضون الشتائم والسباب ، وكانوا قبل ذلك إخواناً متصافين ، وأصدقاء متضامنين ، وكانت الأنباء الواردة من إيطاليا لا تصف سوى الاعتقال والسجن والهرب والنكوص على الأعقاب وتبدد النظام وتفرق الشمل وغلبة الحزن واشتداد الظلام ، وأصبح مجهود متزينى فى إحياء الأمل وإثارة الهمم عقيماً ضعيف الأثر .

وقد أثرت هذه الحوادث المتوالية فى نفس متزينى تأثيراً سيئاً وأضنته وزعزعت كيانه وأغثت نفسه ، وكاد ينوء بحمل التبعة التى اضطلع بها لولا رسائل التشجيع التى كانت تأتيــه من بعض السيدات الفاضلات اللواتى كن يعطفن عليه ويناصرنه بقلوبهن الكبيرة وعواطفهن النبيلة .

ولما تماسك واسترد همته ويقينه وجد أن إقامته فى سويسرة قد أصبحت مهددة ، فقد كانت الحكومات الأجنبية تمطر الحكومة السويسرية وابلاً من الاحتجاجات لطرد المتطوعين ، وأخافت هذه الاحتجاجات المتوالية الحكومة السويسرية ، ولم يكن من المنتظر أن تقبل الحكومة السويسرية التورط فى مضايق الخلافات الدولية من أجل لفيف من اللاجئين قد أساءوا الضيافة حسب حكم وجهة النظر العادية ، وأرسلت بعضهم عبر الحدود ، واستتر فريق منهم ، وصمم متزينى على ألا يبرح سويسرة ، فقد كانت خططه تقتضى أن يكون قريباً من إيطاليا ، وكان لا يميل إلى الابتعاد عن بلاده المحبوبة ، واستهاله حب سويسرة وبخاصة منظر جبال الألب ، وظل فى سويسرة ثلاث سنوات متنقلاً فيها بين لوزان وبرن وسولير ، ورجال الشرطة تارة يطاردونه ويضيقون عليه الخناق ويشتدون فى طلبه ، وطوراً يتغاضون عنه ، ولكنه كان يعيش عيشة السجين فى البيوت التى يلوذ بها ، وقد ظل سبعة أشهر يأوى إلى بعض المنازل المهجورة ولا يبرحها إلا تحت ستار الظلام ، وقد مارس حياة النفى والتشريد بكل ما فيها من قسوة ومرارة وضيق وحرمان ، واحتمل تلك الآلام التى تخترم الجسم نحافة وتبدل نضارة الوجه شحوباً ولكنها لا تقتل ، وتهتصر عود الإنسان ولكنها لا تكسره ، وكان يزيد مضايقته قلة ما بيده من المال ، وكانت والدته ترسل إليه ما تستطيع أن تقتصده ، وكان أصدقاؤه يقرضونه ولكنه كان لا يتأخر عن سد حاجة المنفيين

وإغاثة الملهوفين ، وكانوا يضجرونه بكثرة الطلبات حتى يستثيروه ، وكان ينفق ما يتبقى معه على مطبوعات جمعية إيطاليا الفتاة لأن الاشتراكات كانت قليلة لا تفى بحاجة الجمعية .

وأخذت تتكاثر عليه الهموم وتساوره الأفكار السود ، وقد أوقعت الحملة الفاشلة الخلاف فى صفوف الجمعية ، وكانت الأخبار التى تجىء من إيطاليا تثبط العزم وتثير الهم ، وألقى عليه المنفيون تبعة الهزيمة ، وألفى نفسه دريئة للاتهام والسباب وقوارص النقد ، وكان يقابل ذلك كله بالاحتقار وسوء الظن ، وتبدل صفاء نفسه عبوساً وجفوة ، وألم به لون من ألوان كراهة البشر والضيق بالناس كان غريباً عن طباعه ومألوف عاداته ، وأصبح وعر الجانب ، مر الخليقة ، بادى الشراسة ، يؤثر العزلة ويتحاشى لقاء الناس ، قال عن نفسه فى تلك الفترة « إنى أميل إلى حب الناس من بعيد لأن الاحتكاك بهم يجعلنى كارهاً لهم » . وكان أشد ما يؤلم نفسه ، ويهيج حرقاته وينكأ جروحه ويجره إلى الهاوية السحيقة التفكير فى الشقاء الذى يتجرع مرارته أصدقاؤه وأنصاره ، وكان يحدث نفسه بأنهم شقوا من أجله ، وإن كان هذا الشقاء فى سبيل قضية ضحى لها هو بكل شىء ، وقد أصبح أترابه وأصدقاء شبابه وخاصة أصحابه جميعهم فى المنفى يعانون آلام التشريد وذل الاغتراب ، وأخذ يشك فى نفسه وفى أعماله ويتهم نفسه بأنه ضحى بأصدقائه ، وساق النكبات إلى أهله وأصحابه وأحبابه ، وكاد يضل فى بيداء الشكوك ، فهل ذهبت دماء أصحابه هدراً ؟ وهل ضحى بحياتهم من أجل أمل خلب

كذوب ممتنع التحقيق ؟ وقد كان يعلم أنه مخلص النية صحيح الطوية ، ولكن ما الذى يحدوه على التبشير بعقيدة تضحى بالكثيرين وتسلط عليهم عوادى الشقاء وتمتحنهم بأقسى ما يمتحن به الناس ؟ ألا يجوز أن يكون ذلك كله من جرائر خطئه وعواقب قصور تفكيره ؟ وكانت هذه الأفكار تجعله فى النهار حليف الهم وتؤرق جفنه فى الليل ، حتى أشفى على الجنون وخطرت له فكرة الانتحار ، ولم ينقذه من غمرات هذا اليأس المضيض القاتل إلا قوة يقينه ، ومتانة خلقه ، وعطف تلك السيدة النبيلة القوية الروح مدام رافينى والدة صديقه الشهيد چاكوبو ، وطالعته فكرة الواجب فى جلالها الشامل لكل نواحى الحياة فشدت من عزمه ، وبددت ظلمات يأسه ، وعرف أن الرجل كل الرجل هو الذى يدين بديانة الواجب ، ويأنس به ، فلا يتحرق إلى الحب والعطف ، ولا يخشى الانفراد والوحدة ، ولا ينال منه تنكر الأصدقاء ، ولا تشهير الأعداء ، وقد كتب فى هذه الفترة إلى صديق له يقول : « حينما يكون الإنسان قد قال لنفسه فى تفكير جدى وشعور صادق « إنى أومن بالحرية والوطن والإنسانية» فإنه يكون قد عاهد نفسه على أن يجاهد فى سبيل الحرية والوطن والإنسانية ما دام حياً جهاداً لا هوادة فيه ولا مهادنة ، وأن يحارب بكل سلاح وأن يواجه كل شىء من الموت إلى السخرية والاستهزاء ، ويلقى العداوة ، ويظل مقبلاً على عمله مثابراً على خطته لأن ذلك واجبه لا لأى اعتبار آخر » .

وألح عليه بعض أصدقائه فى الابتعاد عن السياسة ، وهدده والده ،

وتوسلت إليه والدته ، وكان يسره — أو على أقل تقدير كان يظن ذلك — أن ينسحب من الميدان إذا تقدم زعيم آخر ليحمل عنه العبء ويدير الحركة ، وهبه انسحب من الميدان فهل يستطع أن يفرغ للأدب أو الدعوة الأخلاقية فى بلاد محرومة من حرية الرأى والتفكير ؟ لقد كان يرى أن خير وسيلة لإيقاظ أمته من رقدتها هى أن يقدم لها أنموذج حياة، ويضرب لها مثلاً صالحاً ، ولكى يكون كذلك يجب ألا تروعه الخطوب ولا تنال منه الحوادث ، ولا يثنيه عن غرضه شىء ، أو يصرفه عن غايته صارف ، وإذا تراجع فى تلك الآونة فإن الكثيرين سيحذون حذوه ، ويقتفون أثره ، ويصبح نكبة على نفسه وعلى بلاده وأتباعه .

وأخذ يفكر فى أسباب حبوط الثورات التى قامت فى خلال السنوات الخمس التى تصرمت ، ولماذا تصامّت الناس عن سماع دعوة الحرية سواء فى فرنسا أو إيطاليا ، وكان كثيراً ما يسائل نفسه : لماذا نجحت المسيحية ؟ ولماذا أخفقت حركة الخلاص الاجتماعى والسياسى وهى شبيهة بحركة الديانة المسيحية ؟ وقد وجد أن الجواب الصحيح عن ذلك هو أن علة الإخفاق هى أن الثورة أخطأت تقدير القوى الروحية ، وقد اعتمدت الثورة الفرنسية على استثارة حرص الإنسان على مصلحته الشخصية وحقوقه وحبه للسعادة ، ولقد كانت ثورة على الشر ، ولكنها لم تكن رسالة لطلب الخير والصلاح ، ولقد كانت لها فائدتها ، ولكنها قد أنجزت مهمتها ، والقرن التاسع عشر ينتهب أفكار القرن الثامن عشر ، فى حين أن تلك الأفكار قد مضى عهدها وأصبحت الحاجة ماسة إلى

مبدأ جديد ، وهذا المبدأ يجب أن يكون مبدأ روحياً ، فالثورة الجديدة يجب أن تثير شعور الناس بالواجب ، وأن توحى إليهم أن يعملوا للإنسانية لا لأنفسهم ، ولا يمكن التخلص من الصغائر التى أفسدت الأمور وهبطت بالنفوس إلا بقوة ذلك المبدأ .

وبرغم ما منى به من الفشل كان لا يزال يعتقد أن أوربا ناضجة للثورة إذا فتحت لها الطريق أمة من الأمم وقدمت لها المثال ، وكان كذلك ما زال يعتقد أن الأمة الإيطالية هى التى تستطيع ذلك ، لأن فرنسا لم تعد صالحة لهذا العمل لشدة تعلقها بمبادىء الثورة الفرنسية وتقاليدها ، ومن الأمور الملحوظة فى حياة متزينى كراهته لفرنسا وسوء ظنه بها واعتقاده أن التقدم فى أوروبا لايسير فى طريقه السوى إلا إذا تخلصت أوربا من تأثير فرنسا الأدبى والسياسى ، وربما كان متزينى متأثراً فى هذه العداوة التى لازمته طوال حياته بذلك التنافس القديم بين الأمتين اللاتينيتين ، ثم لماذا لاتجئ القدوة والإشارة إلا من إيطاليا ؟ يخيل إلى أن عاطفته القومية هى التى كانت تلون تفكيره وتوجهه هذه الوجهة ، وليس عليه فى ذلك كبير بأس ، فنحن جميعاً مهما كانت نزاهتنا تؤثر عواطفنا فى أفكارنا ولا حيلة لنا فى ذلك .

وكان لا يزال على اعتقاده أن الثورة هى وسيلة الخلاص ، وقد خالفه فى ذلك الفيلسوف الإيطالى جيوبرتى الذى كان معاصراً له ، لأن الثورات المخفقة تضعف من عزيمة الوطنيين ، وتزيد الضغط والاستبداد ، ولم يقنع ذلك متزينى ، ولكنه مع ذلك أخذ يعتقد أن إعداد الثورة

يحتاج إلى زمن أطول لإزالة الجمود الذى ابتلت به الناس عصور الظلم والاضطهاد والاستبداد ، وليس معنى ذلك التقاعد والتوانى لأن الفتور فى السعى معناه الإحجام والجبن ، وقد ظل مثابراً على إعداد معدات الثورة رغم ضيق موارده والهم الذى كان يحالفه ، وتوقفت « إيطاليا الفتاة » عن الصدور ، ولكنه ظل يكثر من كتابة الرسائل ويكسب الأنصار والعاطفين على الحركة ، ويرسل رجالاً من قبله ليوافوه بحقيقة الأحوال فى إيطاليا ، وكانوا يعودون إليه حاملين أخباراً تفت فى العزم ولا يروق سماعها آذان الأحرار .

وبالرغم من أن الاشتغال بالسياسة كان يستغرق جهده فقد كان يجد فى بعض الأيام متسعاً من الوقت لكتابة الفصول الأدبية ، وقد كتب فى تلك الفترة رسالته عن « فلسفة الموسيقى » والفصل المأثور الذى وازن فيه بين بيرون وجيتى موازنة بديعة عميقة ، وجمع المواد اللازمة لطبع مؤلفات الشاعر فوسكولو الذى كان يحبه ويولع بشعره ، وكان يريد أن يشرف على طبع مجموعة من الروايات التمثيلية بينها رواية للكاتب الألمانى ورنر ، وأخرى للكاتب الفرنسى الفرد دى فنى ، وحاول إصدار مجلة للأدب الأوربى ولكنه لم يوفق فى ذلك لأنه لم يجد المال الكافى .

وقد كان متزينى ممن يحترمون المرأة ، ولم تكن تعجبه الغلظة والسوقية والعامية التى يبديها بعض الكتاب فى كتابتهم عن المرأة ، ومن أقواله فى ذلك « أحب المرأة واحترمها ولا تلتمس عندها الدعة والراحة ، وإنما ألتمس القوة والإلهام ومضاعفة قواك العقلية والأدبية ، وامح من عقلك

فكرة التفوق والأفضلية فإنك لا تملك ذلك ، وليس هناك تفاوت بين الرجل والمرأة ، ولكن هناك اختلافاً فى الاتجاهات والوظائف الخاصة كما يحدث بين الرجل والرجل ، والرجل والمرأة نغمتان بدونهما لا يمكن الضرب على الوتر الإنسانى » .

وقد كان للمرأة أثرها فى حياة متزينى ، وكان أثرها قوياً واضحاً ، لا من ناحية الحب والصبابة ، فقد كان متزينى بحكم الرسالة التى فرض على نفسه القيام بها من الرجال الذين لا يسهل على كيوبيد أن يستهويهم ويوقعهم فى أشراكه أو يرميهم بسهامه ، وقد استأثرت مجهوداته السياسية بقواه الحيوية حتى كاد يصدق فيه قول المتنبى مفاخراً .

وغير فؤادى للغوانى رمية   وغير بنا نى للزجاج ركاب

ولم يكن متزينى حسن الرأى فى الرجال الذين يحجمون عن الاشتراك فى الحياة العامة ، حرصاً على حياتهم المنزلية الخاصة ، وإبقاء على عشهم الهادئ الأمين ، وبرغم رقة حاشيته وخفة ناحيته وعذوبة نفسه ورهافة حسه وشاعريته وقدرته الفائقة على فهم عواطف النساء فهماً لم يتيسر إلا للقليل من الرجال فإن علاقته بهن لم تتجاوز فى أغلب الحالات حد الصداقة الخالصة العفة والعطف الطاهر النقى ، ولم ترتفع إلى مستوى الحب إلا مرة أو مرتين .

ولما ذهب إلى منفاه كانت المرأة التى لها فى نفسه أكبر منزلة هى مدام رافينى ، وقد كان حبه لوالدته عميقاً قوياً ، ولكن كان بينهما شيء من الاختلاف الفكرى ، وكان مع ذلك يجد فى إعجابها به وعطفها

عليه ما يشجعه ويجنبه خطر الانزلاق والنكوص على الأعقاب ، أما مدام رافيني فكان متزيني يعجب بها ويكبرها ويجلها لنبلها وشجاعتها وعمق يقينها الديني وثقافتها واستنارتها ، وهي التي هدته حين كاد يضل في تيه الشكوك ، وردت عليه عزمه ويقينه حينما انهارت نفسه ، وتخاذل صبره ، ووهى جلده ، وخيف عليه أن يفقد رشده ، ويُذهب بعقله .

وقد كان لهاتين المرأتين أثر عظيم في حياته وجهاده ، وقد أحب وهو في مرسيليا امرأة أخرى حباً من نوع آخر ، وفتن بها وراقه جمالها ورقتها ، وأظلته بعطفها ووداعتها ، وكانت عاطفته نحوها أقوى عاطفة حب استهدف لها في حياته الطويلة الغاصة بالحوادث والمواقف ، وهذه المرأة هي السيدة جوديتا سيدولي ، وهي سليلة أسرة نبيلة في اللومباردي اشتهر أفرادها بالوطنية ، وكان أخوها كارلو بليريو من أعضاء جمعية إيطاليا الفتاة وقد نفي من إيطاليا لهذا السبب ، وقد زوجت وهي فتاة بجيوفاني سيدولي وكان كذلك من الوطنيين المنفيين ، فلما توفي زوجها أوصاها بأن تظل وفية لمبادىء الحزب ، وقد حافظت على عهدها ، وكان لها من زوجها طفلان ضمهما جدهما لأبيها بعد نفيها من إيطاليا لأسباب سياسية ، ورفض دوق مودينا أن يسمح لها بالإقامة في حدود دوقيته للإشراف على تربية طفليها ، وكانت تكبر متزيني ببضعة أشهر ، وقد لقيها متزيني أول مرة في مرسيليا وقرّب بينهما أسباب المودة وحدة الغرض وتشابه النزعة السياسية والميول القومية ، وقد ارتبط متزيني معها بوعد الزواج قبل أن يبرح فرنسا ، وقد اضطرت بعد فشل محاولة سافوى إلى العودة إلى إيطاليا

لرؤية طفليها ، وكان متزيني لا ينقطع أثناء ذلك عن موافاتها برسائله الحارة المعبرة عن شدة حبه لها وشوقه إليها ، وقد قال متزيني مرة لأحد أصدقائه : « إنى أحبها أكثر مما تظن هى ، وأكثر من حبها لى ، وأحلم بها أثناء الليل وأطراف النهار ، وحبى لها واهتمامى بها فى نماء وازدياد ، ولكنى مع ذلك أعلم علماً ليس بالظن أننى لن أتمكن من أن أعيش معها حتى لو كانت إيطاليا حرة » ، على أن الأيام لم تسمح لهذا الحب بأن يتزايد ويطغى ويكتسح الحواجز والأسوار ويصبح شغلاً شاغلاً وهماً ملازماً ، فقد لطفت حرارته وهونت من شدته كثرة الفراق وطول البعاد ، وكان لها من طفليها عنه منصرف ، وكان لمتزينى من رسالته الخطيرة وحياته غير المستقرة ونضوب موارده ما يتجافى به عن سبيل الحب والزواج والسعادة الدنيوية ، وقد استحال الحب بينهما صداقة عاطفة ومودة باقية ، وقد قال متزينى فى ذلك : « إن الذى قضت عليه الظروف بأن لا يعيش عيشة زوجية هادئة يظل فى قلبه فراغ لا يملؤه شىء ، وأنا الذى أكتب ذلك أعرفه » .

وفى أوائل سنة ١٨٣٧ غادر سويسرة إلى لندن .

الفصل الرابع

حياة متزيني في لندن — متزيني وتوماس كارلايل

قدم متزيني لندن يصحبه صديقاه الشقيقان أوجستينو رافيني وچيوفاني رافيني ، وقد اضطر متزيني إلى مبارحة سويسرا لأن حياة الاستخفاء والمطاردة الدائمة والمراقبة التي لا تغفل عنه طرفة عين استنفدت صبره وحيله وقوة احتماله وأصبحت لا تطاق ، وقد تنسم في لندن ريح الحرية ، وخلع رداء التخفي ، واستراح من الرقباء ، ولكن الانتقال من مشاهد سويسرة الرائعة ولا سيما منظر غروب الشمس بها إلى ضجة لندن وقذارة أحد شوارعها الخلفية ملأ نفسه هماً ووحشة وتضجراً حتى قال : « لقد حرمنا حتى من السماء التي يستطيع أشقى الناس في القارة الأوربية أن يجيل فيها الطرف ! »

وأقام هو ولفيف من أصحابه في منزل بشارع چورچ وظل به ثلاث سنوات وهو يعاني الضيق والفقر ، وكان مع ذلك يشمل أصدقاءه بعطفه ، ويفيض عليهم من كرمه ، ويضحى براحته في سبيل إسعادهم والتيسير عليهم ، وحدث خلاف بينه وبين أوجستينو رافيني كان مصدره أثرة أوجستينو وسلاطة لسانه ، وكان يعرف فضل متزيني ولكنه كان لا يملك عنان نفسه ، ولم يكن بطبيعته مستعداً لطاعة إنجيل الواجب إلى النهاية !

وكان أخوه چيوڤانى أهدأ منه طبعاً وأرق حاشية ، ولكنه كان مثله لايؤمن كثيراً بشريعة الواجب ، وكان هذا الاختلاف يحز فى نفس متزينى ويزيد فى همه حتى قال : «إنى لا أحب أحداً ولا أريد أن أحب أحداً ». وقد ظلم نفسه بهذا القول ، ولكنه يدلنا على حالته النفسية السيئة فى تلك الفترة ، وكان لا يبرح المنزل الذى يقيم به إلا إلى المتحف البريطانى ، ولم يكن يملك من النقود مايكفى لشراء مايحتاج إليه من الكتب والمراجع ، ولم يجد أحداً يعيره نقوداً لأن معظم المنفيين كانوا مثله فقراء مأزومين ، وكان يعيش هو وأصحابه فى أكثر الأيام على الأرز والبطاطة ، وأرسل إليه والده نقوداً ليضارب بها فى زيت الزيتون ولكنه بددها ، ولما جاءته رسالة تعنيف من والده أبى مدة سنوات أن يقبل من أسرته أية مساعدة ، وحاول عبثاً البحث عن عمل ، ولم يشق طريقه إلى المجلات الإنجليزية إلا ببطء ، وكانت الفصول التى نشرها فى بادىء الأمر لا تدر عليه سوى القليل بعد أن يدفع منه جانباً للمترجمين ، وكان مع ذلك لا يتردد عن مساعدة المنفيين الذين يلوذون به ويشكون إليه حاجتهم ، ورهن أكثر ما يملك مثل ساعته وكتبه ومصوراته الجغرافية وخاتم والدته ، وعرض صحته فى الشتاء للخطر بإعارة معطفه الوحيد لأحد أصدقائه من المنفيين ، ولم يستطع مرة الذهاب إلى المتحف البريطانى لخلو خزانة ثيابه من الثياب ، وكان قد أعار بعضها لأصدقائه ورهن بعضها لشدة حاجته إلى النقود ، ولما علمت والدته بذلك أرسلت إليه ملابس زهيدة القيمة ليستبقى منها شيئاً لنفسه .

وكان أصدقاؤه الميسورون يعرفون فرط كرمه وسرعة تفلت النقود من بين يديه ، ولذا كانوا إذا استسلفهم نقوداً يعتلون عليه ويعتذرون إليه ، ولما بلغه أن جماعة من أصحابه فى تورين يقومون بعمل اكتتاب لجمع نقود وإرسالها إليه لم يقبل ذلك ورفضه رفضاً باتاً ، ولم يكن أمامه سوى طريقين ، طريق الانتحار وطريق المرابين ، وكانت فكرة الانتحار تخايله وتلوب حوله ، ولكنه تأبى عليها ، ورآها جبناً لا يليق بأقوياء الرجال ، وآثر أن تتلقفه أيدى المرابين الذين يمتصون دماء الناس فى غير رحمة ولا حياء ، فكان يقترض بفوائد بين ثلاثين فى المائة وأربعين فى المائة ، وأرغم مرة على أن يقبل دفع مائة فى المائة .

ورغم هذا العسر المالى والضيق الخانق أخذت حياته الخارجية تشرق وتنجلى سحبها ، وكان النفور قد اشتد بينه وبين الأخوين أجستينو وچيوفانى ، وقد أبلغا والدتهما « أن أفكارهما أصبحت مخالفة لأفكار متزينى » وقالا عنه إنه يعيش فى عالم من نفسه ، وربما كان لهذه الشكوى أساس من الصحة ، فقد كان متزينى يعدهما فى وصايته ، وهما من ناحيتهما لم ينسيا أن حماسة متزينى المندفعة هى السبب فى موت أخيهما وهى التى ساقتهما إلى المنفى وعرضتهما لهذا البلاء الذى كانا يعانيان أوصابه وكانا يعدانه بطلا حينما كانا يؤمنان ببطولته ويشاركانه فى معتقداته ، ولكنهما الآن فقدا الثقة به والإيمان بأفكاره ورأيا انحلال جمعية إيطاليا الفتاة وتخاذل أعضائها ، ولا نزاع فى أنه مما يكدر صفاء الإنسان ويثير غضبه أن يظل فى جوار زعيم ليس له عليه سلطان أدبى وهو مع ذلك مستهدف

لتقريعه الأدبى ورقابته الأخلاقية ، ولما كانا يتحاشيان الانشقاق الصريح والتمرد السافر على زعيمهما فقد أخذا يكثران من إثارة الصغائر والتعلق بالسفاسف، وكانا يجدان لذة فى الاستخفاف بحماسته ، والتعرض بالنقد لآرائه ، ومعاكسة أفكاره ، ومعارضة خططه ، وكان شحذ سلاح الهجاء واشهاره على رجل يستطيع الانتصار عليهما بنفس السلاح لا يخلو من خطر عليهما ، ولكن شبح الشهيد چاكوبو كان يقف بينه وبينهما، وكان من السهل على رجل فى قوة حجة متزينى وحضور ذهنه وبلاغة منطقه أن يحيل الدفاع عن نفسه هجوماً ساحقاً ماحقاً ولكنه ملك نفسه ، وكظم غضبه ، واحتملهما كثيراً ، وصبر عليهما صبراً جميلاً ، وهما يمعنان فى الإساءة ، ويثوران من الحين إلى الحين ، ويبرقان ويرعدان لأتفه الأسباب ، ومتزينى مع ذلك كله صابر محتمل ، متسامح غفور .

والواقع أن الفترة ما بين سنة ١٨٣٧ وسنة ١٨٤٠ كانت من أقسى فترات حياته وأشدها ، وكانت الآلام الجسدية هينة إلى جانب الآلام النفسية التى عاناها فى تلك الأيام ، فقد كان بعيداً عمن يحبهم ويودهم معنياً بأخبار والدته التى كانت تحتمل الآلام فى سبيله ومن أجله ، وكان يسوءه أن يرى انفضاض أصحابه العاملين من حوله واحداً بعد الآخر ، وتنكرهم لمثلهم العليا ، وكانت تؤلمه وتحز فى نفسه القيود التى تعانيها بلاده وعجزه عن خدمتها بسبب الفقر المدقع الذى كان يعانيه وغموض شأنه وخفاء أمره فى تلك البلاد البعيدة عن بلاده .

ولكن هذه الأزمة الشديدة المستحكمة أخذت تؤذن بالانفراج

فقد وفق فى الحصول على عمل أدبى ، وأصبح يعاون فى تحرير مجلات عدة ، وكان يستعين بذلك على نفقاته ونفقات الأخوين وسائر المنفيين الذين يلوذون به ، وكتب فى هذه الفترة فصولاً أدبية كثيرة ، كتب عن الشعر الإنجليزى والفرنسى والألمانى وبخاصة عن الأدب الإيطالى وسأنقل فى الفصل الذى سأعقده للحديث عن مترينى الأديب النقادة بعض نماذج من نقده لڤكتور هيجو وكارلايل وغيرهما من كبار الشعراء والكتاب ، وكان يجتهد فى أن يجعل فصوله الأدبية تسترعى النظر لإيطاليا وماضيها وحاضرها ، واتصلت الأسباب بينه وبين طائفة من أعلام الرجال فى الأدب والسياسة والإصلاح الاجتماعى ، وأصبحوا يجدون شرفاً ومتعة روحية فى معرفة هذا الشاب الإيطالى المجهول الذى نجا من الموت جوعاً قبل ذلك بقليل بفضل المرابين المتشددين والذى كان ما يزال يعيش فى غرفة صغيرة لا يكاد يجد فيها متسعاً لكتبه الكثيرة وأوراقه المتراكمة .

وبالرغم من بوادر النجاح وانفراج الأزمة رويداً رويداً فقد آلمته وحدته وثقلت عليه وطأتها ، ولم يكن يجد حوله صديقاً يفتح له قلبه ، ويفضى إليه بأحزانه ، وكان لا يرى سوى غدر الأصدقاء ، وتنكر الأنصار ، وتقلب الأتباع وتباعدهم حتى صار يعتقد أن العصر عصر انحلال أخلاقى قد فسدت فيه الضمائر ، ونغلت النيات ، وغاض الوفاء ، وفاض الغدر ، وكان هذا الاعتقاد يثير رواقد آلامه ، ويسعّر مواجده ، ويشعره بأن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح ، وأنه يكدم فى غير مكدم ، وأنه قد ضحى بنفسه ، وببعض الأعزاء من أصدقائه ، ومع ذلك لم يحقق

أملاً ولم يصنع شيئاً !

ولكن الذى أنقذه من ظلام هذا اليأس المرير أنه كان فى سويسرة قد طلق فكرة السعادة الشخصية ، لأن الجرى وراء السعادة يؤدى إلى غلبة الأثرة ، وأقنع نفسه بأن التضحية هى الفضيلة الحقة ، وأن واجب الإنسان نحو الله والإنسانية والوطن هو قانون الحياة الذى يتبعه أفاضل الناس وصفوة الرجال ، وقد استحالت هذه الفلسفة فى نفسه عقيدة صوفية جميلة منقذة منجية ، وتراءت له الحياة نوعاً من التكفير عن الذنوب وتطهير الروح من الخطايا والآثام وإعدادها لعالم آخر أسمى يتلاقى فيه الأصدقاء وقد صفت قلوبهم من الغل وزال ما بينهم من خلاف وقطيعة وأظلهم الحب والتعاطف ، وحتى فى هذه الدنيا قد يكون الحزن نصيب الفرد ، ولكن الإنسانية وهى الكائن الكلى العظيم ستتقدم إلى عوالم جديدة من المعرفة وتطالع طريف الآمال ، وتضع قواعد جديدة للحياة أنبل وأسمى ، واستحال حبه لصاحبته جوديتا إلى نوع من التقدير الخالص والإعجاب الصافى بطهارة نفسها وأصمعية قلبها ، وانقطعت الرسائل بينه وبين مدام رافينى تلك المرأة الفاضلة التى كان يجلها ويحترمها وينزلها من نفسه منزلة الوالدة ، فقد وقعت النبوة بينه وبين ولديها ، فعملا على الغض منه وتشويه منازعه عندها ، حتى أفلحا فى إحداث القطيعة وحرمانه من عطفها السابغ وتشجيعها المخلص ، وأبى لمتزينى كرم أخلاقه وإسجاح لبه أن يطلعها على حقيقة الحال ويصف له موقف نجليها منه وتعمدهما الإساءة إليه والنيل منه خشية أن يسىء إلى شعورها بتشويه عمل

نجليها في نظرها وإظهارهما إزاءها في مظهر الخاطئين وأخذ يزايله حزنه اللازم وتخف أثقال همومه لما بدأ أن يكون له أصدقاء في إنجلترا، وحقيقة أن أفكاره السامية ونظرياته المحلقة وتعمياته العريضة لم تكن مما يميل إليه الإنجليز ويسيغونه، فحبهم للحقائق الملموسة يجعلهم يشتبهون في النظريات والنظم الفكرية، وكان متزيني يرى ذلك ضرباً من ضروب المادية التي تقضي على التفكير الروحي أو الفلسفي، وكان سيء الرأي في السياسيين الإنجليز، ولا سيما ساسة حزب الأحرار، ولم ترقه كذلك الحركة السياسية المعروفة باسم حركة الكارتزم لأن القائمين بها في نظره كانوا من من الإنجليز المتأثرين بمذهب بنتام، وليس لهم من مبدأ سوى طلب أعظم ما يستطاع من السعادة، وهو عند متزيني مطلب مادي لا يستوجب الحماسة ولا يستحق العناية، وكان يرى أن الخلاف بين طبقة العمال والطبقة المتوسطة ينذر بثورة خطيرة وشر مستطير، ولكن طول إقامته في الجزائر البريطانية جعلته يتبين الجانب الحسن في حياة الإنجليز، وصار يعجب باعتدالهم وحسن تأتيهم في الأمور، وقوة مثابرتهم، وشدة مصابرتهم، وحسن بصرهم بالناحية العملية في الأفكار الجديدة، وأنهم إذا تقدموا خطوة للأمام لا يرجعون القهقرى، وصار يراقب في شيء من العطف تقدم حركة الكارتزم.

وكانت أولى صداقاته في إنجلترا مع أسرة كارلايل، وقد كتب إلى والدته في سنة ١٨٤٠ يقول لها من رسالة: «إنهما يحبانني حبهما لأخ لها، ويرغبان في أن يسديا إلى من الجميل أكثر مما في طوقهما أن يفعلا»

وقد كان فى بادىء الأمر يحب كارلايل حباً جماً ، كتب يقول عنه « إنه رجل طيب ، جد طيب ، وفى اعتقادى أنه برغم شهرته العظيمة بائس شقى » وكان يحترم إخلاص كارلايل وحريته وسعة أفقه وصراحته وملكاته الأدبية السامية وعبقريته غير المنكورة ، قال عنه : « إنه قد يبشر بمزية الصمت لهؤلاء الذين يخالفونه فى الرأى ، ولكن موهبة الصمت ليست من مزاياه » وقد رحب متزينى بمعرفة كارلايل لاعتقاده أن كارلايل يعبد نفس الإله الذى يعبده متزينى وإن اختلفت طرق عبادتيهما ، فهو ضريبه فى مهاجمة النفعية والنزعة المادية ، ومما ساعد على تقريب ما بينهما إعجابهما الشديد بدانتى ، على أن ذلك لم يمنع متزينى من وضع كتب كارلايل على المشرحة ونقدها نقداً عميقاً وافياً ، وقد قرأت ما كتبه عن كارلايل كبار النقاد أمثال تين ومورلى وإدوارد كيرد وچون نيكول وروبرتسن وغيرهم فلم أر أحداً منهم قد فاق متزينى فى أصالة تفكيره وعمق نظراته ، وقد كان هذا النقد على قوته وصراحته مشرباً بالعطف ممزوجاً بالاحترام والإعجاب ، وقد قال لوالدته عن هذا النقد فى إحدى رسائله إليها « إنى أختلف مع كارلايل اختلافاً أكيداً بحيث إننى لا أستطيع إلا أن أنقده نقداً شديداً مع الاحترام بطبيعة الحال ، ولا أستطيع أن أغير شيئاً ، أو أقوم بدور المنافق ، فإذا كان كارلايل يحترمنى باعتبارى رجلاً له معتقداته فإنه لن يلومنى لصراحتى فى إبداء آرائى ». وظهر النقد فى عدد يناير سنة ١٨٤٠ من مجلة « مونثلى كرونكل » وقد أشار متزينى فى نقده إلى نزعة كارلايل الفردية وعبادته للبطولة وانتقاصه

من قيمة الحركات العامة ، وإحجامه عن النزول إلى ميدان العمل وتردده وعجزه إذا واجه مسألة عملية ، ولم يحدث هذا النقد صدعاً فى صداقة الرجلين بل قويت الصلات بينهما وأكثر كارلايل وزوجته من دعوته إلى منزلها لتناول الغداء معهما ، وزاره كارلايل فى منزله ، وكان كارلايل وزوجته يقيمان حينذاك فى ضاحية شلسى وكانت فى ذلك الوقت قرية هادئة جيدة الهواء ، فأشارا على متزينى بالانتقال إليها وبحثا له عن مسكن بها ، ولما انتقل متزينى إليها ليريح أعصابه المنهوكة من ضجيج لندن وثرثرة الزوار الكثيرين المملين الثقلاء كان كارلايل يدعوه للتجول معه أو تدعوه زوجته لمصاحبتها إلى المدينة ، وكان كارلايل حينذاك فى الخامسة والأربعين من عمره ، وكان يكبر متزينى بعشر سنوات ، وأخذت كثرة المناقشات التى كانت تدور بينهما تكشف عما بينهما من خلاف أصيل برغم ما كان بينهما من اتفاق فى بعض المذاهب والآراء ، واتسعت شقة الخلاف بينهما ، وتباعدت وجهات النظر ، وتوالت المجادلات الحامية ، والمعارضات العنيفة ، حتى أصبحا على طرفى نقيض ، فلما رأى متزينى فتاة تقرأ فى كتب كارلايل قال لها « إنك تنحدرين فى مزالق المادية ، أنت ضالة تائهة ، إن كارلايل يعبد القوة وأنا أحاربها بكل ما أوتيت من جهد ، إنه شيخ المتشككين ، وهو فخم هائل حينما يهدم ، ولكنه يعجز عن البناء ، وإذا كنت بدلاً من أن تحبى الأمم والإنسانية وتعجبى بهما تحبين الأفراد وتعجبين بهم وتحترمينهم فإنك لا بد أن تصبحى فى النهاية من المدافعين عن الطغاة » .

وكان كارلايل من ناحيته لا يعطف على آراء متزينى ، ويراها أراء لا يمكن تصديقها وأخذها مأخذ الجد ، وهى فى رأيه آراء مضحكة ومحزنة فى الوقت نفسه ، وكان يضيق ذرعاً بأحاديث متزينى عن «النظام الجمهورى» و «التقدم» وما إلى ذلك مما كان يسميه كارلايل «التهوسات المستمدة من روسو» وكان برغم ذلك يقدر متزينى الرجل ويحترمه ويعتقد أنه شجاع صادق وموهوب إلى حد كبير وأنه نبيل النفس ، وقد تكلم مرة وزير بيدمونت المفوض عن متزينى باستخفاف فى حضرة كارلايل فلم يحتمل ذلك كارلايل ولم يقبله وقال له «ياسيدى أنت لا تعرف متزينى على الإطلاق ، أنت تجهله الجهل كله» وقام غاضباً وترك المنزل ، وفى عقب الخلاف الذى وقع بينهما أثيرت مسألة فتح الرسائل التى كانت ترد إلى متزينى من إيطاليا بمجلس النواب البريطانى ، ودافع السير جيمس جراهام عن الحكومة فى المجلس دفاعاً اتهم فيه متزينى بالتشجيع على القتل ، فأبت لكارلايل رجولته إلا أن يقف إلى جانب صديقه برغم ما كان بينهما من خلاف ، فأرسل إلى جريدة التايمز يقول : «مهما يكن رأيى فى بصيرة متزينى العملية وبراعته فى الشؤون الدنيوية فإنى أستطيع أن أقرر لجميع الناس بغاية الحرية أنه رجل عبقرية وفضيلة ، وأنه رجل صدق لا تشوبه شائبة وإنسانية ونبل عقل ، وأحد هؤلاء الرجال النوادر العديدين ولكن للأسف كوحدات فى هذه الدنيا والذين يستحقون أن نسميهم الأرواح الشهيدة ، والذين يفهمون ويمارسون المقصود من ذلك مع التقوى فى حياتهم اليومية وهم صامتون» .

وترك هذا الدفاع فى نفس متزينى أثراً جميلاً فقال لأحد أصدقائه: « هذا ما أسميه النبل » .

أما علاقته بمسز كارلايل فكانت علاقة ودية أخوية ، وكانت ثقتها به عظيمة ، وقد عطفت على آرائه السياسية حيناً من الزمن ، ثم مالت شيئاً فشيئاً إلى آراء زوجها ، وقد حدثت مرة بينهما مناقشة حادة بسط أثناءها متزينى إحدى خططه الجريئة فى المغامرة بحياته فى إيطاليا وقال : « ألا يوجد أشياء أهم من رأسى ؟ » فأجابته مسز كارلايل « بالتأكيد ، ولكن الرجل الذى ليس عنده مسكة من العقل تكفى للمحافظة على رأسه بين كتفيه حتى يستطيع أن يكسب شيئاً بمفارقته لا يكون عنده من العقل ما يكفى لتدبير أى أمر من الأمور الخطيرة ». ولكنها مع ذلك ظلت تواليه بعطفها وتعينه على تدبير أحواله المنزلية إلى النهاية ، وفى سنة ١٨٤٦ لجأت إليه فى متاعبها الزوجية ، وقد كتب إليها رسالتين بليغتين من أجمل وأحكم ما كتب[١] .

وكان متزينى قبل أن تقع النبوة بينه وبين كارلايل يتردد على منزلها الفينة بعد الفينة ، وفى بعض الأحيان كان يقص على مسامع مسز كارلايل بعض النوادر المضحكة بلهجته الإيطالية لكى يسرى عن نفسها ، وأحياناً أخرى كان يبحث مع چون كارلايل — ابن أخى كارلايل — بعض أجزاء من ترجمة أعمال دانتى إلى الإنجليزية التى كان يقوم بها چون ، وقد وصفت السيدة الأمريكية ما رجريت فولر أمسية قضتها معهم

(١) وقد ترجمت هاتين الرسالتين ضمن كتابى « ألوان من أدب الغرب » .

فى منزل كارلايل ، وكيف أدار متزينى الحديث على مسألة التقدم والموضوعات المثالية ، وكيف كان كارلايل متحمساً متدفقاً فى الحملة على هذه « السخافات المعطرة بماء الورد » ، وكيف كان استخفافه وزرايته وتهاتفه وانزلاق لسانه وتدفقه يحزن متزينى ويؤلمه ، وقالت مسز كارلايل للسيدة مرجريت : « إنها آراء فى نظر كارلايل ولكنها عند متزينى الذى ضحى من أجلها بكل شىء وساعد على سوق أصدقائه إلى المشنقة من أجل أمثال هذه الموضوعات مسألة حياة وموت» وفى إحدى المرات بعد أن استأثر كارلايل بالحديث وأدار الكلام وأخذ يعرض فى موكب متلاحق الأمداد عظماء الأرض الصامتين ، تحول إلى متزينى وخاطبه قائلاً : « إنك لم تنجح بعد لأنك أسرفت فى الكلام » وأخذت المجادلات بينهما تزداد حدة وتتوالى عنيفة مؤلمة ، وكان متزينى يجادل بالحسنى وقد ظهر عليه التأثر العميق ، ويدافع بكل قلبه دفاعاً بليغاً فى إنجليزيته المتعثرة ، والآخر يسح ويهضب ، ويبرق ويرعد فى لغته المتدفقة السيالة ، المبالغة المسرفة ، الساخرة المتهانفة ، وكان متزينى يجلس على مقعده صامتاً وقد شحب لونه ، وفى بعض الأحيان كان يجلس مهتاجاً قد كادت تطفر الدموع من عينيه وهو يدخن لفافات تبغه الصغيرة على حين كان كارلايل ينقل فى قلق غليونه الطويل المصنوع من الخزف وهو يقذف بجمله ، وبرغم ذلك استمرت صداقته للأسرة أو على الأقل لمسز كارلايل طوال إقامته الأولى فى لندن ، ولما ترك لندن إلى ميلان فى سنه ١٨٤٨ أوصى مسز كارلايل

بأن تتشجع حتى يعود ، ولما عاد إلى لندن مهيض الجناح منزوف القوى واسته وساعدته على ايجاد منزل ليسكنه ، ولكن الخلاف بينه وبين زوجها تزايد وتفاقم حتى افترقا افتراقاً تاماً ، وظل كل منهما يحترم شخص الآخر ويحتقر آراءه إلى النهاية ، وقد التقيا بعد سنوات من هذه القطيعة وتحدثا حديثاً ودياً وقال عنه كارلايل بعد ذلك « إن متزينى هو أتقى رجل عرفته » ولكن الصداقة بينهما لم تعد بطبيعة الحال إلى ما كانت عليه ، والحقيقة أنه كان من الصعب على هاتين الشخصيتين العظيمتين القويتين أن يطول التفاهم بينهما ولا تنجم نواجم الخلاف والشقاق ، وقد كان الخلاف بينهما خلافاً أصيلاً بعيد الأعراق ، فمتزينى فى تفسيره للتاريخ وفهمه للمبادىء السياسية والآراء الاجتماعية يمثل الفكرة الدمقراطية ، وكارلايل الذى يحتقر الجماعات ولا يؤمن إلا بالأفراد العظماء يمثل الفكرة الأرستقراطية ، فالخلاف بينهما كان خلافاً بين مبدأين ، وخلافاً بين طبيعتين ، وقد تحريت بعض الإطالة فى وصفه لأنه يعين على تفهم طبيعة متزينى الذى يهمنا أمره فى هذا الكتاب .

الفصل الخامس

جهود متزينى الأدبية فى لندن – عودته إلى ميدان السياسة – حادثة فتح الرسائل

فى السنوات الأولى التى قضاها متزينى بلندن لم يكن له نصير سوى قلمه وملكاته الأدبية وسعة اطلاعه على التيارات الفكرية المختلفة ، ولم يكن يستطيع فى بادىء الأمر الكتابة باللغة الإنجليزية ، وكانت نفقات الترجمة تستغرق جزءاً كبيراً مما يدره عليه قلمه ، وقد وجد صعوبة فى جعل أسلوبه ملائماً لذوق الجمهور الإنجليزى ، وقد رفضت إحدى المجلات الأدبية مقاله القيم عن بيرون « لأنه شاعر متمرد على الآداب » وقد بذل متزينى جهده ليلائم بين ذوقه وذوق القراء الإنجليز ، وكان يضطره إلى ذلك ما يكابده من ضيق ولأواء وضغط الحاجة الملحة وتصميمه على أن لا يطلب من أسرته شيئاً ، وكان فى بعض الأحيان يكتب فى موضوعات لا تروقه وبأسلوب لم يألفه ، ويظهر أن ذلك قد أفاده بوجه عام ، فإن مقالاته أو فصوله الأدبية المكتوبة بالإنجليزية تمتاز بدقة التفكير والوضوح ، وكان إنتاجه الأدبى غزيراً متنوعاً فقد تناول الأدب الفرنسى والأدب الإيطالى وكتب فى موضوعات إنجليزية أدبية ، منها نقده البارع

لمؤلفات كارلايل ، وكتب عن الكارتزم ، وكان يرمى من وراء كتاباته إلى شيء أجل شأناً من الشهرة الأدبية وهو لفت الأنظار إلى قضية بلاده .

وفكر فى كتابة ترجمة حياة فوسكولو الشاعر الذى كان يعجب به ويؤثره ، واقتضاه ذلك البحث عن الكثير من المخطوطات وجمع المواد اللازمة ، ولكن اشتغاله بالسياسة لم يتح له فرصة الانقطاع التام لإنجاز كتابة هذه الترجمة ، وقد ساعد فى طبع كتب فوسكولو وصرف فى ذلك جهداً غير قليل .

وأخذ يعود إلى ميدان السياسة شيئاً فشيئاً ، وكان عليه قبل أن يعاود النزول إلى الميدان ويقتحم حومته أن يقاوم ما استولى على نفسه من الملل والانقباض والضيق ، وقد كان يشعر بأنه لا يملك من قوة العزم ما يكفى للم شعثه وتحصين إيمانه وأخذ عتاده ، ويظهر أنه قبل مبارحته سويسرة هم بالتنازل عن رياسته لجمعية إيطاليا الفتاة ، وكانت تعتريه من الحين إلى الحين نوبات من التحمس السياسى فيمتلىء عقله بالمشروعات الوطنية الخطيرة والخطط الجبارة . ولم يكن هناك أحد ليحمل عنه العبء ويسد مسده ، وكان هو روح الجمعية المحرك وعقلها المدبر ، وقد ظلت الجمعية فى حكم العدم حتى عاد إلى أخذ زمام الأمور فى يديه القويتين ، وقد سرى بين أكثر أعضاء الجمعية شعور بالهزيمة وضيعة الأمل ، وفى إيطاليا نفسها عقد الكثيرون صلحاً مع الحكومة ، وكفوا عن المقاومة والجهاد ، واستسلموا

للأمر الواقع ، ولم تكن المؤامرة على النظم القائمة قد ماتت وخمدت نيرانها ، وإنما كانت الجمعيات السرية القليلة الباقية قد عادت إلى تقاليد جمعية الكاربونارى أو أخذت بمبادىء لا تروق متزينى . ولم تكن حالة المنفيين أحسن من ذلك ، فكثيرون منهم اغتنموا فرصة إعلان العفو العام الذى أذاعته حكومة اللومباردى وحكومة بيدمونت وعادوا إلى بلادهم ، وكان الباقون مختلفى الرأى لا تجمعهم فكرة ولا تضمهم عقيدة ، وكان چيوبرتى يهاجم الجمعية ويستسقط آراء متزينى ومراميه ، وكان أقرب الناس إلى متزينى لا يؤمنون بأساليب الجمعية ولا أمل لهم فيها ، وكان متزينى لا يساوم فى مبادئه ليضمهم إلى صفوفه ويتكثر بهم ، ولم يكن يستطيع أن يلين كنفه لهؤلاء الرجال الذين أقسموا يمين الولاء للمجاهدة من أجل تحقيق فكرة ثم حنثوا فى يمينهم وتقهقروا عند أول هزيمة ، وإذا كان أبناء بلاده لا يستجيبون له ولا يناصرونه فمعنى ذلك عنده تجديد المحاولة واستئناف المجهود ، وكان يلم به فى بعض الأحيان الشعور الأليم بالعجز وقلة الحيلة ونفاد الموارد ، ويحس مثل غيظ الأسير على القد ، ولكنه كان أصح فطرة وأصفى نفساً وأكبر قلباً من أن ينقاد لليأس ويركن إلى التقاعد والجمود ، وكان أشد ما يخشاه أن يدركه الموت قبل أن يصنع شيئاً ، وكانت ذكرى صديقه چاكوبو رافينى لا تبرح مخيلته ، وقد آلى على نفسه أمام الله وإيطاليا وضميره أن يضطلع بهذا العمل فكيف ينكل عن أدائه ؟

إنى إذاً لأخو الدناءة والذى غطت على إحسانه جهلاته

هذا ما كان يناجى به مترينى نفسه ، وكان إحجامه عن القيام بمهمته فى رأيه كفراً ونفاقاً ، وحقيقة أنه كان يشعر بأن عزيمته قد فترت وبأن يقينه فى إيطاليا قد تزعزع ، ولكن بقى شىء يدفعه إلى العمل دفعاً وهو الشعور بالواجب ، ومن أقواله فى تلك الفترة « إنى لأعلم أن چاكوبو ليس ميتاً وأنه وإياى من الرواد لسياسة جديدة بل ليقين جديد ، ربما لا يتاح لنا أن نراه ، ولكن ليس فى وسع قوة بشرية أن تمنع قدومه » .

ومهما يكن من الأمر فإنه لم يعتزم العودة إلى السياسة العملية إلا فى أواخر صيف سنة ١٨٣٩ ، وأخذ يتعرف بمواطنيه الإيطاليين فى إنجلترا وبخاصة الطبقة العاملة منهم ، وكانت وسائل اتصاله ببلاده قليلة لا تروى غلته ، فهو يستطيع أن يستعيض عن ذلك الاتصال بالعمل بين طبقة العمال ، ولم يكن الدافع الذى وجهه هذه الوجهة سياسياً محضاً وإنما كان دافعاً إنسانياً ، ومن مزايا مترينى أن الدوافع الإنسانية الخالصة كانت على الدوام تلعب دوراً بارزاً فى حياته ، وقد كان مترينى أسعد ما يكون حينما يغيث ملهوفاً ويفرج كربة محتاج ويقيل عثرة عاثر ، ففى هذه الآونة العصيبة من حياته والفقر ينوشه من شتى النواحى ويكاد يأخذ بخناقه رأى وهو خارج من منزله فى صباح أحد أيام الشتاء فتاة على عتبة الدار تنتفض من البرد وقد نال منها السغب ، فما كان منه إلا أن دعاها إلى المنزل وعهد بها إلى خادمته ،

ولما تزوجت الفتاة بعد ذلك وهجرها زوجها تكفل مترينى بتربية أولادها وظل سنوات عدة يمنحها جزءاً كبيراً من دخله القليل المحدود ، وقد شمل كذلك بعطفه الشاردين من أبناء وطنه ، وتحدث إلى الصبية الذين كانوا يجوبون شوارع لندن حاملين الصندوق العازف ووقف منهم على تفصيلات مؤلمة عن تجارة الرقيق الأبيض ، وعرف كيف أن عدداً قليلا من الإيطاليين المقيمين فى لندن يستحضرون أولاد المزارعين الفقراء إلى انجلترا بعد أن يخدعوهم بوعود خلابة كاذبة ، ويعطوهم عقداً يتعهدون فيه بأن يدفعوا لهم مبالغ كافية ويمكنوهم من المعيشة الراغدة ، ولم يكن لهذه العقود قيمة فى إنجلترا ، لأن العقود التى تحرر فى إيطاليا لا تعد قانونية فى إنجلترا إلا إذا كان قد أقرها قنصل بريطانيا ، وهى مسألة يجهلها المزارعون البسطاء ، ومتى أحضروا الصبية إلى إنجلترا أساءوا معاملتهم وعنفوا بهم ، وكانوا يعطونهم فى الصباح قدحاً من الشاى وقطعة من الخبز ، وإذا لم يحضروا فى المساء المبلغ المنتظر منهم تحصيله حسب تقدير سادتهم فإنهم يحرمون من العشاء ويضربون ، وكان هؤلاء الصبية يعانون فى الشتاء آلام البرد والجوع ، وكان سادتهم يعرفون عطف الإنجليز على ذوى العاهات أو الشاكين المتألمين ، فكانوا يرغمون بعض هؤلاء الصبية على تكلف العرج وادعاء الصمم والتظاهر بمختلف أنواع العجز عن الكسب والإصابة بالزمانات والعلل لكى يستدروا العطف ويجمعوا لهم المال ، وهكذا كانوا يضربون بهؤلاء الصبية روحياً وجسدياً ، وقدسعى مترينى حتى قدم بعض رؤساء هؤلاء الصبية

للمحاكم البريطانية ، ولما علم سائر السادة الآخرين أنهم مراقبون خافوا عاقبة سوء صنيعهم ومغبة قسوتهم وهكذا أرغمهم متزيني على أن يحسنوا معاملة الصبية ويصونوا حقوقهم ، ولم يكتف بذلك بل عمل على رفع مستوى هؤلاء الأولاد واستنقاذهم من حضيض الفقر والمهانة والجهل ، فني سنة ١٨٤١ أنشأ لهم مدرسة كانوا يحضرون إليها فى المساء ليتلقوا مبادىء القراءة والكتابة والحساب وأوليات العلم والتاريخ والرسم ، وكان متزيني فى أغلب أيام الأحد يحاضر طلبة هذه المدرسة مدة ساعتين فى التاريخ الإيطالى وكانت يعرض فى هذه المحاضرات لسير عظماء الرجال الذين أخرجتهم إيطاليا ، وقد ظلت هذه المدرسة قائمة حتى سنة ١٨٤٨ حينما غادر متزيني إنجلترا إلى إيطاليا ، وكان يقوم بجمع المساعدات والهبات المالية لبقاء المدرسة ، وبالرغم من أعماله الكثيرة فقد كان يلتى بها دروساً وقد بلغ عدد الطلبة مائتين ، وقد أخذ هؤلاء الأولاد يشعرون بعد ذلك بآدميتهم وكرامتهم الإنسانية ، وكانوا يحبون متزيني ويقدرون له هذه اليد الكريمة والصنيع الجميل ، ولما عاد أحدهم إلى إيطاليا سافر إلى جنوا خاصة ليبلغ والدة متزيني ما أسداه إليه نجلها من الجميل ، وكان بعض أصدقاء متزيني من الإيطاليين والأنجليز يتبرعون بالتدريس فى هذه المدرسة .

وكان قبل إنشاء هذه المدرسة قد ألف جمعية سياسية للعمال الإيطاليين فى لندن وبدأ بنشر مجلة « أبستولاتى پوپولارى » فى أوقات غير منتظمة حتى سنة ١٨٤٣ ، وقوى اعتقاده فى طبقة العمال ، وصار يرى أن

الحركات الثورية يجب أن يكون جل اعتمادها عليهم ، وأن يكون غرضها تحرى الخير لهم ، وقد جعلته حياته فى إنجلترا على اتصال بالتفكير الاجتماعى المعاصر ، وقد شعر بأن الحركات السياسية الخالصة تتضاءل إلى جانب أحوال الجماعات ومشكلاتها ، وأخذ يقول عن إيطاليا الحرة التى كان يسعى لإيجادها إنها ستكون « إيطاليا الشعب » لأن الشعب هو الذى يعانى أقسى ألوان الشقاء من جراء تفرق الكلمة وانتثار الوحدة وسوء الحكم وطغيان السلطان ، وعمل على أن يفتح عيونهم على المسائل السياسية ، وأهاب بهم ليكونوا عدة للوطن ، وليعتزوا بماضى بلادهم ويفخروا بها ، ويتعاونوا على تحريرها ، وأفهمهم أن الله سيحكم عليهم لا بمقدار ما يتقاضون من أجور وإنما بمقدار ما قدموا لزملائهم وأوطانهم ، ومع فرط اهتمامه بتقوية الجانب الدمقراطى من الثورة وتنظيم طبقة العمال وطلب الإصلاح الاجتماعى فقد كان شديد الحرص على أن يصون إيطاليا الفتاة من أن تتحول إلى حركة طبقية ، وقد بدأ فى ذلك الوقت حملته على الاشتراكية التى استمر يتابعها إلى آخر حياته .

وفى سنة ١٨٤٤ وقعت حادثة كانت نعمة فى طى نقمة ، وقد أحدثت ضجة مدوية فى مجلس النواب البريطانى وفى جريدة التايمز ، ولفتت الأنظار إلى متزينى ، وأثارت عطف الكثيرين على القضية الإيطالية ، فقد فكر شابان إيطاليان شقيقان فى القيام بحملة مسلحة لإسقاط طاغية نابولى ، واعتقدا أن نجاحهما فى وسط شبه

الجزيرة يؤدى إلى قيام حركة موفقة لتحرير إيطاليا ، وأرسلا إلى متزينى يستشيرانه ويسألانه النصيحة ، ولكن متزينى كان يرى الظروف غير مواتية ، وأن الاستعدادات ليست كافية ، ونصح لهما بإرجاء تنفيذ الفكرة ، وكان هذان الشابان الشقيقان هما أتيليوبانديرا وإميليوبانديرا ، وكان أبوهما البارون بانديرا يعمل فى خدمة الحكومة النمساوية قائداً للأسطول النمساوى ، وقد تردد الشابان بين الإقدام على التضحية وبين إيثار حياة الرفاهة والدعة فى ظلال عطف أبيهما ومكانتهما الدنيوية المرموقة ، ولكنهما فى النهاية اعتزما المغامرة ، وأثرا الطريق المفروش بالأشواك المحفوف بالمخاطر ، وقال أحدهما فى تسويغ مسلكه : « إن إيطاليا لن تعيش إلا إذا عرف الإيطاليون كيف يموتون » وكانا يؤملان ويعتقدان أن مساعدة إيطاليا معناها مساعدة الإنسانية جميعها .

وأفسدت الخيانة عليهما الأمر ، ونما خبر اعتزامهما الثورة إلى الحكومة ، وكان متزينى قد حذرهما وأخبرهما بما طرأ من تغيير على الأحوال الإيطالية وبخاصة فى الناحية التى كانا يريدان أن يقوما بالثورة فيها ، وخدعهما جواسيس الحكومة النمساوية ، واستدرجاهما فسعيا إلى الشبكة المنصوبة لها فى كلابريا ، وأعدما بإطلاق الرصاص عليهما بعد اعتقال قصير المدى ومحاكمة سريعة ، وبكى الجنود الذين أنيط بهم إطلاق الرصاص على الشابين وزملائهما ، وأساءوا إصابة الهدف ، فقال لهم الأخوان : «تشجعوا وقوموا بالواجب فنحن جنود

مثلكم » . وظلا يهتفان إلى آخر لحظة من حياتهما « ليحى الوطن » و « لتحيى الحرية » .

وأثار مصرعهما موجة من السخط فى أنحاء إيطاليا جميعها ، وقد كان أتيليو واثقاً من سلامة البريد فى إنجلترا ، ولذا أرسل لمتزينى رسالة أوضح فيها الخطة التى رسمها لإشعال الثورة ، واشتبه متزينى فى أن الرسائل التى تصل إليه يعبث بها وتفتح ويطلع على محتوياتها ، ولما كانت الرسائل التى تأتيه من أصدقائه تتضمن أموراً خطيرة وخططاً سرية وأسراراً هامة تضر إذاعتها بمرسليها أبلغ الضرر وقد تودى بحياتهم لذلك اهتم بالموضوع وقام بتجارب واختبارات دقيقة بارعة ليجمع الأدلة والشواهد التى تدعم دعواه وتبرر شكواه ، وتؤيد حجته ، ووضع المستندات الدالة على ذلك فى يد السير توماس دنكومب نائب مقاطعة فنزبرى فى مجلس النواب البريطانى ، وأسفر البحث فى المجلسين عن أن رسائل متزينى كانت تفتح بانتظام وتباعاً منذ أكثر من أربعة أشهر ، وكذلك كانت تفتح الرسائل الواردة لفريق غيره من المنفيين الإيطاليين ، وأثارت هذه الخيانة عاصفة من السخط والغضب فى إنجلترا ، وبخاصة حينما عرف أن محتويات تلك الرسائل كان ينقلها اللورد أبردين وزير الخارجية إلى وزير النمسا المفوض ، وقد أنكر ذلك فى بادىء الأمر هو والسير چيمس جراهام وزير الداخلية ، والواقع أن الوزارة البريطانية وعلى رأسها بيل لم تجد مندوحة عن الكذب فقد أحرجت إحراجاً شديداً ، وأخذت على غرة ، وأكدت أن خطابات

متزينى لم تفتح ، وحضر متزينى المناقشة وهو فى شرفة مجلس النواب وشاهد ما كان يعانيه السير جيمس جراهام من الجهد والحرج فى الخروج من الورطة وتلافى الأزمة ، واستمع من ناحية أخرى إلى هجمات النائب شيل وتنديده القارص النفاذ وحملات ماكولى المتدفقة البليغة واتهامات النـــائب دنكومب ومعارضات بورنج الحامية ، وأعاد السير جراهام ذكر الاتهام الباطل السخيف الذى كانت وجهته من قبل الحكومة الفرنسية لمتزينى ، وهو تهمة التشجيع على القتل ، واضطر إلى سحب هذه التهمة لما عرف الحقائق ، وكونت لجنة من أعضاء المجلسين للتحقيق فى مسألة فتح الرسائل ، وكشف التحقيق أن الرسائل كانت تفتح فى خلال الأربعين سنة السابقة لهذه الحادثة فى الأحوال العصيبة التى تدعو إلى ذلك بعناية وتحفظ وترد إلى أصحابها دون أن تعرض لهم الحكومة بشىء ، وثارت ثائرة الرأى العام البريطانى حينما علم بهذه الحقائق ، وعرف أن الحكومة البريطانية كانت تفتح رسائل متزينى قبل تقديمه الشكوى بأشهر ، وأنها كانت ترسل معلومات مستمدة من هذه الرسائل إلى « إحدى الدول الأجنبية » ، ولما أعدم الأخوان إميليو وأتيليو وأصحابهما اشتد غضب البريطانيين وصاروا يقذفون السير جيمس جراهام بأنه « قاتل الوطنيين الإيطاليين » ، وكان المسؤول عن فتح الرسائل هو اللورد أبردين ، وهو الذى قام بدور إبلاغ حكومة النمسا محتوياتها ، وتقول السيدة إيديث هنكلى فى صفحة٧٦ من كتابها القيم عن حياة متزينى : « مما يسر الإنجليزى فى كل مكان

أن يعلم أنه ولو أن قيام حكومتنا بإفشاء سر الأخوين للحكومة النمساوية حقيقة لا يتسرب إليها الشك مما يدعو إلى الأسف الشديد ، إلا أن البحث فيما بعد فى محفوظات الحكومة فى ميلان ولو أنه كشف عن ذلك قد أظهر كذلك أن النمسا كانت قد علمت من قبل بأساليب أخرى بما ينتوى الأخوان تنفيذه من الخطط» ، ولما لم يجد السير چيمس جراهام وسيلة للدفاع عن نفسه ودفع ما أصابه من الخزى سوى أن يحمل على متزينى تلك الحملة الظالمة الباغية التى تدل على الجهل المطبق والخلط الشنيع وينعته بأنه « قاتل وأجير القتلة » ، مردداً ما سبق أن رمته به الحكومة الفرنسية لتبرر إخراجه من فرنسا، انتقد أعضاء المجلس موقفه نقداً شديداً وكبر عليهم أن توجه مثل هذه الاتهامات إلى الرجل وهو لا يستطيع الدفاع عن نفسه إزاء المجلس ، وتوالت الشهادات التى تؤيد نبل أخلاقه ونزاهة مقاصده وتشيد بماضيه الناصع ومواقفه المأثورة حتى اضطر السير چيمس إلى سحب هذا الاتهام فى المجلس ، وقد أرسل كارلايل فى هذه المناسبة كلمته المعروفة إلى جريدة التايمز وقد ذكرتها فى الفصل السابق وكان لها أجمل وقع فى نفس متزينى ، وكان كارلايل حينذاك من الكتاب الكبار المسموعى الكلمة المحترمى المكانة المشهود لهم بصدق الطوية وسلامة القصد ، وقد ذكر كارلايل فى ختام رسالة أخرى كتبها إلى التايمز عن مسألة فتح الرسائل : « إن فتح رسائل الناس يشبه دس الأيدى فى جيوبهم وما إلى ذلك من الأعمال غير اللائقة ، وإنه إجراء لا يصح أن تلجأ

إليه الحكومة إلا فى حالة الضرورة القصوى ، ولا يليق أن تقوم به الحكومة البريطانية من أجل خاطر الحكومة النمساوية لأن ذلك يخالف تقاليدها والمأثور عنها » .

وقد جعلت هذه الحادثة الكثير من الأسر الإنجليزية تعطف على متزينى وتفتح له قلوبها وتشمله برعايتها ، وفى طليعة هذه الأسر التى خصته بعطفها أسرة أشرست ، قال عنها متزينى « أسرة عزيزة طيبة مقدسة أحاطتنى بعناية عاطفة جعلتنى أنسى فى بعض الأوقات أنى منفى » . وكان المستر أشرست رب الأسرة محامياً ومن أصدقاء المصلح الاشتراكى النبيل « روبرت أوين » ، وشغلت المسز أشرست مكانة مدام رافينى من نفس متزينى ، وقد أصبحت إحدى بناتها مدام ڤنتورى ، وكانت من صديقات متزينى العزيزات الوفيات ، وقد كتبت عنه مذكرات تعد من خير ما كتب عنه فى اللغة الإنجليزية وأوثقه ، وقد قدمت له هذه الأسرة مساعدات قيمة ، وهونت عليه قسوة الاغتراب ومتاعب النفى والتشريد ، وتعرف كذلك بعد حادثة الرسائل بچوزيف توينبى — والد المؤرخ المعروف أرنولد توينبى — وچوزيف كوين وچورچ هوليوك واستيوارت مل وغيرهم من أعلام الرجال ، واتصل بجابرييل روزتى الشاعر الفنان الإيطالى المعروف ، وحاول أن يشركه معه فى الأعمال السياسية فلم يوفق فى ذلك ، وقد فرقت فيما بينهما السياسة بعد ذلك .

الفصل السادس

ظهور حزب المعتدلين فى إيطاليا — تأليف عصبة الأمم — ثورات سنة ١٨٤٨

كان متزينى وهو مقيم فى بريطانيا لا ينى يستخبر أخبار إيطاليا ويستطلع أحوالها ، ولم يكن راضياً عن النزعات التى استجدت بها ، وهو مع ذلك ماض فى جهاده دائب على تدبير الخطط وإعداد البرامج ، وكانت العاصفة فى إيطاليا قد أخذت تتكور لتهب مزمجرة عاتية ، وأخذ السيل يتجمع ليندفع غامراً جارفاً .

ولا يمكن تحديد مدى تأثير متزينى فى استحداث اليقظة القومية الجديدة ، ولكن حينما نعلم مبلغ تأثير جمعية إيطاليا الفتاة وأن كثيراً من الرجال الذين اشتركوا بعد ذلك فى الحركة القومية كانوا من أعضائها فمن السهل أن نقدر تأثيره فى تلك الحركة ،وقد كان طلبة الجامعات يقرأون أعداد مجلة « إبستولاپوپولارى » وكان العمال يفكرون فى مبادئه ويدينون بتعاليمه ، ولكن تأثيره لم يكن هو العامل الوحيد على قوته وأصالته ، فقد كانت ذكرى الثورات السالفة التى قامت بها جمعية الكاربونارى لا تزال تجلو عن النفوس صدأ الفتور وخمود الهمة ، وتضرم جذوة الحماسة ، ولا تزال أخبارها الغر ومواقف فتيانها وشهدائها وأبطالها أحاديث

القوم فى لياليهم الطويلة الساهرة وأنهرهم المملة المقفرة ، وكانت مشاهد الحرية المسلوبة والظلم العادى وسوء الحكم تكشف عن عيوب الحكم النمساوى ، وتفضح مساوئه ، وتنبه الغافل ، وتثير الأحقاد الدفينة ، وبرغم اختلاف التيارات بين الوطنيين وتباين النزعات كان هناك إجماع على مسألتين وهما جلاء النمساويين عن إيطاليا ، والعمل على أن يكون هناك ضمان لقيام الحكم الصالح .

وبرغم الرقابة الشديدة ويقظة الشرطة فإن روح التمرد وجدت فى الأدب متنفساً لها ومعبراً عنها ، واسترعى الطلبة التفات الأمة إلى التروى من أدب دانتى باعتباره الشاعر القومى والرائى الوطنى الذى نادى بالوحدة الإيطالية منذ خمسة قرون ، وأخذ الروائيون والمؤرخون وكتاب الدراما يتحدثون عن أمجاد إيطاليا وماضيها الحافل العظيم ، وكثر المصلحون الاجتماعيون فى مختلف نواحى الحياة الأدبية والاقتصادية ، وكانت عنايتهم بالإصلاح أكثر من عنايتهم بالسياسة ، وبدأ يقوى فى إيطاليا حزب المعتدلين ، وكان من زعماء هذا الحزب الفيلسوف الإيطالى چيوبرتى ، وهو من البيدمونتيين الذين أبعدوا من بلادهم لأنهم طالبوا بحريتها ، وكان فى صباه من أعضاء جمعية إيطاليا الفتاة ، ولكنه نقم من زعيمه ثباته على المبدأ واستقامة مذهبه واستمساكه بآرائه ، فانفصل عنه ، وخرج عليه ، ولم ينس أن يشدد على الجمعية النكير ، ويصب عليها النقمة ، ويخص زعيمه السابق بالنصيب الأوفر من الزراية والتحقير ، ولله مترينى ! فكم لقى فى طريقه من مكائد الحساد ،

وفخاخ الأعداء ، وغدر الأصدقاء ، وتقلب الأتباع والأعوان ، ولكنه مع ذلك لم ينحرف عن الطريق السوى ، ولم تحمله الحوادث على أثباجها ، وكان چيوبرتى ينادى بضرورة الخلاص من النمساويين ويقول بالفكرة القومية ، ولكنه كان يعمل لإيجاد اتحاد فدرالى بين الولايات الإيطالية المختلفة تحت رياسة البابا ، على أن يتولى الأمراء فى كل ولاية الإصلاح دون أن يكون هناك أدنى انتقاص لسلطانهم ، وهى فكرة غريبة لم يستطع أن يسيغها عقل منطقى منظم مثل عقل متزينى ولا أن يقبلها خاطر ملهم مثل خاطره ، فقد كان حكم هؤلاء الأمراء الطغاة وحكم البابوات هما سبب فساد الأحوال فى إيطاليا وعلة النكبة والتأخير ، فكيف يؤمل لها الخلاص على هذه الطريقة ؟ ولكن هذا النوع من التفكير السطحى التافه هو فى العادة الفلسفة التى يتشدق بها هؤلاء الذين يخرجون على الزعماء لأنهم ملّوا الجهاد ، واستقربوا الطريق ، واستبدلوا بمثلهم الأعلى مثلا أدنى وأيسر تحقيقاً ، وهم لا يكتفون بالخروج على الزعماء والنكوص والإحجام ، بل لابد لهم أن يبرروا ارتدادهم ويزخرفوا جبنهم ، وقد وصف المتنبى نفسية أمثال هؤلاء الناس فى قوله :

يرى الجبناء أن العجز عقل وتلك خديعة الطبع اللئيم

وهذه الحالة لون من ألوان التبرير المعروف عند المفكرين النفسيين .

وكان هناك زعيم آخر من زعماء المعتدلين هو شيزارى بالبو ،

وكان من القائلين بالفدرائية ، وكان يرمى إلى الخلاص من النمسا ، ولكنه كان يرى أن الوحدة الإيطالية حلم لا سبيل إلى تحقيقه ، وكان دليله على ذلك أنه لم يوجد من قبل شيء اسمه « المملكة الإيطالية » .

وكان ما سيمو داز ليو ثالث الزعماء المعتدلين ، وكان لا يرى انتقاص سلطة البابا ، ويشارك چيوبرتى فى رأيه القائل بأن تجديد إيطاليا والنهوض بها لا يمكن أن يتم بغير موافقة البابا وتأييده ، وكان يتطلع إلى شارل البرت ملك پيدمونت لقياده الحركة الإيطالية الاستقلالية وطرد النمساويين ، وكان له أنصار كثيرون ، ولم يكن يرى أن الوقت ملائم للحرب وذهب إلى أنه لا يمكن عمل شيء ما دام الجيش النمساوى واقفاً بالمرصاد ، وإلى أن الصبر والمعارضة السلمية هما الوسيلة الوحيدة الميسورة .

وكان هؤلاء الثلاثة هم زعماء المعتدلين الذين كانوا يناظرون متزينى ، وواضح أن مرماهم لم يكن مرماه ، وأن مبدأهم غير مبدئه ، فقد كانت الوحدة الإيطالية عند متزينى مقدمة على كل شيء ، وكان تحرير إيطاليا من أغلال البابوية العقلية والدينية لازماً كذلك ، ومن أجل هذين المطلبين كان يقف متزينى وحيداً مكروهاً من السياسيين المعاصرين له ، وكانوا ينعتونه بالخيالى الحالم ، وقد استطاع أن يجعل الإيطاليين يحلمون مثله بالوحدة ويريدونها ، وحقّق ذلك بثباته وإخلاصه وجزالة رأيه وقوة إرادته .

وكان معظم المعتدلين يقسمون ولاءهم بين البابا وملك پيدمونت شارل البرت ، وكان متزينى يعتقد أن شارل البرت رجل متردد قلّب

ينقض اليوم ما أبرم بالأمس ولا يستقر على حال ولا يمكن الركون إليه ولا الاعتماد عليه ، وقد تلوثت يداه بدماء الأحرار ، واضطهد العاملين على استقلال إيطاليا ، وأسرف فى التنكيل بهم ، ولم يكن متزينى يطيق الانضمام إلى حزب ملك پيدمونت أو حزب البابا ، ولذا كان قذى فى عين أنصار الملكية وشجى فى حلق دعاة البابوية ، وقد ظل الحزبان يواليان عليه الهجوم ، ويشنان الغارة ، ويرميانه بالقوارص ، ويلصقان به التهم حتى توفاه الله ، وأراحه منهم ، وأراحهم منه ، ولو كان تقدم أحد الحاكمين ، الحاكم الزمنى أو الحاكم الروحى ، إلى قيادة الحركة لمجاهدة النمساويين بعزم صادق ونية خالصة لما أحجم متزينى عن أن يؤيده بكل ما أوتى من قوة ويضع تحت تصرفه خبرته وتجاربه وشجاعته الخارقة وآراءه الناضجة ، فقد كان متزينى على أتم استعداد لنسيان الخلافات المذهبية أو الشخصية تلقاء الهدف الأسمى والغاية الكبرى ، وهى استقلال إيطاليا ووحدتها .

وفى سنة ١٨٤٦ خلف پيوس التاسع البابا جريجورى السادس عشر الذى كان من البابوات المكروهين الجائرين ، وكان البابا الجديد رجلا خيِّراً له ميول حرة ونزعات طيبة ، وكان سخياً فى وعوده ، وبدأ عهده بمهادنة خصوم البابوية السياسيين ، فأثار ذلك الآمال البعيدة فى نفوس الإيطاليين ، وأشعل حماستهم ، ولكن سرعان ما خابت فيه آمال الأحرار ، وكان الرجل يميل إلى إصلاح شؤون رعيته ، على أن تكون هذه الإصلاحات هبات يجود بها ، وصنائع يسديها ، لأنه

لم يكن يعترف بأن للرعية حقوقاً ، ولذا لم يكن فى نيته الخروج على التقاليد البابوية والأخذ بالنظم النيابية ، وكان المعتدلون متطرفين فى تعلقهم به وتحمسهم له ، ولكن برغم هذه الحماسة الشديدة والولاء المحض فإن الرجل لم يستطع أن يظل طويلاً يلعب دور البطل الوطنى ، وفى سنة ١٨٤٨ أعلن صراحة أنه لا يقر محاربة النمسا ، فانقلب حب الناس له كراهة ونفوراً ، وتحول المعتدلون بولائهم إلى طرف القطب الآخر وهو الملك شارل البرت ، فأصبح فى نظرهم البطل المرجو والمخلص المنتظر ، ولم يكن له من ماضيه ولا من صفاته الشخصية ما يسوّغ هذه العقيدة ، ويبرر هذه الثقة ، وكان الرجل فيما يقال تنتابه فى بعض الأوقات نوبات من الوطنية ، وقد استغل المعتدلون للدعاية قوله فى إحدى هذه النوبات « إذا أرسلت لنا العناية حرباً لخلاص إيطاليا فإنى سأمتطى صهوة جوادى وأضع نفسى فى طليعة الجيش » ولما سمع متزينى هذا التصريح قال : « إذا كانت هذه وردة فإنها ستزدهر وتتفتح » .

وفى هذه الفترة أنشأ متزينى « الجمعية الوطنية الإيطالية » لتحل محل جمعية إيطاليا الفتاة ، ولم يشر فى برنامجها إلى استمساكه بالحكم الجمهورى ، وإنما اكتفى بأن يذكر أن غاية الجمعية هى الحرية والوحدة القومية ومحاربة النمسا وتقوية الشعور القومى والنهوض بالأمة الإيطالية وتقريب الساعة الحاسمة التى تستطيع فيها الفصل فى حاجاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وفى سنة ١٨٤٧ أنشأ عصبة الأمم الدولية بمساعدة جماعة من أصدقائه البارزين من الأحرار ، وإنشاء هذه العصبة يعرب عن فكرته فى أن تقدم الإنسانية رهن بحسن التفاهم بين الأمم والتعاون المتبادل ، ولا يتم هذا التفاهم إلا إذا حل التعارف بين الأمم محل التناكر والتجاهل ، وتوفرت النية الحسنة والعلاقة الطيبة ، وكان يقصد كذلك من وراء إنشاء هذه العصبة إلى تكوين الرأى العام الدولى الذى يعترف بحق الأمم المستعبدة فى الحرية والقومية والتقدم ، وموجز القول إنه لم يكن مرتاحاً للفوضى الدولية السائدة وعدم وجود قانون يكبح جماح الدول المعتدية ويحد من مطامعها ، ويحمى الحريات الأممية ، ويصون حقوق الضعيف ، وكان يؤمل من وراء إنشاء هذه العصبة علاج هذه الحالة التى لا يجىء من ورائها سوى الشر المستطير والخراب العاجل ، ولم يلتفت الساسة إلى أهمية فكرة متزينى إلا بعد الحرب الكبرى الأولى ، وإن كانت التجربة لم تسفر عن نجاح باهر وتوفيق ملحوظ ، ومهما يكن من الأمر فإن اتجاه متزينى إلى إنشاء عصبة الأمم فى سنة ١٨٤٧ دليل على نضج تفكيره السياسى وبعد نظره وإنسانيته الفياضة ، وهى تبين لنا أن وطنية هذا الرجل لم تكن من طراز الوطنية الضيقة المتعصبة العادية الجارحة من أمثال وطنية هؤلاء الأدعياء الدجالين الذين أخرجتهم ألمانيا وإيطاليا وكانوا بتهوسهم الصفيق نكبة على بلادهم وعلى الإنسانية جميعاً ، وكان متزينى يمقت الحرب بطبيعته إلا إذا كانت لتأييد مذهب أو لدفن أكذوبة ؛ وهى بعد كل شىء وسيلة

بغيضة للفصل فى الخلافات الدولية .

وبرغم كراهة متزينى للمعتدلين كان لآرائهم مكانها فى السياسة الإيطالية ، فقد كانت عقيدتهم سهلة ميسورة بالقياس إلى عقيدة متزينى التى تتطلب التضحية وبذل الجهود الضخمة والارتفاع إلى الأعالى السامقة ، وعقيدة المعتدلين صالحة وملائمة للمتشككين والمترددين وضعاف القلوب والعزائم ومن دواعى الأسف أنهم الكثرة الكاثرة من الناس ، وسرعان ما انحاز إلى صفوف المعتدلين رجال الدين والأغنياء الميسورون وكل من كان لا تروقه مثالية متزينى وأحلامه المحلقة ، وكان المعتدلون يتفقون مع متزينى فى أمرين ، وهما طلب جلاء النمساويين والإهابة بالإيطاليين واستجاشة قواهم واستثارة هممهم ، ولذا كان عملهم من بعض الوجوه مكملاً لعمله ، وحقيقة أنهم كانوا لا يدانونه فى نبالة الغرض وسمو القصد وصدق الوطنية التى توحى الأعمال العظيمة ، ولكنهم استطاعوا أن يضموا إلى صفوفهم جمعاً ضخماً كان لا يمكن أن يحشد مثله فى صفوف جمعية إيطاليا الفتاة القليلة المختارة ، وكانوا من ناحية أخرى يزوّدون الحركة العامة بصفات كانت تنقص متزينى ، منها حاسة إدراك الممكن والميسور ، وكان فى جماعة من أفضل أنصارهم من المرونة والصبر والاعتدال وسعة الحيلة وكثرة الإحاطة ما يمكنهم من الترحيب بجميع من يتقدم إليهم فى تردد وخوف أو فى سرور وارتياح للاضطلاع بالواجب القومى .
ومن الأسباب التى مهدت السبيل لظهور حزب المعتدلين ضيق الناس

بالثورات الصغيرة المحدودة التى كانت لا تسفر إلا عن القتل والنفى والتشريد والإمعان فى القسوة والاضطهاد ، وكان من رأى المعتدلين أنه لا فائدة من التمرد على الأمراء المحليين ، وأن الجهاد لجلاء النمساويين يجب أن تتولاه جيوش نظامية ، ولكن التقاليد الثورية مع ذلك لم تنس ولم يزهد فيها الزهد كله ، وقد أمدها المنفيون فى الخارج بالحياة والأمل ، وكانت إيطاليا الوسطى تموج بالمؤامرات الخفية والتدبيرات السرية ، وكان متزينى نفسه قد بدأ يتسرب إليه شىء من الشك فى قيمة هذه الثورات الضيقة النطاق ، وقد مكنته حادثة فتح الرسائل من أن يلفت نظر الرأى العام البريطانى إلى المسألة الإيطالية ، وقد كان متزينى فى بادىء الأمر شديد الاحتقار للسياسة البريطانية الخارجية ، ومن أقواله عنها « إنها تقاوم كل شىء يستقدم حقيقة جديدة فى السياسة الأوربية ، وهى أول من يعترف بها إذا أظهرت قوتها » وكان يرى أن السياسة التى تليق ببريطانيا هى سياسة تشجيع الحركات القومية لا بالتدخل المسلح وإنما بالتأييد الأدبى ، وربما كانت مساعى متزينى فى هذا السبيل من بواعث عطف الوزير الإنجليزى بالمرستن على القضية الإيطالية .

وكان متزينى فى تلك الفترة دائب النشاط جم العمل ، وكان ما يبذل من الجهود المتصلة لا يمكّن الخواطر السود التى تهدم الإيمان وتغرى باليأس من أن تجد ثلمة تتقحّم عليه منها ، ولكنه كان مع ذلك ينازل جيشاً من فوارسه الفقر ، وكان يتلقى معونة من والدته ولكنه

كان لا يزال كعادته متخرقاً فى الكرم والسماحة والعطف ، وآده حمل الديون المتراكمة ، وكان ما تدره عليه الكتابة لا يزال قليلاً لا يفرج الكرب ولا يفى بمطالبه وحاجاته ، وكان يخشى أن تخب إليه الشيخوخة ويدب فى جسمه الضعف قبل أن يؤدى رسالته ويقوم بواجبه ، وكان يؤلمه ويحز فى نفسه أن يرى تخلف الناس عن متابعته وانصرافهم عنه وانفضاضهم من حوله وإقبالهم على الزعماء المعتدلين ، وأخذ خصومه وأعداؤه وحساد فضله يسمّعون به ويتهمونه بأنه يغرى أنصاره بالإقدام على الثورة وشق عصا الطاعة وهو متحرز فى مأمنه كأنه كان مخيراً فى النفى واحتمال مرارته ، وكان يرى أن انتصار المعتدلين يعوق الوحدة ، ويعرقل سير الحركة ، ولكنه رأى استحالة مقاومة هذه النزعة الجديدة ، وكان أهم ما يشغل باله فى أواخر سنة ١٨٤٧ هو استثارة النمسا ودفعها إلى التدخل فى الشؤون الإيطالية وقمع الحركة الجديدة ، وكان يرى أن اعتداء النمسا يرغم الإيطاليين على أن يهبوا للجهاد ، وأن موجة الشعور العام ربما أرغمت شارل البرت على امتشاق الحسام وقيادة الحركة ، وكان يهجس بخاطره فى بعض الأحيان أن حكومات الولايات الإيطالية قد ترفض تحدى النمسا فتتولى ذلك جمعية إيطاليا الفتاة .

وأقبلت سنة ١٨٤٨ وهى سنة الأحداث الجليلة والثورات الخطيرة فى أوربا ، ففى فرنسا خلع لويس فيليب ، وقامت الحكومة الجمهورية وذهب متزينى إلى باريس ليضم الإيطاليين بها إلى الجمعية الإيطالية القومية وليقدم التهنئة للجمهورية الجديدة .

وبدأت نيران الثورة تشتعل فى أنحاء إيطاليا ، ففى أوائل يناير حدثت فى ميلان نائرة التبغ ، وكانت طليعة للثورة التى قامت فى مارس ، وبعد مرور يومين ثار أهل ليجورن ، وتبع ذلك قيام حركة قومية فى صقلية لخلع نير حكم البوربون ، وقبل مضى شهر أرغم أهل صقلية الملك فرديناند على منحهم الدستور ، وفى خلال شهر فبراير ظفرت تسكانى وپيدمونت بالحكم النيابى ، واضطر البابا پيوس التاسع إلى أن يعلن الدستور فى الولايات البابوية ، واستردت الولايات الإيطالية حريتها حاشا الولايات الخاضعة للحكومة النمساوية ، وأصبحت محاربة النمساويين من الأمور المتوقعة المنظورة ، وكانت إيطاليا تنتظر إشارة من ميلان أو من تورين ، وكان شارل البرت لا يزال الملك المتردد الظامىء إلى الانتقام من النمسا والذى يحرص على أن يظفر بإعجاب الإيطاليين وتقديرهم ، ولكن الذى يخاف فى الوقت نفسه القوى الدمقراطية التى تدفعه إلى العمل دفعاً ويخشى أن تسود فكرة الحكم الجمهورى .

وبينما هو يتدبر الأمر ويفكر فى الموقف ويوازن بين المحتملات المختلفة هبت العاصفة وسال السيل واصطفق الموج ، فقد ذاعت فى الأنحاء الشمالية من إيطاليا أخبار ثورة ڤينا ، فوثب أهل ميلان على الحرس النمساوى ، وبعد معركة حامية استمرت خمسة أيام شداد طردوا النمساويين واضطروهم إلى الفرار من المدينة ، واقتدت بميلان بيرجامو وكومو وغيرهما من مدن لومبارديا واكتسبت حريتها ، وأعلنت تسكانى

وبيدمونت الحرب على النمسا ، وتسللت الجموع من نواحى إيطاليا لتتم العمل وتنجز المهمة ، وتدفقت فرق المتطوعين من المدن والقرى ، واكتسحت موجة الوطنية الأمراء والساسة ورجال الدين والأشراف والطلبة وأصحاب المهن والفنون ، وتلهبت الحماسة فى الصدور ، وتحركت العواطف الهاجعة ، ونسى القوم الحرص على الحياة وحطام الدنيا ، وتراءى للعيان أن حلم متزينى أصبح حقيقة واقعة ، وأن صوت الواجب المقدس قد أهاب بالإيطاليين فلبوا نداءه . ونهضوا نهضة الأسد الهزبر لطرد الطغاة واسترداد الحرية .

وترامت هذه الأنباء السارة إلى متزينى ، وكان حينذاك فى باريس يؤلف بين قلوب الملكيين والجمهوريين من المنفيين ، فعبر ممر سنت جوثار مستهدفاً لخطر القبض عليه ، وراعه جمال جبال الألب فقال كلمته المعروفة « لا يتسنى لإنسان أن ينكر وجود الله وهو فى جبال الألب » ووصل إلى ميلان فى اليوم السابع من شهر إبريل ، ولم يستطع الذهاب إلى بيدمونت أو جنوا لأن الحكم الصادر عليه فى سنة ١٨٣٣ كان لا يزال قائماً ، وفضلاً عن ذلك فإن ميلان كانت محور الحركة فى تلك الآونة .

الفصل السابع

إخفاق ثورة ميلان — الجمهورية الرومانية

سرّت متزينى أنباء ثورة ميلان ، وأجدّت حماسته ، فأسرع فى العودة إلى إيطاليا دون تردد مستهدفاً لخطر القبض عليه ومحاكمته ، وكان الموظفون الرسميون معنيين بالبحث عنه ومراقبته وترصد عودته وقدومه ، وكان مع ذلك يجاذبهم الحديث وهو يشعل السيجارة بغير اكتراث ، فخدعهم عن حقيقته بثبات جنانه وشدة اطمئنانه وحضور خاطره وبراعة حديثه ، وكانوا فى بعض الأحيان يعتذرون إليه ويعزون تدقيقهم فى البحث والتحرى إلى خوفهم من المتآمر الرهيب جوزيف متزينى ، وكان هذا الهدوء والاتزان وعدم المبالاة بالأخطار ينفعه أكثر مما ينفعه التنكر والتخفى ، ولذا كان قليلاً ما يلجأ إليهما .

وقد وصل ميلان بعد منتصف الليل واستقبل استقبالاً فخماً حماسياً عند أبواب المدينة ، وأوصله موكب من المشاعل إلى الفندق الذى نزل به ، وكان أهل ميلان قد طردوا النمساويين ، وكان سبب ثورة مارس فى ميلان أن الحكومة النمساوية قابلت تصميم الوطنيين على الامتناع عن استعمال التبغ بالقسوة والشدة ، وكان أهل ميلان يقصدون بهذا الامتناع أن يكون ضربة مالية شديدة للحكومة النمساوية، وكان

احتكارها للتبغ مصدراً من المصادر الرئيسية لإيراداتها ودخلها ، والإيطاليون معروفون بشدة ميلهم إلى التدخين ، وفى ترك التدخين تضحية من ناحيتهم ، ولكنهم آثروا احتمال هذه المضايقة كراهة للنمساويين وإيثارا لحرمانهم من الحصول على رسوم التبغ ، وحدث احتكاك بينهم وبين النمساويين ، وأطلقت الجنود النمساوية النيران على الجمهور الأعزل ، وعرف الفريقان أن معركة حامية ستقع ، واشتدت النقمة على النمساويين فى أنحاء إيطاليا ، ففى پادوا وپاڤيا حدثت مشاحنات ومصادمات بين طلبة الجامعات والجنود النمساويين أدت إلى نشوب حرب فى شوارع المدينتين ، وفى جنوا والسندريا وسپاتزيا وغيرها من المدن طرد رجال الجزويت الذين كانوا معروفين بميلهم إلى النمسا ، وفى ڤينسيا ألغيت حفلة الكارنڤال ، وخصصت النقود التى كانت ستصرف فى إقامتها للجرحى فى اضطرابات حوادث الامتناع عن تعاطى التبغ ، وسجن الزعيم الوطنى مانين والزعيم توماسيو بتهمة الخيانة الكبرى ، وقد ظلا معتقلين فى السجن رغم وضوح براءتهما ، وفى أوائل فبراير زادت النمسا النار اشتعالاً بإذاعتها منشوراً يبيح توقيع الحكم بالإعدام على أى شخص بدون محاكمته بعد إلقاء القبض عليه ، وكانت الأسباب التى تؤدى إلى إشعال الثورة قد تجمعت وتوافرت ، وحدث فى يوم ١٧ مارس أن جاءت الأخبار إلى ميلان بأن ثورة قد وقعت بڤينا وهى مركز الحكومة الطاغية المستبدة ومستقرها الأمين ، واضطر الوزير الخطير نصير الرجعية فى أوروبا مترنخ إلى الاستقالة ،

وأرغم الإمبراطور على منح حرية الصحافة وحرية الاجتماع فى الولايات التابعة له ، وقامت مظاهرة واتجه المتظاهرون إلى قصر الحاكم وطالبوا بالاستقلال التام العاجل ، وخشى الجند الموكلون بالحراسة أن تقوم الجموع الزاخرة بحركات عدائية فأطلقوا عليها نيرانهم ، وتنادى القوم إلى حمل السلاح ورفض زعماء الشعب التفاهم مع القائد النمساوى رادتزكى أو انتظار قدوم شارل البرت ، وطالبوا بالحرية المطلقة ، وصمموا على مقاومة الجيش النمساوى المنظم وأقيمت الحواجز فى الشوارع والطرقات ، وجمع الشعب كل ما استطاع جمعه من الأسلحة والعتاد واشترك النساء مع الرجال فى إعداد وسائل الدفاع وحاربن إلى جانبهم ، وقتل كثيرات منهن ، وكانت الصبية تقف إلى جانب أمهاتهم ويذوقون الموت معهن ، ونشبت معارك حامية فى شوارع ميلان أظهر فيها النمساويون من ضروب القسوة ما لا يكاد يصدق ، وقد محت هذه القسوة الخوف من نفوس أهل اللومبارد المعذبين فاستهانوا بالحياة ، واستعذبوا الموت ، واستبسلوا فى الدفاع والمقاومة حتى اضطر رادتزكى بعد جهاد ثلاثة أيام متوالية شداد إلى أن يطلب المهادنة ، ورفض الشعب طلبه ، وأرغمه على الجلاء عن المدينة والانسحاب بجيشه ، وأصبح مصير إيطاليا معلقاً بيد القدر ، ولو ظهر فى هذا الموقف الحافل بالمحتملات قائد قوى شجاع بعيد النظر واسع الفكر خصب القريحة لتولى القيادة ، وأدار الأمور ، وأفاد من الموقف ، ولكن الضعف والتردد والانقسام والتخاذل وحسور النظر وضيق الأفق كان

طابع المجلس الاستشارى الذى كان يصرف الأمور فى ميلان ، وكان أكثر رجال حكومة ميلان المؤقتة من حزب المعتدلين ، وكانوا فى حاجة ماسة إلى رجل قوى الإيمان ماضى العزم مجتمع الرأى .

وأحسن متزينى السياسة ، وأجاد فهم الموقف ، ونادى بوجوب الهدنة بين الأحزاب المختلفة والمبادىء المتنافرة مادامت الحرب قائمة وما دام العدو واقفاً بالمرصاد ومتأهباً للعودة ، وأعلن متزينى أن الحزب الملكى والحزب الجمهورى يجب أن يكفا عن الصراع لتكون البلاد جبهة واحدة ، وعلى الأحزاب جميعها أن تنتظر بعد الانتصار حكم الأمة المستقلة الموحدة ، ويجب أن تحشد قوى الأمة جميعها للقاء العدو ، وكانت أعمال متزينى مصدقة لكلماته مطابقة لبرنامجه ، فقد عاون الحكومة المؤقتة ، ولم يشجع الجمهوريين ، وبذل جهده فى تشجيع التطوع والترحيب بالمتطوعين ، ونصح بإرسال المتطوعين إلى حماية خط مواصلات العدو فى ڤينتيا ، وكانت خطته أصح وأدل على بعد النظر من الخطة التى جعلت الجيش النظامى والسياسيين المعتدلين يقللان من قيمة المتطوعين ، لأنهما كانا يخشيان النزعة الجمهورية ، ومن سخافة المعتدلين فى هذه الحرب التى لم يكن فيها بين رجال الجيش قائد بارز موهوب أنهم رفضوا خدمات رجل محارب مجرب مثل غاريبالدى .

وكان شارل البرت قد تحرك على رأس جيشه ، ويقال إن حب الحرية لم يكن فى طليعة بواعثه على مساعدة ميلان ، وإنما كان باعثه المحافظة على كيان النظام الملكى فى إيطاليا ، فقد خشى أنه إذا

تقاعد عن مناصرة ميلان تولى الشعب الإيطالى تحرير نفسه ، وهذا ما حداه على إشهار الحرب على النمسا ، وقد نصحه المعتدلون بتولى زمام الحركة .

واستدعى شارل البرت المتطوعين الذين أرسلوا إلى ممرات جبال الألب لحمايتها ، وكان لذلك أثره السيىء ونتيجته القاضية ، فقد استطاع رادتزكى أن يعيد بعد ذلك تنظيم مواصلاته ، وحصل على المدد اللازم ، وكانت سياسة المعتدلين قائمة على الخوف من انتقال السلطة إلى الشعب ، الذى كانوا يحذرونه ويخافونه أكثر مما يحذرون النمساويين ويخافونهم ، وكانت عقيدتهم الراسخة أن الخلاص متوقف على الملك شارل البرت وجيش بيدمونت المنظم دون معاونة الشعب ، وأضاع شارل البرت الفرص التى سنحت له بتردده وتوجسه وارتيابه بالحركة الشعبية ، وهكذا هدمت فيولة رأى الملك وعجز القواد وانقسام الرأى وفساد النيات ما بناه أهل ميلان ، وأضاعت فرصة الاستقلال والوحدة ، وكان العجز والحمق وسوء التدبير طابع الحملة من أول أمرها .

وظهرت فكرة ضم لومباردى إلى بيدمونت ، وأرسل الملك إلى مترينى يعده الوعود ويمنيه الأمانى إذا أقر الفكرة وأيدها بنفوذه ، فأرسل إليه مترينى يخبره أن الوحدة الإيطالية هى غاية حياته ، وأنه من أجل تحقيق هذه الغاية يتنازل عن كل الأمور الصغيرة ، ولما كانت محاربة النمسا هى المسألة الهامة ، ولما كان كذلك يعرف أن توسيع حدود بيدمونت يعطى الأمراء الآخرين حجة للمنافسة والغيرة وترك الفكرة

القومية فلهذه الأسباب جميعها يرى أن الطريقة الوحيدة المجدية هى جعل الحرب بين پيدمونت والنمسا حرباً عامة لتحرير إيطاليا جميعها ، ولم يرق هذا الرأى بطبيعة الحال الملك شارل ألبرت فرفضه ، وكان مطلب متزينى مطلباً كبيراً ، والمطلب الكبير يستدعى وجود الرجل الكبير لينهض به ، ولم يكن شارل ألبرت من كبار الرجال وقادة الأمم ، وإنما كان رجلاً خلقته الظروف ، وحمله التيار ، وفرضت عليه الحوادث الظهور والقيادة ، وأخذ المعتدلون يضغطون على الشعب ليوافق على انضمام لومباردى إلى پيدمونت ، وقيل للشعب إنه لو تم امتزاج لومباردى وپيدمونت فإن موارد پيدمونت من المال والرجال ستكون جميعها رهناً بحماية ميلان وتحريرها ، وكان النمساويون حينذاك قد بدأوا ينتصرون فى كل مكان ، وتراجع أمامهم الجيش الملكى ، واستعان المعتدلون وقد دب إليهم اليأس بمتزينى لإنقاذ الموقف ، فأعد العدة للدفاع عن المدينة ، ولكن رسل الملك جاءوا وأذاعوا أن الملك قادم بجيشه للدفاع عن المدينة وحمايتها ، ومن الإهانة لجيوشه محاولة الأهالى الدفاع عن مدينتهم ، وأدرك متزينى أن الموقف باعث على اليأس فترك الفرقة ، وانضم إلى فرقة غاريبالدى فى برجامو وأبدى جلداً وشجاعة وصبراً فى احتمال المشاق والصعاب والأخطار التى تعرضت لها هذه المدينة .

وفى اليوم التالى دخل الملك ميلان ، وأعلن أنه جاء للدفاع عنها ، وذلك فى الوقت الذى كان قد أجاز فيه وثيقة تسليم المدينة لرادتزكى ، وكن تسليم ميلان ثمناً لتمكين الجيش الپيدمونتى من الانسحاب من المدينة

وعاد النمساويون إلى المدينة ظافرين منتصرين ، وصبوا على أهلها العذاب ، وأذاقوهم الويل .

ولما تجاوزت فرقة المتطوعين الحدود تفرق شملها ، وانسحب الجيش إلى بيدمونت وأقر الملك الهدنة ، ولم يقبل متزيني الاعتراف بالهزيمة ، وكان يرى أن الحرب التي تولى قيادتها الأمراء قد أخفقت لينهض الشعب بالعبء ، ورأى بعد التدبر والتفكير أن ميدان عمله هو إيطاليا الوسطى ، لأنه يستطيع أن يستعمل نفوذه في فلورنسا وروما لمباشرة الاستعدادات الحربية ، وكانت الدمقراطية منتصرة في روما وتسكانى ، فقد فر البابا من مستقره ، ومكنه الملك فرديناند — ملك نابولى — من الاحتماء بحصن جيتا ، وكان الرومانيون متجهين إلى النظام الجمهورى .

وأسرع متزيني إلى مرسيليا ، وأبحر منها إلى ليجورن ، وكان دوق فلورانس قد هرب منها واستغل متزيني نفوذه ليكبح من جماح غضب الشعب وهجومه على أملاك الدوق ، وترك متزيني تسكانى بعد محاولات عقيمة لضمها إلى الولايات البابوية وجعلها تتأهب للحرب ، وتوجه إلى روما .

وكان متزيني يغرى أهل روما بالأخذ بالنظام الجمهورى منذ تركهم البابا ، وقد أوضح لهم أن البابا في الواقع قد تنازل عن سلطانه ومهد لهم سبيل الجمهورية ، وأن هذه الجمهورية التي تقوم في روما قد يمتد سلطانها ويعظم نفوذها حتى تشمل إيطاليا جميعها ، وقد أعلنت

الجمهورية فى روما ، وكان لنصائح متزينى أثرها فى ذلك وإن لم تكن هى بطبيعة الحال السبب الوحيد ، فقد كان ضغط الظروف هو العنصر الفعال فى الموقف ، وقد دعت الجمهورية الرومانية متزينى فى اليوم الرابع من تأسيسها ، فوصل روما فى مساء اليوم الخامس من شهر مارس سنة ١٨٤٩ ودخل المدينة خلسة دون أن يلحظه أحد ، وكانت الفكرة المالئة لنفسه هى التأهب للحرب الوشيكة الوقوع ، وقد كانت پيدمونت غير قانعة بالهزيمة ، وقد ساءتها القسوة التى عامل بها النمساويون سكان لومبارديا ، وكانت تهم بنقض الهدنة ، وكان هناك استعداد للثورة فى مدن لومبارديا ، ومن واجب روما الجمهورية فى مثل هذا الموقف أن لا تتخلف عن الصفوف ، وقد جعلها متزينى تقدم عشرة آلاف رجل ، وبينما كانوا على أهبة المسير إلى الشمال جاءت أنباء عن هزيمة جيش پيدمونت فى معركة نوڤارا ، وبذلك قضى على الأمل فى تحرير لومبارديا .

وكان الموقف حينذاك يستدعى العمل على إنقاذ إيطاليا الوسطى ، وقد اتجهت أنظار الرومانيين إلى الرجل الذى ظفر باحترامهم وتقديرهم والذى استطاع بقوة شخصيته الساحرة أن يرتفع بهم إلى مستواه الأخلاقى ، وقد وقع عليه الاختيار ليكون أحد الثلاثة الذين يصرفون أعنة الحكم ، والواقع أنه أصبح صاحب الكلمة العليا والرأى الفاصل ، على أن متزينى كان ضعيف الأمل فى إنقاذ الجمهورية الرومانية ، وقد أفضى بمخاوفه إلى بعض أصدقائه من الأجانب ، ولم تكن الحالة تبعث على اليأس

بعد ، ولم يكن مترنيخ يحفل أهل نابولى الذين كانوا يحومون حول الحدود الجنوبية ، ولم يكن يتوقع أن تقدم فرنسا على العمل الحسيس الذى قامت به بعد ذلك ، وكان الخطر الوحيد الذى يخشاه هو الجيش النمساوى ، وكان فى نية مترنيخ أن يضاعف الجيش الرومانى وينقض به على خطوط مواصلات النمساويين الطويلة وهم يتقدمون على امتداد الساحل الشرقى .

ولم يصرفه ما بذله من الجهد فى الاستعداد للحرب عن جعل حكومة الجمهورية حكومة أنموذجية ، فقد حاول أن يوحّد غرض الحكومة والشعب بحيث لا يكون هناك مجال لظهور الروح الحزبية أو سوء الظن ، فلم يكن فى حكومته جبروت ولا عنف ولا تعصب ولا محاباة ، وكان شعاره التشدد فى المبادئ والاعتدال فى معاملة الأفراد،ولم ينحرف عن ذلك حتى فى إبان تعقد الأزمات واشتداد الكرب ، وقد ترك للصحافة حريتها ، وكان يغضى على المتآمرين على حكومته ويكتفى بتحذيرهم تحذيراً ليناً ، وكان الأمن بوجه عام مستتباً شاملاً للصديق والعدو ، وكانت سلطة مترنيخ اللينة المعتدلة العاطفة المتسامحة تختلف كل الاختلاف عن طريقة الإرهاب البابوى الذى طالما أنزل الويل بتلك البلاد التى كانت خاضعة لسلطة البابا ، وأحسن مترنيخ معاملة رجال الدين وترفق بهم وحماهم وحاول أن يجتذبهم إلى صفه ، وأن يتفق مع البابا على أن يكتفى بالسلطة الروحية ، وكانت حياة مترنيخ فى تلك الفترة حياة دمقراطية بسيطة ، فكان يقيم فى حجرة واحدة ولا يتخذ

له حرساً فى بلاد اشتهرت بكثرة الجرائم السياسية والاغتيال السياسى ، ويتناول غداءه فى مطعم متواضع ، وكانت ملهاته الوحيدة العزف على قيثارته والغناء إذا ما خلا بنفسه فى هدأة الليل . وكان يصرف له مرتب شهرى قدره اثنان وثلاثون جنيهاً ، وكان ينفق أكثرها على الغير ، أما إدارته فكانت من اللين والرقة بحيث كان ينقصها شىء من الشدة والحسم ، ولكن كان يعوض هذا النقص سرعة خاطره وخصوبة تفكيره وحسن تأتيه فى الأمور ، وقد ساعدته هذه الصفات فى الاضطلاع بأعباء الحكم وإعداد الدفاع وكتابة المذكرات السياسية ، ولم يعصف بهدوء نفسه وسماحتها كثرة هموم الحكم وثقل أعباء الدولة واستهدافها للأخطار والمكاره .

وقد جاءت الضربة التى أصابت الجمهورية فى الصميم من ناحية لم يكن متزينى ينتظر منها الشر ، وهى فرنسا التى يفرض عليها نظام الحكم فيها أن لا تستعمل قوتها فى استلاب حرية الغير ، وقد دفعت فرنسا فى سيدان ثمن هذه الجريمة الشنعاء التى اقترفتها بالاعتداء على الجمهورية الرومانية بدون مسوغ وفى شىء كثير من الضعة والغدر والخسة والارتداد إلى أدب الأدغال وشريعة الوحوش الضارية والحيوانات المفترسة ، وقد هاجمت الجمهورية الرومانية جيوش أودينو ودافعت الجمهورية عن نفسها دفاعاً مجيداً ، وردت جيوش أودينو هزيمة مدحورة ، وأرسلت الحكومة الفرنسية فرديناند دى لسيبس ليفاوض الرومانيين ، وكان الغرض من المفاوضة كسب الوقت لحين

مجيء المدد ، وظن متزيني في بادئ الأمر أن الجمهورية قد نجت من الخطر الفرنسي فأرسل غاريبالدى على رأس حملة لرد غارة جيش نابولى ولكن فى الوقت الذى تم فيه الاتفاق بين دى لسيبس ومتزينى خلعت الحكومة الفرنسية رداء التنكر ، وقام أودينو بهجوم غادر على الجمهورية الرومانية ، واستمر حصار المدينة قرابة شهر أحسنت فيه المدينة الدفاع عن نفسها ، وكان على رأس المدافعين متزينى وغاريبالدى وغيرهما من أبطال القومية الإيطالية ، واشترك النساء فى الدفاع وأظهرن جلداً وقوة احتمال ، وقتل كثيرون من أصحاب متزينى واستهدف متزينى لنقد غاريبالدى الغاضب المشاكس ، ونقد المتآمرين الناقمين على الجمهورية الذين اتخذوه وسيلة لمآربهم ، وكان متزينى يرى أن الجمهورية عليها أن تجاهد حتى النهاية ، ولما تداعت استحكامات المدينة إزاء الهجمات المتوالية الشديدة التى قام بها الجيش الفرنسى أراد متزينى أن يحمل المدينة على أن تدافع عن نفسها شارعاً شارعاً ، أو أن تنسحب الحكومة إلى جبال الأپنائين ، وتظل رافعة علم الجمهورية الرومانية ، وأقره الجيش على ذلك ولكن هيئة الحكم لم تكن مستعدة للإقدام على مثل هذه التضحية ، واضطر متزينى إلى الاستقالة بعد أن عنّف رجال الجمعية الوطنية تعنيفاً شديداً ، وسلمت المدينة للغزاة ، وأبى غاريبالدى التسليم ، فانسحب ومعه ثلاثة آلاف من الرجال الذين أبوا مثلة التسليم ، ووعدهم غاريبالدى « بالجوع والظمأ واليقظة وعدم التسليم للعدو » ، وبقى متزينى فى روما أياماً ، والظاهر أن الخلاف الشديد الذى وقع

بين مترينى وغاريبالدى جعل مترينى لا يفكر فى الانسحاب معهم ، وكان متعباً منهوك القوى ، فإنه لم ينم على الفراش منذ بدء الحصار ، ولم يكن يتناول ما يكفى من الطعام ، وفى مدى شهرين من الجهد المتواصل والإرهاق الشديد أسرعت إليه الشيخوخة وابيضت لحيته ونحل وجهه ، وكان يطوف بشوارع المدينة علّه يستطيع أن يهيب بالناس إلى المقاومة والدفاع ، وكانت نفسه ثائرة متمردة لا تريد الاعتراف بانتصار القوة الوحشية ، والغريب أن الفرنسيين لم يجترئوا على إلقاء القبض عليه وأسره ! وأخيراً نصحه جماعة من أصحابه بالانسحاب ، ولم يكن يحمل جواز سفره ، واتجه إلى سيفيتا فكيا ، ورأى باخرة تهم بالإبحار ، وكان ربانها لا يعرفه ، ولما عرّفه مترينى بنفسه وسأله أيقبل أن تحمله سفينته بغير جواز سفر ، وافق الرجل على ذلك ، وفى ليجورن خاف الرجل حينما صعد إلى الباخرة الموظفون النمساويون ليبحثوا بحثاً دقيقاً عن الهاربين فطمأنه مترينى وقال له « لا تخف فإنهم لن يستطيعوا القبض علىّ ولا خطر عليك ولا بأس » ، واستعار قبعة أحد طهاة السفينة وستر بها جبينه وعينيه، وبدأ يغسل الصحاف ،ومر به النمساويون ولكنهم لم يفطنوا للصيد الثمين الذى تركوه ! ولم يلجأ مترينى إلى التستر والتنكر فى رحلاته الكثيرة بالقارة الأوربية إلا مرتين ، وبالرغم من أن فريقاً من أبرع الشرطه السريين كانوا يقتفون آثاره خلال تنقلاته فى المدن الكبرى الأوربية فإنهم لم يوفقوا فى الاهتداء إلى مكامنه أو القبض عليه. ، وكانت حيله فى التخلص من المطاردة لا ينضب معينها ، ولما وصلت

الباخرة التى كانت تقله إلى مرسيليا نجح كعادته فى التخلص من الشرطة الفرنسيين ، وسافر إلى جنيف حيث قضى أسابيع قلائل فى فندق هادئ ، ثم انتقل منها إلى لوزان حيث أقام مع صديقه وزميله فى الحكومة الثلاثية صفّى وبعض المنفيين الإيطاليين ، وشرع هو وأصحابه فى أعمال النشر والصحافة كأن معركة روما كانت عطلة مؤقتة ، وفكر متزينى فى عمل دائرة معارف دمقراطية ، وكانت تنتابه فى بعض الأوقات نوبات من التشاؤم وانكسار العزم ، ويثير ألمه انتصار القوة المادية الغليظ فى إيطاليا ، ولكن سرعان ما كانت تنقشع السحب من سماء نفسه ويعاوده الصفاء والإشراق والإيمان بالمستقبل ، وتكرر الاضطهاد الذى لقيه فى سويسرة سنة ١٨٣٤ وضغطت الحكومات الأوربية على حكومة سويسرة لطرد المنفيين الإيطاليين ، واضطر متزينى إلى الفرار من سويسرة إلى إنجلترا وظل مقيماً فى إنجلترا بلا انقطاع حتى السنوات الأخيرة من حياته .

وكانت حجة الفرنسيين الظاهرة فى محاربة الجمهورية الرومانية هى إزالة الطغيان من روما وإحلال النظام محل الفوضى وإعادة البابا ، وكان غرض الحكومة الفرنسية الحقيقى هو استرضاء الحزب الكاثوليكى من ناحية ومتابعة السياسة الفرنسية القديمة التى ترمى إلى إضعاف إيطاليا وعدم تمكين النمسا من التوغل فى شبه الجزيرة والتدخل لإعادة البابا من ناحية أخرى

الفصل الثامن

حياة متزينى فى لندن بعد القضاء على الجمهورية الرومانية — ثورة ميلان المخفقة — تنقلات متزينى فى أوربا وعودته إلى لندن .

عاد متزينى إلى لندن التى أصبح يألفها وتطيب له الإقامة بها ، وقد تلقاه أصدقاؤه فيها بالترحيب والبشاشة ، وزار كارلايل وزوجته فتحفيا له وأقبلا عليه واستدلت مسز كارلايل من منظر متزينى على مالقى من التجارب القاسية والمحن الشديدة فبلغ منها التأثر مبلغاً حتى كادت تطفر الدموع من عينيها ، على أن متزينى لم يعد إلى لندن مهيض الجناح مثلوم العزيمة ، قالت عنه مسز كارلايل « إنه يبدو أحسن كثيراً مما قدرت » ولم يكن الرجل زعيما قد أضاع سمعته وإنما كان زعيماً سوغ زعامته وأضاف صفحات ناصعة إلى سيرته وحقق حلم حياته حيناً قصيراً من الزمن ، فهل يقبل حكم الحوادث وينزل على إرادة الأقدار وينسحب من الميدان ؟ لقد نصحه بعض الأصدقاء بترك السياسة والانقطاع للأدب والبحوث الفلسفية ، ويشايعهم على هذا الرأى المستر بولتن كنج فى كتابه القيم عن متزينى ويقول[1] « لو عمل متزينى بنصيحة بعض أصدقائه وترك السياسة فى ذلك الوقت وتفرغ

(١) صفحة ١٥٤ من كتاب « حياة متزينى » بقلم بولتن كنج .

للأدب لكانت شهرته ألمع وأشرق ولكانت حياته أوفر ثمرة فى الخير الخالص ، ولقد كان عمله من أجل إيطاليا قد تم وأنجز ، وقد نجح فى إقناعها بأكثر من نصف عقيدته ، ونصف خيار رجالها قد غذتهم كتاباته وتعلموا منه الإيمان بالاستقلال والوحدة » ولكنى أعتقد أن متزينى كان أدرى بطبيعة رسالته ، وبقاؤه فى الميدان كان من دواعى تعجيل القيام بحركة الاستقلال والوحدة ، فقد ظل يليح للإيطاليين بصورة إيطاليا المستقلة الموحدة ويدافع عن الفكرة ببلاغته الساحرة ، وتفكيره الواضح ، ومنطقه القوى ، وكانت شخصيته وتجاربه ومكانته ترغم خصومه قبل أصدقائه وأعوانه على تقدير آرائه واستيحاء مثله العليا عند وضع البرامج وتدبير الخطط وإجراء المفاوضات ، ولقد كان مناظره فى السياسة الإيطالية وزير پيدمونت الشهير كافور يسعى لتحقيق الممكن والميسور ، أما متزينى فقد كان يسعى إلى تحقيق ما يجب أن يكون ، وبثباته وإصراره ورفضه المساومة فى مبادئه أصبح الواجب ممكناً .

ولما زار متزينى كارلايل وزوجته وغمرتهما موجة من السرور لهذه الزيارة المفاجئة عجب أحد الحاضرين من أصدقاء كارلايل الذين كانوا يعرفون آراءه وما بينه وبين متزينى من خلاف فى وجهات النظر وفلسفة الحياة ، وكان هذا الصديق قد رأى متزينى لأول مرة ، فلما استمع إلى حديثه وأحس إشعاع شخصيته زال تعجبه وكتب بعد ذلك يصفه قائلاً « ليس فى استطاعة إنسان أن يصف عينيه وابتسامته وصوته » وقد كان بعض الذين يكرهون آراءه يتحاشون الاجتماع به خشية أن

يؤخذوا بسحر شخصيته وقوة جاذبيته .

وقد رجع مترينى من أعظم تجارب حياته متعباً منهوك القوى بادى النحول والهزال ، وقد دعته بعض الأسر التى تجله وتكبره وتعطف عليه وتقدره إلى الإقامة معها ليكون فى كنف رعايتها فشكر لها عطفها واعتذر عن قبول دعوتها الكريمة وآثر السكنى فى المساكن المتواضعة ، قال عنه أحد أصدقائه « فى حضرته لا يفكر الإنسان فى الأشياء المادية ، فحيث يوجد فكأنه قــد حل فى قصر » ورغم شواغله السياسية كان يجد متسعاً من الوقت لمخالطة الأسر الإنجليزية التى انعقدت بينه وبينها أواصر المودة وتأكدت صلات الصداقة ، وكان يعين أفرادها على علاج مشكلاتهم العائلية ويقدم لهم النصائح الغالية ، والحكم القيمة ، والنظرات الروحية السامية ، ويواسيهم فى أحزانهم ، ويشجعهم على مغالبة الشدائد ، ويكتب لهم الرسائل التى تفيض عطفاً ورقة شعور ودقة إحساس ، وقد كان مترينى محدثاً بارعاً حاضر الخاطر يتحدث فى حرارة وحماسة .ويقين صادق ولا أثر فى لهجته للتكلف أو التظاهر والادعاء ، وكان يتناول فى أحاديثه الحركات السياسية والنهضات الاجتماعية والأدب والشعر والموسيقى ، وكان دائم القراءة والاطلاع .

وكان لا ينى يعمل على كسب الأصدقاء والأنصار لقضية بلاده وإسماع صوتها وإثارة عطف الإنجليز الأدبى عليها ويمد الجرائد والمجلات الإنجليزية بالمعلومات والحقائق لتؤثر فى سياسة إنجلترا الخارجية ، ويسترعى النظر إلى ما تعانيه بلاده من سوء الأحوال وفساد الحكم ، وفى

سنة ١٨٥١ بدأ يؤلف جمعية أصدقاء إيطاليا ، وكان من بين أعضائها جماعة من مفكرى الإنجليز البارزين وقادة الرأى ، وكان غرض الجمعية مساعدة الرأى العام البريطانى على تكوين فكرة صادقة عن أحوال إيطاليا ، والظفر بالمساعدة المالية التى تمكن الإيطاليين من تنظيم الثورات وإعداد لوازمها .

وفى سنة ١٨٥٢ أصيب متزينى بصدمة شديدة زلزلت كيانه وهزت مشاعره ، وهى وفاة والدته التى لم يرها منذ اعتقاله فى سافونا سوى مرة واحدة حينما زارته فى ميلان سنة ١٨٤٨ ، ولكن هذا الفراق الطويل الذى قضت به الظروف القاسية لم يضعف الصلة بينهما ، وكانت والدته تتابع أخباره وتنقلاته ومخاطراته بعناية واهتمام وعطف ، وتعمل على توفير الراحة له وسد خلته ، وتحرم نفسها متعة رؤيته خشية أن يستهدف للخطر ، وقد توفيت فجأة وهى تقرأ لأحد أصدقائها الأعزاء رسالة من ولدها ، وقد هوّن عليه المصاب اعتقاده الراسخ بخلود النفس فقال « إنها لم تفقدنى وأنا أشعر شعوراً عميقاً بأننى لم أفقدها فقداناً تاماً » بل لعله استمد من موتها قوة على مواصلة السعى ، قال فى ذلك « أشعر بقداسة الواجبات التى أقرتها ، والرسالة التى وافقت عليها ورضيتها » وانفصمت بموتها صلاته العائلية بإيطاليا ، فقد مضى الموت بأبيه وشقيقته المحبوبة من قبل ، وكانت شقيقته الباقية على قيد الحياة كاثوليكية متعصبة تخالفه فى الرأى وتجافى مذهبه وخطته المجافاة كلها ، فلم يكن بينهما تفاهم ولا مراسلة.

وكان يقضى نهاره فى تحرير الرسائل لأصدقائه وأتباعه وتدبيج

الفصول الأدبية والمقالات السياسية ، ويقضى أمسياته مع أصدقائه فى بحوث شائقة ومقابسات أدبية ، وكان حضوره أى مجلس من المجالس يبعث فيه حركة ويفيض حياة ويسمو بمستوى الحديث .

وكان له من عطف هذه الأسر الإنجليزية الكريمة عوض عن فقد والدته ، وكان يقابل هذا العطف وتلك الرعاية بمثلهما ويقدم لأفرادها فى المناسبات الملائمة رموز الود وآيات الولاء من الكتب المهداة أو الحلى التى يسمح بها دخله المحدود وموارده القليلة أو يحجز لها مقاعد فى الأوبرا مما كان يقدمها له كبار المغنين الإيطاليين حين حضورهم لإقامة الحفلات فى لندن ،وكان متزينى جم العطف على الأطفال والحيوانات ، وكان فى أسرة أشرست طفل هو ابن مسز ستانسفيلد — وهى كارولين أشرست — وكان متزينى يخص هذا الطفل بعطفه واهتمامه ولم يكن ينسى السؤال عنه وهو ذاهب إلى الثورة فى مانتوا وبعد إخفاقها وهو مختبئ فى سويسرة وفى شتى الأمكنة التى كان يحل بها ، وكان هو ولويس[١] بلانك يترددان على منزل أسرة روش فى لندن ، ورُوى عن أطفال هذه الأسرة قولهم « كنا نشعر بالمضايقة حينما يحضر لويس بلانك ، ولكن كنا دائماً نرحب بمتزينى لأنه كان يحنو علينا ولم ينس قط أن يستفسر عن أحوال عرائسنا ودمانا ، وكان يطيب لنا أن نجلس إليه ونستمع أحاديثه ، وكنا فى بعض الأحيان لا نفهم كلمة واحدة من الحديث الدائر ولكن جمال صوته فى الحديث كان يروقنا ويفتننا » وكان فى

(١) لويس بلانك من الزعماء والسياسيين الفرنسيين الذين اشتهروا فى القرن التاسع عشر .

مترينى نفسه جانب من بهجة الطفوله وبساطتها ، قالت عنه مسز هملتن كنج « فى خلال عواصف حياته وأحزانها كانت تشرق على الدوام أشعة الطفولة المقدسة ، فالألم والهم والعمل المرهق لم يكن فى وسعها جميعاً أن تزيل هذه البساطة والبراءة والبشاشة ، ولقد كان السرور العنصر الغالب عليه ، وكان يحمل السرور أينما حل بالرغم من أنه هو نفسه كان شهيداً يشقى بدنه وقلبه وروحه ، وكل شىء عذب ونقى ومحبب كأنما كان ينتسب إليه أو كان منه على كثب » .

والأقاويل كثيرة عن جاذبية شخصيته وشدة تأثيره فى نفوس سامعيه أو من اتصلوا به ، وهى تطالعنا من النواحى المختلفه ، وقد وصفه فيلكس موشيل الذى قضى سنوات فى باريس ولم يكن من المعجبين بالأبطال وكان لا يحترم سوى النجاح ، وكان من المعجبين بالإمبراطور لويس نابليون ويراه « الرجل الصحيح فى المكان الصحيح » وبالرغم من ذلك فإنه يقول عن مترينى « اليقين الذى ينبعث من بين شفتى هذا الرجل من القوة بحيث يشعل اليقين فى النفوس ، وروحه الثائرة تبلغ بها الثورة والاهتياج إلى حد أنه لا يسع أرواحنا إلا أن تتجاوب معها ، وتعكس عيناه النيران الدائمة التوقد والإشعاع فى داخل نفسه ، وهو يتملكك بسحره ، ويتغلغل إلى دخائل ضميرك ويشعل الشرارة حيث كان الظلام مخيما ، وتحت تأثير تلك العين وذلك الصوت تشعر بأنك تقوى على ترك أبيك وأمك واتباعه ، فهو مندوب العناية الإلهية الذى جاء لهدم بناء الباطل الذى يستعبد الناس ، وهو يعطيك عينين تنظر بهما ، وأذنين

تسمع بهما ، فتنتفض وتتحرك كما انتفض وتحرك ، وتنهض كما نهض لتبشر بالإنجيل الجديد — وهو « واجبات الرجل » ، وأذكر رجالا عظماء وأخياراً كان من حظى أن أعرفهم ولكن لا أرى أحداً منهم ماثلاً أمامى فى وضوح وجلاء مثل متزينى ، فملامح وجهه وتعبيراته وحركاته وإشاراته مطبوعة فى ذاكرتى ».

وطول إقامة متزينى فى بلاد الإنجليز جعلته يفهم الكثير عن أخلاقهم وسلوكهم وكان يشعر دائماً بالتباعد بين الفكر والعمل عند الإنجليز ، والتفاوت بين اليقين والمعتقد والسياسة العملية ، وكان القوم يعطفون على إيطاليا ولكن سياستهم الخارجية كانت لا تقدم الدليل على هذا العطف ، وكان لابد لرجل مثل متزينى من أن يلحظ هذا التناقض ، والعجيب أن الإنجليز أنفسهم يعرفون هذا التناقض فى سلوكهم ويدركونه ، وقد كان بالمرستون السياسى الإنجليزى الخطير يمقت الأساليب التى تتبعها حكومة النمسا فى معاملة الإيطاليين أشد المقت ولكن كلماته الرسمية لم تكن تعبر عن هذه الكراهة الشديدة ، وكان يعطف على الجمهورية الرومانية وزعيمها . ويكتفى بهذا العطف الأفلاطونى لأن الاعتبارات السياسية كانت تضطره إلى القيام بمفاوضات مع البابا .

وكان متزينى يرى أن من الخير إرجاء الثورة فى إيطاليا حتى يجئ الوقت المناسب لإشعالها وتلوح فرصة نجاحها ، ولكن فى هذه الآونة اتصل به أعضاء جمعية سرية تكونت من العمال فى ميلان وكانت هذه الجمعية تريد الثورة ، وتردد متزينى فى تشجيع هذه الجمعية على القيام

بالثورة ، ولكن اتفق أن الحكومة النمساوية كشفت سر مؤامرة حديثة في مانتوا وعاملت المتآمرين معاملة وحشية قاسية ومثلت بهم تمثيلاً فظيعاً فآثار ذلك غضب أعضاء الجمعية الثورية الجديدة واستفزهم وأخرجهم عن طورهم فأكبوا على الاستعداد للثورة بهمة وحماسة وصمموا على القيام بالثورة سواء ساعدهم متزيني وناصرهم أو تخلى عنهم وتركهم وضن عليهم بنصائحه وثمرات تجاربه ، وكان متزيني لا يزال يرى أنه ليس من الحكمة وحسن السياسة قيام الثورة في تلك الظروف غير الملائمة ويشك في إمكان نجاحها ، ولكن أهل ميلان كانوا قلقين قد نفد صبرهم ، وكان متزيني أكرم نفساً وأبعد همة من أن يحبس عنهم الرأى ويتخلى عن مساعدتهم ، فأوفد من قبله أحد الخبراء الحربيين ليقدم له تقريراً عن الخطة الموضوعة للثورة ومدى قابليتها للنجاح ، وقدم الخبير تقريره وذكر فيه أن الخطة مناسبة للغاية ، فبذل متزيني أقصى جهده ليجمع لهم المال ، وكان متزيني يعلم أن هذه الثورة إذا منيت بالفشل مثل الثورات السابقة فإن تبعة ذلك الفشل ستلقى عليه ، وأنصاره في جنوا مثل برتاني ومديتشي وغيرهما لم يوافقوا على قيام هذه الثورة ، ولكنه زعم أنهم لم يفهموا الموقف من جميع نواحيه ، وفي شهر ديسمبر سنة ١٨٥٢ ترك لندن وعبر الحدود السويسرية إلى لوكارنو ليتم الاستعداد للثورة ، وحدد يوم ٦ فبراير سنة ١٨٥٣ موعداً لقيام الثورة

وتم التأهب لها على خير الوجوه ، وفي اللحظة الأخيرة قصّر القائد الذى كان عليه أن يبدأ بإعطاء الإشارة لتتوالى المفاجآت ، وخان الأمانة ،

وقد أخطأ الخبير الحربى فى جعله قيام الثورة رهناً بإشارة يصدرها رجل فرد ، ولم يحتط للأمر ، وجعل كل شىء قائماً على هذا الأساس الضعيف ، وأخفقت الثورة ، وأسفرت عن شنق ستة عشر رجلاً من الإيطاليين ، وصبت على متزينى اللعنات من جميع الجهات كما كان منتظراً ، وكانت حكومة بيد مونت بوجه خاص شديدة فى تحاملها عليه ، وزرايتها به ، وقد كالت له الشتائم والاتهامات ، وبالرغم من أن وضع خطة هذه الثورة وتنظيمها لم يكونا من عمله فإنه أصبح كبش الفداء ، وقد احتمل متزينى هذه الحملة صامتاً صابراً لأن دفاعه عن نفسه كان يقتضى توجيه الاتهامات إلى قوم لم تعلق بهم شبهة ، ولم تحم حولهم الظنون ، ولذا قبل متزينى الموقف ولم يعمل على نقض الاتهام ، وآلمه وبلغ منه ضياع هذه الفرصة وإخفاق هذه الثورة وساءه أن بعض أعوانه وأنصاره أصبحوا مظنة الشبهة والاتهام واستهدفوا للاضطهاد والمحاكمة .

وغاضبه فى هذه الآونة الزعيم المجرى كوسوث ، وكان متزينى يعطف عليه ويؤيده فى أهدافه ومراميه ، وبذل جهداً فى مساعدته لتقديره أن للأحرار هدفاً واحداً ، وأن المجاهدين للاستقلال إخوان وإن تناءت الديار واختلفت الأوطان ، وكان قد اتفق معه قبل بدء ثورة ميلان المخفقة وقبل أن يقوم كوسوث برحلة غير محدودة ولا معروفة المدى على أن يضع كوسوث توقيعه على نداء للفرق المجرية العاملة فى الجيش النمساوى بأن تساعد الإيطاليين فى ثورتهم وتؤيد حركتهم القومية

وعلى أن يوجه متزينى نداءً إلى الجنود الإيطاليين فى الجيش النمساوى بأن يكفوا كذلك عن مناصرة النمساويين على المجريين ، وساء كوسوث أن متزينى لم يعرض النداء عليه قبل إذاعته ليقر ذلك ، وبعثه الغضب على أن يدّعى أن هذا النداء من وضع متزينى ، وأن متزينى زج باسمه فى هذا النداء بغير وجه حق ، واتهمته الصحافة الإيطالية بالتزوير ، وبالرغم من دفاع متزينى عن نفسه فى هذا الموضوع وذكره أن صورة الإعلان الأصلى وعليه توقيع كوسوث ما تزال تحت يده فقد ظلت الصحف الإيطالية زمناً توالى قذفه بتهمة التزييف ، وظهرت فى جرائد پيدمونت اتهامات أخرى منها أنه قتل أوجستينو رافينى وأنه سبب بؤسه وشقائه وفقره وأشيع عنه إن الإيطاليين فى لندن ثاروا به وانتقدوا سلوكه وحطموا فى ثورتهم الغاضبة أثاث منزله ، وأنه فر من وجوههم خشية انتقامهم ، وقد أثرت هذه الحملات الشديدة فى نفسه تأثيراً سيئاً فكتب فى ٢٧ مارس سنة ١٨٥٣ من رسالة إلى صديقته إملى أشيرست يقول « كلا يا عزيزتى إملى ، أنت لا تعرفين ما أعانيه من الأسى فى هذه الأيام ، إننى لست محزوناً من أجل بلادى فإنها لابد أن تسترد حريتها عاجلاً أو آجلاً ، ولست محزوناً من أجل نفسى ، وإنما أشعر بأننى شقى بها وفى تعب من حملها ، ولست آسى على شهرة فقدت ولا يسرنى أن أنال الشهرة أو أن أظفر بأى شىء فى هذه الدنيا ، ولا يعنينى سوى شىء واحد ، فإذا كانت أفكارى صحيحة فإنها ستشق طريقها فى الدنيا ولست أبالى أكان ذلك عن طريقى أو عن طريق غيرى ، وإلى المحزون

لأن الفرصة لاحت لرفع آصار العبودية عن بلادى ثم فقدت ، وإنى لمحزون لهؤلاء الذين قضوا نحبهم وكان يمكن إنقاذهم ، وإنى لمغموم لهؤلاء الذين كنت أقدرهم وأحترمهم فأصبحت لا أقدرهم ولا أحترمهم ، ويحزننى ما لحقنا من العار — وإنى لأشعر به شعوراً قوياً كأنه قد شملنى وحدى — كلما سجن إنسان فى إيطاليا أو المجر أو فى أى مكان آخر وضرب وأهين ، ويؤلمنى انتصار القوة الوحشية والأكاذيب والأثرة ، ويحزننى شعور يطغى علىّ فى بعض الأحيان بأن حياتى كانت غصة فى حلوق بعض الناس وعقبة كأداء فى طريق الآخرين وشيئاً عديم الفائدة للجميع على وجه التقريب ، وسيعاودنى الحزن حينما تحاولين أن تردى عنى زحف هذا الشعور بالمدح الذى — لسبب أجهله — يحزننى بدلاً من أن يشد من عزمى ، وهومدح يعبر عن عطفك لا عن حقائق الأشياء » وكان مترينى حين كتابة هذه الرسالة يعانى حالة من حالات اليأس والأسى والانقباض والوجوم التى كانت تعتريه فى بعض الأوقات ، ولكنه كان سرعان ما يتغلب على هذه الحالات النفسية ، وكأنه كان يستشفى من الأسى بالأسى كما فى قول أبى الطيب

إذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أعلك ما شفاكا

وقد اضطر إلى عبور جبال الألب فى شهر فبراير تفادياً للقبض عليه فى سويسرة ، وكان فى حاجة ماسة إلى النقود فقد أعطى ما كان معه — كعادته — لإخوانه المنفيين ، وعاش عيشة شاقة معرضة للخطر وكان يظهر ويتوارى ليفلت من الرقابة والمطاردة ، ورغم هذه الشدائد

التى كان يعانيها كان يغلب عليه الأمل فى أن إيطاليا ستصدع أغلالها ويؤمن بأنه ما قد يعجزه عمله سيتمه غيره ، وأخذ يسعى فى رأب صدع جماعته وجمع شمل حزبه ، وبذل جهده لينير السبيل أمام إخوانه الإيطاليين ، ويعلمهم واجب الحرية والاستقلال والاتحاد ، ولم يكف عن العمل ومواصلة السعى لأن الطريق الوحيد إلى الحريةفى نظره يقتضى إبقاء الأمم المستعبدة المغلوبة على أمرها فى حالة من اليقظة والتحفز للوثوب والنهضة بحيث لا يفوتها اغتنام الفرصة عند ما تلوح ، أما الركون إلى الجمود والاستسلام لليأس والتقاعد عن إشعال الأمل وحفز الهمم وإنارة البصائر واستثارة الحمية فمعناه التسليم بأن القوة فوق الحق ، فعمله وواجبه هو المحافظة على بقاء المعارضة وبث روح المقاومة والاحتفاظ بالسيف حاداً لامعاً ، ذلك السيف الذى سيحمل فى اليوم المناسب ، ولو ترك السيف فى قرابه لعلاه الصدأ وخذل حامله حينما تعرض الفرصة الثمينة التى لا تعوض ، وهكذا كان مترينى المتنقل فى مخابئ الألب لا ييأس ولا يتراجع وكلما تكاثرت عليه الخطوب حمل علم الجهاد عالياً ، وقد فقد المال وفقد الصحاب وأفلت بصعوبة من القيود والأصفاد وحبل المشنقة وحرم نفسه من النوم والطعام والراحة ومع ذلك كله لم يكف عن تدبير الخطط وإعداد البرامج والتأهب لخوض المعركة من جديد ، فهل هذا الإصرار الذى لا ينثنى ولا يكل ولا يمل هو العظمة والبطولة أو هو الهوس والجنون أو هو العظمة والجنون معاً ؟ ومهما يكن من الأمر فإن هذا العنصر من الجنون والهوس فى حياة العظماء هو

الذى يملك قلوب الناس ، ويؤثر فى نفوسهم ، ويرغمهم على احترام العظماء والخضوع لهم واتباعهم والسير فى ركابهم ، وقد عاد هذا الرجل العظيم أو هذا المجنون الدون كيشوتى من هذه الرحلة الفاشلة والثورة المخفقة إلى لندن فى مايو سنة ١٨٥٣ ، عاد سالماً معافى صبوراً على ريب الزمان جليداً على أحداثه وغيره صارماً يثلمه الضراب كما يقول المتنبى أما هو فكان يزداد على الخطوب قوة ومضاء ، وقالت له صديقته إملى « إن الوقت قد حان لأكتب تاريخ حياتك » فأجابها وهو يحاورها ضاحكاً باسماً « حياتى آه إنها عنوان ولكن ليس هناك كتاب »

وفى سنة ١٨٥٤ ذهب إلى باريس ومنها إلى إيطاليا مستخفياً متنكراً وقضى جانباً من وقته فى جنوا ، وأزعجت حركاته وتنقلاته شرطة إيطاليا وفرنسا وسويسرة وكانت رحلته حافلة بالمخاطرات والإفلات العجيب من المطاردات ، وذاعت حينذاك مقطوعة الشعر التى تعزى للشاعر الإيطالى دل أونجارو ويقول منها « أين متزينى؟ البعض يقول إنه فى ألمانيا وفريق يزعم أنه فر إلى إنجلترا ، والبعض يدعى أنه فى جنيف ، وآخرون يقولون إنه فى إسبانيا ، والبعض يود لو عبده ، والبعض يتمنى له الموت ، ولكن الذين يطاردونه لا يعرفون مكانه ، فيا أيها الحمقى الباحثون عنه أعيدوا النظر حولكم ، وافتحوا عيونكم ، فليس هناك سوى متزينى واحد مفرد ، فهل أعجزكم العثور عليه وأعياكم البحث عنه ؟ أين ماتزينى ؟ سلوا عنه أشجار الصنوبر التى تحرس منحدرات جبال الألب والأپناين ، وابحثوا عنه فى كل مكان يرتجف فيه الطغاة وترتعد فرائصهم خشية تبلج

أنوار فجر الحرية ؛ والتمسوه فى المكان الذى تشتعل فيه اشتعالاً رغبة أبناء إيطاليا فى أن يموتوا فداء لحريتها وإعلاء لشأنها فهو الذى يشعل تلك النيران ويرعاها » .

كان وجود متزينى فى هذه الآونة يملأ نفوس المعتدلين والرجعيين بالمخاوف والأوجال والهواجس والظنون ، كان هو الشبح الرهيب الذى يقض مضاجعهم ويطرد النوم عن جفونهم ، وتكاثرت حوله الإشاعات والأساطير وكثرت الأقاويل عن تدبيراته الخفية للانتقام من قتلة صحابته ومغرقى ثوراته فى سيول الدماء ، ولم تنفجر قنبلة فى باريس إلا نسبت له ، ولم يلتمع خنجر فى أنكونا إلا قيل إن متزينى المتآمر الأعظم خلف اليد التى تشهره ، لقد أنهك هذا الرجل المفرد العلم أعصاب أوربا وانتصر عليها فى حرب الأعصاب ؛

وبلغته وهو فى سويسرة سنة ١٨٥٤ أنباء مرض مسز أشرست ، وكانت قد مضت عليها مدة وهى تعانى آلام العلة ، ولكن بناتها اللواتى كن يعلمن متاعب متزينى وهمومه الكثيرة حبسن عنه أخبارها ، ولكنه سمع من مصدر آخر ، ولامهن على كتمان ذلك عنه ، وذكرهن أن صداقته للأسرة فوق اعتبارات الهدوء والراحة والصفو والأمن ، وأن واجبه أن يشاطر الأسرة أحزانها ومسراتها ، ومضى الموت بمسز أشرست ، وبلغ النبأ متزينى وقد غادر سويسرة قاصداً هولندة ، فغير وجهته ، وأسرع فى العودة إلى إنجلترا ، وكتب إلى أسرة أشرست من رسالة « لا أستطيع أن أفعل شيئاً ، ولكن ربما كان من الخير لنا جميعاً أن

نحزن معاً » وواسى الأسرة فى خطبها أجمل مواساة ، وهون عليها آلام فقد ربة الأسرة بإنكار فكرة الموت وتأكيده أن الموتى من الأعزاء أحياء يحبوننا ويودون منا أن نبادلهم حباً بحب ، وأن الموت الوحيد هو النسيان .

الفصل التاسع

متزينى وكافور – متزينى وحرب القرم – ثورة پسكانى

فى خريف سنة ١٨٥٢ تربع الكونت كاملاو كافور على دست رياسة الوزارة البيدمونتية ، وقد بدأت هذه الحادثة عهداً جديداً فى تاريخ إيطاليا ، وكافور من الشخصيات الشامخة فى تاريخ إيطاليا السياسى ، ومن دعائم استقلالها ووحدتها ، وقد كان رجلاً بعيد الغور ، واسع الإحاطة . يحسن ترصد الفرص ، ويجيد اغتنام المناسبات لمصلحة إيطاليا ، وبناء استقلالها ، وإتمام وحدتها ، وكان رجلاً قوياً صبوراً لا ينفد صبره ، ولا يضلعه أمر ، ولا تعجزه حيلة ، ومما يعزى إليه قوله « لو فعلنا من أجل أنفسنا ما فعلناه من أجل إيطاليا لعدنا الناس من الأوغاد » وواضح من ذلك أنه كان سياسياً خالصاً يعنيه قبل كل شىء تحقيق أهدافه ولا يبالى بشرعية الوسائل الكفيلة بذلك ، ولا بأس عنده فى مصانعة الأمراء وترضى أهواء الملوك الأقوياء ومداجاتهم مادام ذلك يخدم أغراضه ويدنيه من أهدافه ، وقد ولد فى سنة ١٨١٠ ، فهو أصغر من متزينى بخمس سنوات ، وكان الابن الثانى للمركيز ميشيل كافور أحد أغنياء تورين ، وقد اختير فى العاشرة من عمره وصيفاً لشارل ألبرت ولى عهد پيدمونت ، وضاق بحياة البلاط وأرسل للمدرسة

الحربية ، ولم يكن راغباً فى الجندية ولكن أبناء الأعيان لم يكن أمامهم من سبيل للمجد والظهور سوى الجندية ، وأظهر نبوغاً فى عهد الدراسة ، فألحق عند تخرجه فوراً بقسم المهندسين ، وكان يمضى أسعد أيامه فى جنيف عند جده لأبيه الكونت دى سللون وكان رجلاً ممتازاً نزاعاً إلى الأفكار الحرة ميالاً إلى الإصلاح فتأثر كاملاو بنزعته وتشرب أفكاره ، وأصبح وهو شاب لا يفكر فى غشيان المسارح والملاهى مثل أترابه من الشبان وإنما يفكر فى مشكلات الحكم ، وقضايا السياسة ، ووسائل النهوض والإصلاح ، وقد اضطرته أفكاره الحرة إلى ترك خدمة حكومة پيدمونت ، واستفاضت بعد ذلك خبرته بالحياة والناس وزار فرنسا وزار إنجلترا واجتمع بكبار الساسة ورجال الأعمال حتى نضجت خبرته وأصبح ملماً بتيارات السياسة الأوربية ودخائل السياسة الإيطالية ، وقد اختاره ملك پيدمونت ڤيكتور عمانويل الثانى رئيساً للوزارة لما آنس فيه من القدرة على حسن تصريف الأمور ، والخبرة السياسية ، والبراعة العملية ، ويمكن أن نلمح من ذلك الفرق بين هذين الرجلين العظيمين متزينى وكاڤور ، لقد كانا مختلفين الاختلاف كله فى المزاج والطبيعة ، فكاڤور أرستقراطى النشأة كما قدمت ، وكاره للنظريات ، ونهاز للفرص يتحسس طريقه خطوة خطوة ، وينتظر سنوات صابراً مصابراً وهو يداور ويصانع ويخاتل ويماكر بدلاً من أن يقدم ويهجم ويستهدف للفشل الذريع ، ومتزينى من غير شك أوسع علماً وثقافة وأسمى طبيعة وأكبر نفساً ولكن كاڤور

أقدر منه على ممارسة الأساليب الدنيوية ومراعاة مقتضيات السياسة السفلية والتيارات التحتية التى شاءت الأقدار أن تكون عاملاً من عوامل النجاح حتى فى تحقيق الأغراض السامية النبيلة ، والساخرون اليائسون من الخير والنبل والسمو يزعمون أن هذه الأساليب وحدها هى التى تضمن النجاح وإدراك الآمال ، ولكننا نخرج من دراستنا لحركة الاستقلال والوحدة الإيطالية بأن مثالية مترينى كانت عاملاً مهماً فى النجاح مثل سياسة كافور العملية ، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن مثالية مترينى كانت أقوى أثراً من سياسة كافور العملية ، وقد يرى بعض المفكرين نقيض ذلك ، ولكن لا يمكن بحال إنكار فضل مثالية مترينى فى إنجاح حركة الاستقلال والوحدة الإيطالية .

ويرى بولتن كنج أن فكرة الجمهورية التى كان ينادى بها مترينى أصبحت غير ممكنة التحقيق منذ اليوم الذى أقسم فيه ڤيكتور عمانويل الثانى الذى خلف أباه شارل ألبرت على عرش پيدمونت فى سنة ١٨٤٩ يمين الولاء للدستور ، وقد عده الوطنيون حينذاك حامى حمى الأمانى القومية الإيطالية ، وأن الواجب كان يقضى بأن ينضوى جميع الوطنيين تحت رايته ، وأن الاستمساك بالمبادئ الجمهورية وشدة التعلق بها ومهاجمة النظام الملكى كانت تضر بالغرض الأكبر والهدف الأسمى ، وتولد الخلاف والشقاق ، على حين كان ضم الصفوف وتوحيد القوى من ألزم ما يلزم لاجتياز الامتحان المقبل والتغلب على عقبات الطريق ، وهو مع تقديره لمترينى يقول إن مترينى كان

يناقض نفسه ، لأنه من ناحية كان يرى أن الوحدة فوق كل اعتبار وأن الخلاص من النمسا يجب أن يكون قبل كل شيء ، ولكن رغم ذلك لم يستطع كبح نزعاته الجمهورية ، وأنه أقنع نفسه تسويغاً لذلك بأن پيدمونت لا تعمل من أجل الوحدة الإيطالية ، وبأن النمساويين لا يمكن طردهم من إيطاليا إلا بحركة قومية كبيرة شاملة ، وهو ينعى ذلك على متزينى ويقول إنه لو كان أحسن اختبار الشعور الإيطالى وامتحنه امتحاناً دقيقاً لتجنب الوقوع فى هذا الخطأ ، وهو يعزو ذلك إلى عدم ثقته بحكومة پيدمونت وعداوته الشديدة لكاڤور ومبالغته المحزنة فى تقدير قوة حزبه ، وقد كان لتغيبه الطويل عن إيطاليا وحياته فى المنفى أكبر الأثر فى ذلك ، لأن المنفى بطبيعة الحال لا يستطيع أن يعرف واقع الأمور كالذى يراقبها عن كثب ويشاهدها بعينه ويلمسها بيده ، وهو من ناحية أخرى يلوم حكومة پيدمونت لتقصيرها فى التقرب من متزينى والتعاون معه والانتفاع بقدرته الفائقة وملكاته الممتازة

ويرى بولتن كنج أن سياسة متزينى لم تعد صالحة بعد سنة ١٨٤٨ لأنه لم يفطن للتغيير الذى حدث فى أوربا فى أعقاب ذلك ، فقد أدى فشل ثورات تلك السنة إلى تجدد قوة النمسا ونشوء الإمبراطورية الفرنسية وعلى رأسها نابليون الثالث واستقالة پالمرستون الذى كان يعطف على القضية الإيطالية وانهيار الدمقراطية الألمانية ، ولم يعد هناك أمل قوى فى نجاح حرب العصابات ، وحقيقة أن إيطاليا كانت تستطيع

كسب حريتها لو صممت على ذلك ووطنت النفس على التضحية الكاملة الرهيبة واستخراج النصر من أفواه الهزيمة ، ولكن الإيطاليين ـ مثل معظم الأمم الأخرى ـ ليسوا أمة من الأبطال والشهداء ، وأن وطنية المزارعين ليست وطنية قوية فعالة ، وأن الكثير من الطبقات الأخرى تعنيهم شؤون الكنيسة أكثر مما تهمهم شؤون الوطن ، وأن باقى الشعب ليس فيه إصرار الأمريكيين أو الهولنديين أو قوة المقاومة التى لا تنهزم مثل مقاومة اليونانيين أو الإسبانيين .

وهذه الاعتبارات التى لحظها بولتن كنج كانت تسوغ فى نظره السياسة التى سارت عليها حكومة بيدمونت ، فقد كانت سياسة محافظة متسمة بطابع الجبن والحذر والتردد ولكنها كانت تعترف بالحقائق الواقعة ، وقيام ثورة فى تلك الظروف التى كانت تجتازها أوربا بوجه عام وإيطاليا بوجه خاص كان معناه حدوث فظائع جديدة دامية تقشعر لها الأبدان وهزائم قاهرة تستذل النفوس وتقدح فى العزائم ، وكل ثور فاشلة تزيد القيود إحكاماً وتغرى بالإمعان فى الطغيان ، وأول واجبات حكومة بيدمونت المحافظة على استقلالها وصيانة حريتها ، وهو ليس بالعمل الهين ، وثانى واجباتها هو أن تجمع حولها المواطنين الراغبين فى الاستقلال وتنظم صفوفهم وتحشد جموعهم حتى تلوح فرصة الحرية التى تعد بالظفر ، وكان رجال بيدمونت لا يرون بأساً فى التضحية بالنظريات الدمقراطية من أجل نجاح الحركة ، ولا يتورعون عن الاعتداء على الحريات والالتجاء إلى المساومات السياسية

والسير فى الطرق الملتوية للوصول إلى الاستقلال والوحدة ، فهم يتفقون مع متزينى فى الهدف ، ولكنهم يرون أن طريقتهم هى وحدها الطريقة التى تتحقق بها الوحدة ، وهذا الذى جعل الكثيرين من الوطنيين ينضمون إلى الحزب البيدمونتى ويتركون متزينى حانقاً غاضباً منفرداً بمثاليته !

وكان الخلاف بين المذهبين يتمثل أوفى تمثيل فى الخلاف بين طبيعة الرجلين اللذين يمثلانهما ، وهما متزينى وكافور ، فمتزينى رجل دمقراطى بمعنى الكلمة ، لا يثق بالملوك المترددين المتقلبين ويشك فى طبقة الأشراف والنبلاء والطبقات المتوسطة ، وهو صريح فى عداوته وصداقته ، لا يساوم ولا يداور ولا ينثنى ولا يلين ولا يستقر له قرار ولا يهدأ له بال ولا يكف عن المقاومة والنضال ، وكان كافور يشرف من حالق على نظريات متزينى وأفكاره ، ويعدّه عقبة كأداء فى طريقه ، والأرجح أنه لو استطاع سحقه ومحقه لما تردد فى ذلك فقد كانت الهاوية بينهما واسعة عميقة .

لقد كان غرض كافور إنقاذ إيطاليا ، ولكنه كان وزيراً لأحد حملة التيجان وأبناء الأسرة المالكة ، فهو يحرص على أن يحقق هدفه دون أن يعرض ملكه للخطر ، وقد أقنع نفسه بأن بيدمونت لا تستطيع وحدها مواجهة النمسا ولابد لها من حليف ، وتراءى له أن التحالف مع فرنسا هو السبيل الوحيد للتغلب على النمسا ، ومن أجل ذلك كان مستعداً لأن يبذل كل شيء فى سبيل ترضى نابليون الثالث واكتساب

عطفه والظفر بتأييده ، وكان يستبيح فى سبيل ذلك أن يقسو على الجمهوريين ويشدد عليهم النكير ، وأن يشجع الثائرين ولكن على شريطة أن يدفعوا ثمن مخاطراتهم دون أن يعرضوه لاحتمال التبعة ، وكان للرجل الداهية والسياسى الخطير مثل عليا ولكنها لم تكن مثلاً عليا جلية شفافة ناصعة جذابة مثل مُثُل متزينى العليا ، وإنما كانت مثلاً عليا ملفوفة فى أردية الغموض والخفاء مبطنة بأساليب المكر والدهاء ، ولكن أساس عظمته أنه كان يعمل ذلك كله من أجل بلاده وحريتها واستقلالها ووحدتها لا من أجل نفسه الفانية الزائلة ! وأنا أفضل أسلوب متزينى وطريقته ولكنى لا أستطيع أن أنكر قيمة كافور أو أجحد فضله !

وكان متزينى بطبيعة الحال لا يستطيع أن يهضم أساليب كافور السياسية ، وكان يعزوها إلى الضعف والخور والجبن ، ويستنكر التحالف مع نابليون الثالث الذى قضى على الجمهورية الرومانية وأحدث الانقلاب المعروف فى تاريخ فرنسا السياسى ، وكان متزينى سيئ الرأى فى نابليون الثالث بوجه خاص وبفرنسا بوجه عام

ولما نشبت حرب القرم فى سنة ١٨٥٤ رأى كافور الاشتراك فيها تحقيقاً لأهدافه السياسية ، وتوثيقاً لعلاقاته مع فرنسا وإنجلترا ، وكانت الفكرة السائدة فى مملكة پيدمونت أن القرم هى الطريق إلى لومبارديا ، ولكن متزينى لم يعجبه ذلك ، ورأى فى هذه الحرب دليلاً جديداً على أن كافور يناصر الطغاة والمستبدين ، وقد انتقد متزينى فى إنجلترا

سياسة بالمرستن التى أدت إلى نشوب هذه الحرب ، وأبدى عجبه من تدخل الحكومة البريطانية فى هذه الحرب للدفاع عن حقوق الأتراك وهى التى تقف جامدة إزاء حقوق پولندة والمجر وإيطاليا ، وقد صب معظم غضبه على حكومة پيدمونت لأنها هبطت بجنودها إلى حضيض الجند المأجورين وزجت بهم فى حرب لا تقوم على مبدأ سام رغبة فى مساعدة نابليون الثالث الذى خان الجمهورية الفرنسية وقتل الجمهورية الرومانية ، واتهم كاڤور فى خطاب مفتوح بالخيانة والمقامرة الدبلوماسية ، وأعلن أنه لا ينتظر الخير لإيطاليا من التورط فى أمثال هذه الدسائس .

وقد عارض متزينى سياسة الاعتماد على فرنسا والاستعانة بنابليون الثالث لأنه كان يعتقد أن نابليون الثالث سيطالب بحق حمايته لإيطاليا ويفرض عليها عرفان جميله ، والحوادث التى أعقبت موقعة ڤيلافرانكا تدل على أن سوء ظن متزينى كان له ما يبرره ، وكان متزينى لا يفتأ يكرر أن اليقين عنصر هام فى التقدير والحسبان وعامل قوى الأثر فى ترجيح الميزان ، ولم يكن ينتظر من رجل له يقين القديسين وطبيعة الأبطال أن يقبل أساليب پيدمونت السياسية ، فهو يراها أساليب مخاتلة وخداع وهوان وصغار يربأ بنفسه عن تأييدها ، والواقع أننا حينما نوازن بين سياسة متزينى وسياسة كاڤور يحسن أن نضع نصب عيوننا أن أهداف متزينى كانت قبل كل شىء أهدافاً أخلاقية روحية ، أما كاڤور والملك عمانويل فكانت أغراضهما سياسية قبل كل شىء ، وكان متزينى يرى أن هذه الأساليب الملتوية تضعف إيطاليا من الوجهة

الأخلاقية المعنوية ، ويأبى أن يجئ الاستقلال عن طريق الوصولية والانهازية .

وقد ضحت پيدمونت فى سبيل استقلال إيطاليا بولايتين من أرضها وهما نيس وسافوى ، وبعض محبى إيطاليا يرون أن الاشتراك فى الدسائس والمؤامرات وعدم اعتماد إيطاليا على نفسها هما سبب الصعاب التى قامت فى سبيلها بعد إتمام وحدتها ، وأن إيطاليا لو اتبعت خطة متزينى واهتدت بهديه فى وثبتها ونهوضها لكان مستقبلها أشرق وأنبل ، وأن استجابتها لأمانيه كانت أقوى ضمان لتجنبها العثرات والمزالق .

وقد تخلى عن متزينى فى هذه الفترة كثير من أنصاره القدامى ، وقد عقد أمله على طبقة العمال ، وصار يرى فيهم المادة الصالحة والأساس المكين ، واستطاع ضم فريق منهم إلى صفوف أنصاره .

وفى أوائل صيف سنة ١٨٥٦ سافر متزينى إلى جنوا سراً لتنفيذ خطة كان قد وضع خطوطها وأخذ نفسه بضرورة العمل على تنفيذها ، وكان ذلك منه مغامرة على جانب كبير من الخطورة ، وقد كان مضطراً إلى قضاء معظم أوقاته فى مخابئ لا يرى منها ضوء السماء ، وكان لا يحفل بذلك ما دام محوطاً برعاية أتباعه من العمال ، وكانوا يبذلون أقصى جهدهم فى المحافظة عليه ويحرسونه نهاراً وليلاً ، وقد رأته فى جنوا الكاتبة المؤرخة جسى هوايت ماريو فكتبت تقول « لقد رأيته هناك بين قومه الذين كانوا يعبدونه عبادة ويخبئونه فى قلوبهم ومنازلهم وينقلونه من منزل أحد العمال إلى منزل عامل آخر وهم فى خلال ذلك ساهرون على

حراسته خشية المفاجأة ، وقد تمكن بذلك من لقاء الذين كان يريد لقاءهم ووضع خططه مع پسكانى لإرسال الحملة إلى ناپولى ، وقد قال متزينى عن هؤلاء العمال « فيهم لَمَمٌ من البطولة الحقة » ، وفى أثناء الاجتماعات السرية التى كان يعقدها خاب أمله فى الطبقة المتوسطة التى بدا له أن أفرادها لا يعملون إلا تحت ضغط التأثير الشخصى ، وكانت تعقد هذه الاجتماعات فى إحدى حجرات منزل مهجور ، وبدأ حينذاك اكتتاباً لاستحضار عشرة الآف بندقية لإعطائها للمقاطعة التى تبدأ التمرد على النمسا ، وهذه البندقيات يشتريها الجنوبيون الذين كان يود متزينى أن يجعلهم حملة راية الحزب الوطنى العامل ورواد فكرة التضامن الإيطالى ، وقد استولت الحكومة الپيدمونتية على القوائم الأولى للاكتتاب ، ولكن متزينى واصل العمل بتأليف لجان وبذل جهداً فى أن يقرب منه أصدقاءه القدامى الذين تركوه وانضموا إلى حزب المعتدلين ، وقوى أمله فى توحيد الصفوف ، ولكنهم انسحبوا فى اللحظة الأخيرة ، ولما وجد أنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً عاد إلى إنجلترا ليفتح اكتتاباً هناك يعينه على جمع المال اللازم لقيام الحركة التى كان يريدها وينفذ الخطة التى رسمها .

وكانت سياسة كافور فى هذه الفترة هدفاً لنقدات متزينى وضد تصوره للاستقامة والحكمة فما معنى إرساله الجنود الإيطاليين للاشتراك فى حرب القرم ؟ أليس ذلك إضاعة للمال والرجال واستنزافاً لموارد دولة أرهقت الناس بالضرائب ؟ وإنه لمظهر مضحك أن تهرع پيدمونت

إلى الدفاع عن غيرها وتبدد قوتها التي هي في حاجة ماسة إليها لتحقيق طموحها ، وبدا للبعض أن ما قد تظفر به إيطاليا من المكانة الدولية لا يعادل هذه الخسائر الفادحة والتضحيات الغالية . ولقد كان كل ما ظفرت به إيطاليا مقعداً في مؤتمر الصلح والتقرب من إمبراطور الفرنسيين نابليون الثالث ! وقد كان نابليون يرمى إلى تعيين لوشيان ميراملكاً لمملكة نابولى، وفى ذلك ضربة قاضية على أمانى الوحدة الإيطالية وأهداف حكومة بيلمونت ، وقد أفهم كافور نابليون الثالث أن مطامع بيلمونت لا تتجاوز حدود الأپناين وكان يهمه أن يعطى نابليون الأدلة المؤيدة لذلك حتى لا يشك فى إخلاصه ولا يستريب بخططه ، وكان يسره أن تقوم ثورة فى مملكة نابولى تسفر عن سقوط الملك فرديناند الذى كان يلقب « بومبا » ولكنه كان يحرص على كتمان ذلك ولذا وافق سراً على إشعال الثورة فى مملكة نابولى كما وافق سراً على الثورة فى مودنا .

وفى ربيع سنة ١٨٥٧ رحل مترينى إلى إيطاليا ، وكانت هناك خطة للثورة فى صقلية ومقاطعات مملكة نابولى قد نظمها ووضع أسسها پسكاى رئيس اللجنة الحربية فى الجمهورية الرومانية القصيرة الأجل ، واشترك معه روسالينو پيلو وهو شاب صقلى من النبلاء كان من ثوار سنة ١٨٤٨ ، وكان هذان الرجلان يخشيان تزايد تدخل نابليون الثالث فى شؤون إيطاليا ، وكان مانين — أحد الثلاثة الذين حكموا الجمهورية الفلورنسية فى سنة ١٨٤٩ — قد وافق على قبول قيادة ملك پيلمونت

للحركة الإيطالية ، وقد حاول أن يكسب متزيني إلى صفه ولكنه لم يوفق فى ذلك ، واشتبكا بعد ذلك فى مناقشات حامية باعدت ما بينهما وزادت مانين اقتراباً من حكومة بيدمونت واقتناعاً بصحة خطتها وصواب أساليبها ، وأسس دانيل مانين الجمعية الوطنية ، وعاونه فى ذلك المركيز بلاڤيتشيني ولافارينا الصقلى ، وكان مانين فى بادئ أمره جمهورياً متطرفاً ، ولكن حوادث السنوات القلائل الأخيرة أقنعته أن السبيل الوحيد للوحدة هو قبول سيادة ملك بيدمونت وبذلك أصبح شعار الجمعية الوطنية التى أسسها هو « الوحدة والاستقلال وڤيكتور عمانويل » ، وكتب مانين إلى الملك « إصنع إيطاليا ونحن معك وإذا لم تفعل فلسنا معك » ، ولم يقبل متزيني الانضمام لهذه الجمعية حينما دعاه إلى ذلك مانين ولكنه تعهد بأن لا يعارض اتحاد إيطاليا تحت سيادة الملك ڤكتور عمانويل ، ولم يكن متزيني الرجل الذى يبدل عقائده ومبادئه من أجل مقتضيات السياسة ومستلزمات النجاح ، فستقبل إيطاليا الباهر متوقف على انتهاجها طرق الخير والاستقامة والإعراض عن أساليب اللف والدوران والنفاق والمساومة ، وقد صارح أتباعه الذين ثبتوا إلى جانبه بقوله « إن عملكم هو بناء مدينة الله والعمل من أجل الإنسانية » ومتزيني البطل القديس كان على الدوام هو الذى يحرك متزيني الزعيم السياسى ، ويملى عليه الخطط ، ويرسم له الطريق ، ويحدد له الأسلوب ، وڤيكتور عمانويل قد يكون هو نفسه وسيلة من وسائل بلوغ الوحدة وتحقيق الاستقلال أما التضحية

بالنظام الجمهوري فهذا ما لم يكن يقره متزيني ، وظل يأباه حتى النهاية محتملاً مسؤولية هذا الإباء وتبعة هذا الإصرار بنفس مطمئنة وضمير خالص .

ولم يقبل كارلو بسكاني الانضمام إلى جمعية مانين الوطنية لعلمه أنها أعلنت اعتماد إيطاليا على إمبراطور الفرنسيين تأييداً لسياسة بيلمونت ، وحرص بسكاني وبيلو على تنفيذ خطتهما فى سرعة وبغير إبطاء ، وصمما على الاتفاق مع متزيني من أجل ذلك ، ووعد كافور سراً بالمساعدة بالمال دفعاً لخطر تعيين لوشيان ميرا على عرش نابولي ، ولكنه على ما يظهر خشى مغبة ذلك فتخلى عن هذه الحركة المزمعة ، واستمر متزيني فى مناصرتها ، وحرض بسكاني وبيلو غاريبالدى على أن يقود الحملة ، وكانا يعتقدان أن قيادة غاريبالدى لهذه الحملة تضمن نجاحها ، ولكن غاريبالدى رفض التعاون معهما رفضاً باتاً ، وكان بسكاني مستعداً للمخاطرة بحياته وكان يقول « حتى إذا مت على المشنقة فإن هذا سيكون انتصاراً ، وليس عندى سوى الحب والحياة لأعطيهما لبلادى وأنا أجود بهما بنفس راضية » ، وأبحر من جنوا فى يونيه سنة ١٨٥٧ ، ونزل بجزيرة بونزا Ponza وأطلق سراح المسجونين السياسيين بها ، وتقديراً لهذا الصنيع انضموا إلى حملته ، ونزل بسكاني فى سابرى Sapri على مقربة من سالرنو ولم يكن مع رجال الحملة ما يكفى من السلاح ، وأذاعت حكومة نابولي أن بسكاني يقود حملة من اللصوص وقطاع الطرق الهاربين من السجون فانضم

المزارعون إلى الجند فى مهاجمة رجال الحملة ، وبعد معركة رهيبة قتل پسكانى ومعظم من معه من الرجال ، وهرب الباقون إلى الجبال وقبض على البعض وألقوا فى غيابات السجون وهكذا أخفقت هذه الحملة ، أما المتآمرون فى چنوا فقد وضعوا خطة للاستيلاء على مستودعات الذخيرة والحصول على الأسلحة اللازمة لحملة پسكانى ، ولكن كشفت المؤامرة ، وعوقب المتآمرون عقاباً صارماً ، فحبس بعضهم ، وحكم على متزينى وخمسة آخرين بعقوبة الإعدام ، ووصفت الحركة بأنها حركة « فوضوية » تشويهاً لها ، واختبأ متزينى فى منزل المركيز أرنستو پارتو ، وقد فتش رجال الشرطة المنزل ثلاث مرات ، وفى إحدى هذه المرات فتح متزينى الباب لضابط الشرطة وكان زميلاً لمتزينى فى أيام الدراسة فتجاهله ، وفى مرة أخرى خرج متزينى من المنزل غير متخف وقد خاصر إحدى السيدات الجنويات وطلب إلى الحارس أن يشعل له لفافة التبغ وسار فى طريقه إلى كوارتو Quarto وبقى هناك حتى وافته أنباء كارثة پسكانى ، وحملت جرائد المعتدلين على متزينى حملة شعواء وأوسعته هجواً واتهمته بأفظع التهم ، ألم يحاول نسف المدينة ؟ ألم يدبر خطة لإطلاق المسجونين ؟ ألم يأمر بالنهب والسلب ؟ لقد رموه بكل أكذوبة وأضلولة ، ولم يتورعوا فى النهاية عن رميه بالجبن والفرار من الميدان كأنه كان لزاماً عليه أن يثبت لهم وجوده ويسلم لهم نفسه ليقتلوه حتى لا يوصف بالجبن ولا يلام على الفرار ؟

واحتمل متزينى صابراً هذه الحملة الشديدة، وكان من رأى متزينى

أن إشعال الثورات من الحين إلى الحين أمر لابد منه ما دامت هذه الثورات ترمى إلى تحقيق الوحدة الإيطالية ، وقد قضى ثلاثة أشهر وهو يعانى المطاردة الشديدة والبحث عنه الدائب الدقيق ، وكانت لياليه ساهرة ساهدة وأيامه ملأى بالأعمال والهموم ، وأثر فى صحته طول الاحتجاب والتوارى عن أنظار الشرطة وأعين الجواسيس ، وصمم على أن يبذل أقصى جهده فى إنقاذ حياة أعوانه ، والتمس كافور باسم حكومة پيدمونت من إمبراطور الفرنسيين أن يرسل ڤيدوك Vidocq الذى كان يقال عنه إنه يستطيع إخراج الثعلب من وكره ، وقال كافور « إذا ألقينا القبض على متزينى فإننى آمل أن أشنقه » وعين المكان المنتظر لشنقه ، وكان رد متزينى على ذلك هو أن يتحدى كافور ويظل فى چنوا يعاون إخوانه على الإفلات من قبضة حكومة پيدمونت ، واجترأ على زيارة تورين .

وظل متزينى فى إيطاليا إلى الشهر أغسطس ووجد أنه قد عمل ما يستطيع عمله لإيطاليا فى تلك الظروف العصيبة وعاد إلى لندن حيث كان أصدقاؤه يتنسمون أخباره ويودون رؤيته ويحرصون على عودته .

الفصل العاشر

حادث أورسيني — اتفاق بلومبيير — كتاب متزيني إلى كافور — نشوب الحرب بين مملكة بيدمونت والنمسا — صلح ڤيلا فرنكا — ثورة صقلية — ضم مملكة نابولى لبيدمونت

فى خريف سنة ١٨٥٧ وصل متزينى لندن متعباً منهوك القوى قد بدت عليه مظاهر الشيخوخة لما عاناه من الأحزان والهموم والشدائد فى الأشهر الأخيرة ، وقد زاد فى حزنه وأوقد لوعته مصرع پسكانى وصحابته ، وآلم نفسه تراخى المعتدلين وتقاعدهم عن مناصرته ، وبادر بعد عودته إلى كتابة رسالة يدافع فيها عن ثورة جنوا ويوضح الأحوال التى كانت تستفز شعور الإيطاليين وتدفعهم دفعاً إلى الثورة ، وأشار إلى ما تعزوه إليه حكومة بيدمونت من التأثير السيئ قائلاً « كيف يتسنى له هذا التأثير وهو منفى وقد أشابت شعر رأسه السنون والهموم وإنه لا يملك الوسائل الكافية لذلك وقد قاومته جميع الحكومات وترصدته جواسيس أوربا ، والحالة التى تعانيها إيطاليا تستلزم العمل ، ولأنه يفهم ذلك ويدركه فإنه قد استحث إيطاليا عليه ورجا فيها الحكومة أن تنهض وتعمل ليكون عملها خيراً من عمله وأبلغ تأثيراً ، وهى بذلك تقضى على هذا التأثير السيئ الذى تنعاه عليه » ، وكان رد حكومة

بيدمونت على هذه الرسالة أن أصدرت حكماً جديداً بإعدام كاتبها ، وأعلن كاڤور أن الحكومة الملكية تقوم على المعاهدات التى تحترمها (ويلاحظ أن هذه المعاهدات كانت تضمن وضع الولايات الإيطالية جميعها ما عدا بيدمونت تحت سيطرة أمراء أجانب) وأن إيطاليا المستقلة الموحدة حلم خيالى ، وبعد هذا التصريح بوقت قصير كان لافارينا سكرتير الجمعية القومية يزحف إلى مخدع كاڤور فى هدأة الهزيع الثانى من الليل ليبحث معه الخطط الكفيلة بتحقيق الأهداف التى كان ينكرها فى ضوء النهار ولا يرى بأساً فى التخلى عنها جهاراً ومعاقبة المشتركين فيها إذا لم تنجح الخطط أو إذا شاعت ذلك نزوات نابليون الثالث

وفى سنة ١٨٥٨ حاول أورسينى الاعتداء على حياة نابليون الثالث وذلك بأن ألقى قنبلة وهو فى عربته مع الإمبراطورة يوچينى وكانا ذاهبين إلى دار الأوبرا فى باريس ، وشاء القدر أن لا يمس الإمبراطور بسوء ، وقد جرحت القنبلة الكثيرين من الواقفين على جانب الطريق ، وطلب الإمبراطور وهو فى ثورة غضبه من هذا الاعتداء إلى الحكومة الإيطالية والحكومة الإنجليزية أن يتخذا الإجراءات المناسبة لحماية شخصه من اللاجئين والثائرين ، وهزت هذه الجريمة أركان أوربا ، وكانت فرصة لا يمكن التخلى عن اغتنامها للحملة على متزينى وتشويه سمعته ، وقد علم متزينى بالحادثة من الجرائد ومع ذلك اتهم بأنه هو الذى حرض أورسينى على ارتكابها ، وقد قيل إن خصوم متزينى

كانوا يحرصون على إشاعة الشكوك حول أخلاقه ، وإذاعة أخبار السوء عنه أكثر من حرصهم على قتله ، لأن قتله فى تقديرهم لم يكن كافياً فى القضاء على تأثيره الأدبى ، أما النيل من شخصه والصاق التهم الوضيعة به والزعم باشتراكه فى الجرائم الفظيعة أو التحريض عليها فإنه يقضى على سمعته ويضعف الثقة به ، ولذا كانوا لا ينفكون يصمونه بالإجرام السياسى والعنف الفوضوى والطموح الشخصى والحزبية العمياء ، ويكثرون من ترديد هذه التهم لتثبت فى الأفهام ، وتؤثر فى النفوس ، وكانت الحكومات المعادية له تعهد إلى بعض رجال من صنائعها فى القيام بتلفيق أمثال هذه التهم وتسريج أشباه تلك الأكاذيب ، وكانت معيشة أمثال هؤلاء الناس متوقفة على نجاحهم فى ذلك ، ولذا كانوا يغتنمون كل فرصة ويستغلون كل مُناسبة للافتنان فى فى التحامل عليه وتنقصه والنيل منه والزج باسمه فى كل مؤامرة تكشف أو جريمة ترتكب ، ولم يتورعوا فى محاربته عن تزوير الوثائق ، وتزييف الرسائل ، ومما ساعدهم على ذلك أن خط متزينى كان يسهل محاكاته ، وفى السنة التى حاول فيها أورسينى الاعتداء على نابليون الثالث لفقت قصة مؤامرة جمهورية للاعتداء على ڤكتور عمانويل وبطبيعة الحال زعم كافور أن متزينى هو مصدرها !

وقد حكم على أورسينى بالإعدام ، ولكنه قبل تنفيذ الحكم أرسل كتاباً مؤثراً إلى نابليون الثالث يقول فيه « ما دامت إيطاليا غير حرة فلن يكون سلام فى ربوع أوربا ، ولا أمن لجلالتكم ، إنقذ إيطاليا

تتبعك بركات خمسة وعشرون مليوناً من الإيطاليين » وقد أثرت هذه الرسالة فى نفس نابليون الثالث . وأراد أن يثير العطف على إيطاليا فأنفذ هذه الرسالة إلى كافور لينشرها فى الجرائد .

وفى يوليو من تلك السنة — سنة ١٨٥٨ — سعى كافور سراً إلى الإمبراطور نابليون الثالث فى پلومبيير حيث كان يستشفى بمياهها ، وخلا هناك بالإمبراطور ، وتم الاتفاق بينهما على أن تساعد فرنسا مملكة پيدمونت فى محاربتها النمسا لاسترداد لومبارديا وڤينتيا وتحرير رومانى من سلطة البابا ، وطلب نابليون الثالث لقاء ذلك أن تعطى له مقاطعة ساڤوى ونيس وأن تتزوج الأميرة كلوتيلد الأمير نابليون ابن چيروم بونابرت عم الإمبراطور ، وتعاهدا على أن يظل هذا الاتفاق فى طى الكتمان ، وكان هذان الشرطان قاسيين على الملك ڤيكتور عمانويل ، فالأمير نابليون كان فى سن والد الأميرة الحسناء التى لم تكن سنها تتجاوز السادسة عشرة ، ومثل هذا الزواج لا يكون سعيداً ، ولكن لما عرض الأمر على الأميرة قالت « ما دام هذا الزواج نافعاً لإيطاليا فإنى موافقة عليه » وكان اقتطاع جزء من إيطاليا كذلك شديد الوقع فى نفسه ، وبخاصة لأن ساڤوى كانت منبت الأسرة ، ولكن بعد أن وافقت الأميرة على الزواج من الأمير نابليون قال الملك « ما دامت الطفلة قد ذهبت فليذهب معها المهد » ، وكتم نابليون الثالث خبر هذا الاتفاق عن وزرائه ، وكان الإمبراطور يريد من وراء زواج الأمير نابليون بابنة ملك پيدمونت إقامة هذا الأمير ملكاً على عرش

تاسكانى وأن يترك مملكة نابولى لفرديناند الثانى الذى اشتهر باسم « بومبا » حتى تحين الفرصة لإقامة ميرا ملكاً عليها مكانه ، وبذلك تصبح إيطاليا واقعة تحت نفوذه وموالية له .

وعرف متزينى موضوع اتفاق پلومبيير ، وأنكر كاڤور تنازله عن نيس وساڤوى ثمناً للمساعدة الفرنسية حتى ظهر ذلك فى جريدة المونيتير الفرنسية .

وكانت العلاقات بينه وبين كاڤور قد ازدادت سوءاً قبل ذلك ، وذلك أنه فى عقب وقوع اعتداء أورسينى وقف كاڤور فى مجلس نواب تورين وقال « إن محاولة متزينى الاعتداء الثانية ستكون موجهة للملك ڤيكتور عمانويل» ، فرد متزينى على هذا الهجوم الشديد والاتهام الظالم برسالة موجهة إلى كاڤور يقول فيها « سيدى — لقد عرفتك طويلاً سنداً لمملكة پيدمونت لا لوطننا عامة ، وعهدتك مادى النزعة تدين بعبادة الواقع لا عبادة المبدأ الخالد المقدس ، ورأيتك رجلاً يمتاز بالحذق والبراعة لا بقوة العقل ، ويلجأ إلى الأساليب الملتوية ويكره الحرية بدافع الكبرياء الأرستقراطية والميل الغريزى ، ولكنى لم أكن أظنك ممن يفترون الزور ويختلقون الأباطيل ، ولقد أصبحت من هذا الطراز ، ولذلك فإننى إن كنت لم أحبك من قبل فإننى الآن أحتقرك ، ولقد كنت قبل ذلك عدواً لى ، ولكنك الآن أصبحت عدواً وضيعاً غير كريم .... ، وبيننا وبينك هاوية ، فنحن نريد الوحدة القومية قبل كل شىء ، أما أنت فإنك لا تريد

شيئاً سوى توسيع ملك سيدك . . . . ونحن نؤمن بقدرة الشعب الإيطالى وأنت تخشاها وتقيم العقبات فى سبيلها وتعلق آمالك على الدبلوماسية وعطف الحكومات الأجنبية ، ونحن نريد أن تختار البلاد فى حرية نوع الحكم الذى تريده ، وأنتم تنكرون سلطة الأمة وتجعلون الملكية الشرط الغالب لأى مساعدة تقدمونها للقضية القومية ، ونحن نلتمس العون من الشعوب التى تتفق معنا فى الغرض العام وفى الشقاء والكفاح ، وأنتم تسألون العون الطغاة هؤلاء الذين تعمدوا مقاومة وحدتنا ، ونحن نقدس اليقين والمبدأ ، وأنتم تنحنون للقوة ، وتركعون للاستبداد ، وستحكم يا سيدى إيطاليا بيننا وبينكم » وكان رد كاڤور على هذه الرسالة إيقاف صدور جريدة « إيتاليا دلپوپولو » التى أذاعت رسالة مترينى ، وصادرت بعد ذلك بأشهر حكومة پيدمونت الأملاك القليلة التى خلفتها والدة مترينى ، وكان الرجل المنفى يستعين بريعها السنوى — حسب وصية والدته — على كفاحه فى سبيل الحياة والمبدأ ، ومهما يكن من الأمر فإن مترينى لم يكن الرجل الذى تجدى فى محاربته أمثال هذه الأساليب البعيدة عن السماحة والنبل .

وقد وجد مترينى فى اتفاق پلومبيير ثلمة جديدة لمهاجمة كاڤور والتنديد بسياسة پيدمونت ، والواقع أن كاڤور كان يخشى على الدوام تزايد تأثير مترينى ، وكان فى رأس برنامجه مقاومة تأثير مترينى ، ولكنه كان يعلم علما ليس بالظن أن سياسة الجمود والتراخى والتقاعد هى خير كفيل باستفحال نفوذ مترينى وتمادى تأثيره الخطير ، وأنه لا سبيل

لإبطال هذا التأثير إلا بانتهاج سياسة إيطالية قوية تفند اتهام مترينى لحكومة بيدمونت بتضييع حقوق إيطاليا والتوانى فى طلب الاستقلال والوحدة ، وكان ذلك أقوى دافع لكافور على الاجتماع السرى بإمبراطور الفرنسيين لتدبير حرب الاستقلال الإيطالى ، ونرى من ذلك أن مترينى كان فى الواقع القوة المحركة خلف السياسة الإيطالية ، وأن الرجل كان أعرف برسالته من هؤلاء الذين كانوا ينصحونه بالابتعاد عن ميدان السياسة والتخلى عن القضية الإيطالية والتفرغ للكتابة الأدبية والبحوث الفلسفية !

وكان اتفاق بلومبيير ضرباً من ضروب السياسة الواقعية النفعية ، ويقول تاير Thayer مترجم حياة كافور « لقد فهم كافور الشروط اللازمة لإنقاذ إيطاليا ، أما مترينى فإنه لم يفهم ذلك ، وقد كان هذا هو الهاوية الفاغرة بينهما » وبدون مناقشة هذا الحكم أقول إن هاوية أخرى كانت هنالك لا تقل اتساعاً عن هذه الهاوية ، وهذه الهاوية هى هاوية الخلاف القائم بين تصورهما لهذا الخلاص ، فاتفاق بلومبيير جرد إيطاليا من نيس وساقوى ،وإذا نظرنا فى شروطه الباقية وجدناه يقسم إيطاليا إلى أربع حكومات فدرائية ليست متماسكة تماسكاً قوياً ، وثلاث من هذه الحكومات كانت حكومات استبدادية مطلقة تحت سيطرة الإمبراطور ممثل الحكم المطلق فى أوربا ونفوذ البابا ، وبطبيعة الحال لم يكن فى نية كافور الاستجابة لهذه الشروط جميعها وإنما كان كان يقامر ويغامر معتمداً على أعاصير الزمن وقذفات المصادفات ،

والظاهر أن السياسيين المغامرين كثيراً ما يصبحون فى السياسة مغامرين جريئين .

وكانت صحة متزينى فى هذه الفترة قد بدأت تسوء ويثقل عليه حمل السنين والحرمان الطويل والجهاد الشاق والكفاح المتصل ونقص الحرارة فى شتاء لندن القاسى بالمساكن الرخيصة التى كان لا يجد معدى عن الإقامة فيها ، ولم يكن متزينى فى الأصل قوى البنية سليم البدن وإنما كان منـــذ طفولته رقيق الجسم ضعيف البنية ، وصارت تنتابه من الحين إلى الحين آلام شديدة فى معدته وفى السلسلة الفقرية ، وكان يظل من جراء هذه الآلام طريح الفراش ، وكان أصدقاؤه العاطفون عليه والمعجبون به يلحون فى دعوته إلى الإقامة معهم ليكون فى رعايتهم ، ولكنه كان يؤثر الاستقلال ، ويأبى فى شيخوخته كما أبى فى عنفوان شبابه أن يثقل على أحد .

وقبل أن ينكشف سر اتفاق پلومبيير كان بعض الإيطاليين يشكّون فيما يقوله متزينى عن نابليون الثالث وينتقدون موقفه منه وينكرون عليه سوء ظنه به ، وقد أخذ الندم يساور الإمبراطور لأنه وعد الإيطاليين بالوقوف إلى جانبهم فى محاربتهم للنمسا ، وكان كافور قد بدأ يتأهب لخوض غمار الحرب وكان موقفه حرجاً ؛ فقد كان عليه أن يتجنب أى عمل يعد تحدياً للنمسا ، لأن الإمبراطور وعد بأنه لا يقدم لپيدمونت المساعدة إلا إذا كانت النمسا هى البادئة بالعدوان ، وأصر على أن يترك له تقدير الظروف المناسبة لإعلان الحرب .

وفى سنة ١٨٥٩ تم زواج الأمير نابليون بالأميرة كلوتيلد ، وعرفت النمسا أن هناك اتفاقاً بين پيدمونت وفرنسا قد ينطوى على أخطار تهددها ، فأخذت تستعد للحرب وتحشد الجنود على حدود پيدمونت ، واستدعى كاڤور الجنود الاحتياطيين رداً على ذلك ، وخشيت روسيا وإنجلترا نشوب حرب أوربية فاقترحتا عقد مؤتمر ، ووافقت النمسا على ذلك، ولكنها اشترطت أن لا يسمح لممثلى پيدمونت بحضور هذا المؤتمر ، وأن يسرح الجيش الپيدمونتى ، وكان موضوع المؤتمر بحث المشكلة الإيطالية ، فإقصاء پيدمونت عن حضور المؤتمر يعد إهانة صارخة ، وطلب تسريح جيشها يتركها فريسة سهلة للنمسا عدوتها ، وساء كاڤور أن يعلم ميل الإمبراطور إلى الموافقة على هذين الشرطين ، فأرسل احتجاجاً شديد اللهجة إلى الإمبراطور ، وذكر فيه أن فرنسا إذا سمحت بمعاملة حليفتها هذه المعاملة المهينة فإن الملك ڤكتور عمانويل سيتنازل عن عرشه ويرحل مع كاڤور إلى أمريكا ويذيعان هناك الرسائل المتبادلة بينهما وبين إمبراطور الفرنسيين ، فاستدعى الإمبراطور كاڤور إلى باريس ، وعمل على أن يطمئنه دون أن يقيد نفسه بعمل حاسم ، وعاد كاڤور إلى تورين وقد اطمأن خاطره ووثق من اقتراب إعلان الحرب ، وقامت الحكومة البريطانية بمحاولة أخرى للمحافظة على السلام ، واقترحت أن توافق النمسا وپيدمونت على نزع السلاح قبل عقد المؤتمر ، وفى ١٨ إبريل سنة سنة ١٨٥٩ أرسل نابليون الثالث رسالة حاسمة يدعو فيها كاڤور إلى

قبول هذا الشرط ، فكبر الأمر على كافور واستولى عليه اليأس ، ورأى أن الإمبراطور قد تخلى عنه ولم يجد أمامه سوى الاستسلام للأمر الواقع والإذعان لطلب الإمبراطور ، وقال فى هذا الموقف « لم يبق لى إلا أن أطلق رصاصة على رأسى » وفى صباح اليوم التالى سلّم إلى السفير الفرنسى رده على طلب الإمبراطور وفيه يقول « ما دامت فرنسا قد انضمت إلى إنجلترا فى طلب تجريد پيدمونت من السلاح فإن حكومة الملك تعلن موافقتها على هذا الطلب فى الوقت الذى تدرك فيه نتائجه الشديدة الخطر على إيطاليا » .

وهكذا اضطر كافور إلى أن ينزل على حكم الضرورة القاسية التى حطمت آماله وقضت على العمل الذى أوقف عليه حياته ، وغاض بشره وخذله اعتماده على نفسه ، وحبس نفسه فى حجرته وقد تملكته فكرة الانتحار ، وقضى يومه مكروباً محزوناً ، وأخاف مسلكه هذا صديقه كاستلى فاقتحم عليه حجرته فى المساء وتوسل إليه باكياً أن لا يرتكب جريمة ترك بلاده فى أشد أوقات محنتها ، وكان كافور ثائر النفس مهتاج الخاطر ، فما زال به صديقه يقنعه ويهدئ من ثائرته حتى اقتنع واستصوب رأيه وقال له « إنك على حق فلتهدأ نفوسنا ولنستعد للقاء ما تجىء به الأيام » وبقى أمل كافور معلقاً على شىء واحد ، وهو أن ترفض النمسا نزع السلاح ، وبذلك تظهر النمسا فى مظهر المتعنت الذى يبغى السوء ، ويتعمد الإحراج ، ويحرص على إشعال نيران الحرب ، وكان الحزب العسكرى فى ڤينا قد أصبح المسيطر

على الأمور ، وسياسة نابليون الثالث المحجمة المترددة جعلت ساسة
ڤينا يعتقدون أنه لم يرتبط بميثاق لمساعدة پيدمونت ، وأقنعوا الإمبراطور
فرنسيس چوزيف بأن الوقت قد حان للقضاء على مطامع ڤكتور
عمانويل ، ورفضت النمسا اقتراح بريطانيا ، ولم تكن تعلم أن پيدمونت
قد قبلت الاقتراح ، وبعد رفضها بيومين أرسلت إنذاراً نهائياً إلى حكومة
پيدمونت تطلب فيه إليها أن تنزع سلاحها وتهددها بالحرب إن لم
تفعل ، وتحدد للرد ثلاثة أيام ، وقد سر ذلك كاڤور وشرح صدره
واستنقذه من نوبة اليأس التي استولت عليه ، وفي آخر الوقت المحدد
للرد سلم كاڤور لمندوب النمسا رد حكومة پيدمونت على طلبها ومضمونه
« إن حكومة پيدمونت التي قبلت مبدأ عدم التسليح العام كما اقترحته
الروسيا وفرنسا وإنجلترا ليس عندها تفسير آخر لتقدمه» وعرف كاڤور
أن النمسا قد فقدت بطلبها المتعنت الصارم عطف أوروبا ، وأن
الإمبراطور نابليون الثالث لا يستطيع أن يضن على پيدمونت بالمساعدة
في هذه الظروف ، واستعد كاڤور للحرب ، وأعلنت النمسا الحرب على
پيدمونت يوم ٢٧ إبريل سنة ١٨٥٩ وأعلن لويس نابليون الحرب
يوم ٢٩ إبريل ،وأعجب مترنيخ بتدبير كاڤور وقاله عنه « إنه ضربة معلم » .

وكان نابليون الثالث قد اشترط أن لا يشترك في الحرب سوى
الجنود النظاميين ، ولكن حكومة پيدمونت لم تستطع إيقاف تيار
المتطوعين الذين أقبلوا من جميع أنحاء إيطاليا حينما تناثرت الإشاعات
عن الصدام المنتظر وقبل أن تعلن الحرب ، وكانت حكومة پيدمونت

قد استدعت غاريبالدى قبل نشوب الحرب وأسر إليه كافور أنه قد رسم خطة لإرغام النمسا على إعلان الحرب على پيدمونت فى مدى أشهر ، وطلب إليه أن يجمع فرق المتطوعين كما صنع فى حرب سنة ١٨٤٨ ، وترك لغاريبالدى حرية اختيار ضباطه وأن يتولى بنفسه قيادة فرقه ، واتفق على أن يعمل مع الجيش النظامى مستقلاً ، وجمع غاريبالدى حوله رجاله القدامى ، وكان من بينهم مساعدوه المشهود لهم بالجرأة والإقدام وهم مدتشى وبكسيو وكوسنزى ، وكون غاريبالدى ثلاث فرق ، ولما نشبت الحرب وانتصرت الجيوش النظامية الفرنسية والإيطالية فى وقعات هامة كان غاريبالدى مشغولاً بتطهير البلاد من الأعداء ، وكان يفاجىء العدو بهجماته الخاطفة ثم يفلت برجاله من بين يديه بحركاته السريعة .

وانتصرت الجيوش الفرنسية والإيطالية فى موقعة ماچنتا ، وقد فتح هذا الانتصار الطريق إلى ميلان ، وانسحب منها الحرس النمساوى ، وخرج أهل المدينة لاستقبال الملك فيكتور عمانويل وأعطوه مفاتيح المدينة ، وفى اليوم نفسه أعلن ملك پيدمونت ضم لومبارديا إلى مملكته ودخل المدينة جنباً إلى جنب مع إمبراطور الفرنسيين فى احتفال عظيم وقد بلغ السرور والابتهاج بسكان المدينة أقصى الدرجات ، وكانوا لا ينقطعون عن الرقص والغناء والهتاف ليلاً ونهاراً .

وبعد معركة ماچنتا أمــــر غاريبالدى بأن يعمل بالاتفاق مع الجيش الپيدمونتى ووعد بمدد من الجيوش النظامية ، وكان غاريبالدى يرمى إلى أن يشق طريقه إلى ڤينسيا بعد أن تم تحرير لومبارديا

وتطهيرها من النمساويين ، وكانت الخطوة الثانية تطهير ڤنتيا منهم ، ولكن بينما كان غاريبالدى يتأهب لذلك صدر إليه أمر بأن يوجه رجاله فى الطريق المعاكس لذلك ، وكان هذا الأمر مخيباً لآماله ، لأنه كان يجعله مع فرقه الباسلة فى ساقة الجيش ، وقد فطن غاريبالدى للباعث الحقيقى على ذلك ، وهو حسد ضباط الجيش النظامى له وكراهة الإمبراطور للفرق المتطوعة ، ولكن غاريبالدى باعتباره جندياً أطاع الأمر ، وبينما كان يتقدم شمالاً نحو جبال الألب بلغته أنباء معركة سلفرينو وسهل الاستيلاء على ڤينسيا ، وطردت مقاطعة تسكانيا دوقها ، وهرب حاكما مقاطعة پارما ومودينا ومعهما حرسهما النمساوى وأعلنت المقاطعات الثلاث انضمامها للملك پيدمونت ، وغادر الحرس النمساوى بولونيا عاصمة رومانى وقامت ثورة على حكم البابا فى أومبريا ومارشز Marches بما فيها أنكونا وپيروجيا وبدا أن استقلال إيطاليا أصبح ميسوراً محققاً .

وفى تلك الآونة كانت إيطاليا تشتعل حماسة وتهتز سروراً وطرباً واستبشاراً ، فقيود الاستعباد الطويل المدى قد أخذت تتحطم ومعاقل الرجعية قد شرعت تتداعى وتنهار ، وفجر الحرية قد ظهرت طلائعه وبزغت أنواره وأهلت بوادره ، وفى هذا الابتهاج الشامل والاطمئنان العام أصابت الإيطاليين من حيث لا يتوقعون الطعنة التى كان ينتظرها مترينى ويحذر قومه منها ، ففى اليوم السادس من شهر يونيه بينما كانت الجيوش الإيطاليـــة تستعد لمحاصرة بسكييره سرت إشاعات

غامضة مريبة فى صفوف الإيطاليين ، فقد غادر الجنرال فلرى الفرنسى المعسكر الفرنسى إلى ڤيرونا مقر الإمبراطور فرنسيس چوزيف برسالة لا يعرف مضمونها ، وفى اليوم نفسه نزل على الإيطاليين نزول الصاعقة نبأ أن الإمبراطور نابليون الثالث قد عقد هدنة مع النمساويين دون علم ملك پيدمونت أو موافقته ، وعرف الإيطاليون أن القتال قد توقف ، وأن ثمرات انتصاراتهم الباهرة ستفقد وتذهب أدراج الرياح ، فاستولى عليهم اليأس المرير ، واعتصر قلوبهم الألم المبرح ، واستشعر الفرنسيون الخجل والخزى لهذا الغدر المفاجئ والانقلاب المباغت حتى لقد اجترأ المارشال ڤيان Vaillant على أن يقول لسيده الإمبراطور .

« سيدى ، إن الهدنة معناها السلم » .

فأجابه الإمبراطور « هذا لا يعنيك ! »

«لقد وعدت ياسيدى بأن تحرر إيطاليا من الألب إلى الأدرياتيكى» .

« أكرر لك أيها المارشال قولى إن هذا لا يعنيك » .

ومست هذه الطعنة كبرياء ڤكتور عمانويل مساً شديداً ، وبلغت منه مبلغاً ، فقد قضت على آماله ، وهدمت مابنى ، ونقضت ما أبرم ، فاحتج احتجاجاً شديداً عل ما فعله الإمبراطور ، وأعلن عزمه على مواصلة الحرب ، فجاوبه الإمبراطور على ذلك بقوله « كما تريد يا سيدى ، ولكن ليكن فى علم جلالتكم أنكم ستجدون لكم عدوين بدلاً من عدو واحد » ، وقد دل التفكير الهادئ ملك پيدمونت

على أنه لا يطيق تحول حليفه إلى عدو .

واجتمع إمبراطور فرنسا بإمبراطور النمسا بمنزل فى ڤلافرانكا ، وبعد محادثة استغرقت ساعة من الزمان اتفقا على شروط الصلح ، ومنها أن لومبارديا التى فقدتها النمسا تضم إلى پيدمونت ، ولكن تسكانيا وپارما ومودنا تعاد إلى حكامها المطرودين ويكون منها اتحاد فدرالى تحت سلطة البابا ، ويطلب من البابا أن يقوم ببعض الإصلاحات فى حكومته ، ولكن ترد إليه رومانى التى ثارت على سوء حكمه ، وتظل ڤنتيا تحت سيطرة النمسا ، وهذا الشرط الأخير يخالف ما اتفق عليه نابليون الثالث مع كاڤور ، فقد وعده بضم لومبارديا وڤينتيا لپيدمونت ، ولما علم ملك إيطاليا من نابليون الثالث بهذه الشروط أجابه « مهما كان حكم جلالتكم الفاصل فإننى سأشعر بعرفان الجميل الأبدى لما عملتموه من أجل استقلال إيطاليا » وكان كاڤور متغيباً فى تورين فلما بلغته أنباء الهدنة أسرع إلى لقاء الملك فى معسكره ، وعلم منه أن شروط الصلح قد سويت ، فشعر كاڤور بأنه قد خُدع واستثار الغضب هذا الرجل الركين الرصين الذى اشتهر بدماثة الأخلاق وهدوء الطبع حتى أخرجه عن طوره وأدهش سلوكه كل من حوله وأخافهم ، وقد خرج من حضرة الملك وقد احمر وجهه وتطاير الشرر من عينيه لأن المقابلة كانت عاصفة ثائرة ، فقد طلب من الملك أن يتحدى الإمبراطور وأن يسحب جيشه من المدن وأن يرفض ضم لومبارديا ، ولما رفض الملك هذه النصيحة تبادلا ألفاظ الغضب والحنق ، وقال كاڤور للملك « أنا

الملك الحقيقى ! أنا الذى يعترف بى الشعب قبل كل شىء » فقال له الملك : أنت الملك؟ إنك خبّ صغير » وقدم كاڤور استقالته ، وكبر على الملك ڤكتور عمانويل أن يقبل إهانة توجه إلى كرامته وتمس مقامه فلم يرتض الصفح عن خادمه الأمين الذى عاد إلى داره حزيناً موجع القلب مكتئب النفس .

ولم يكشف نابليون الثالث عن حقيقة البواعث التى حملته على أن يبادر إلى طلب الهدنة ، والأرجح أن المعارك الدامية التى حضرها بنفسه وشاهد ما فيها من الخسائر الفادحة فى الأرواح أثرت فى أعصابه وهزت نفسه ، وقد انسحب الجيش النمساوى إلى المربع المعروف الذى به حصون پسكييره ومانتوا وليناجو وڤيشنزا ، وكان لهم فى هذا المربع المحمى بالحصون الأربعة مدد لا ينفد من الذخائر والعتاد والرجال ، على حين أن الجيش الفرنسى كان بعيداً عن قواعده لا يتلقى إلا القليل من المدد لملء الثغرات التى تحدث فى صفوفه ، وفضلاً عن ذلك فقد أخافه تلهب الشعور القومى فى إيطاليا ، وقد قبل أن يوافق على وجود مملكة فى شمال إيطاليا تحت سلطة ڤكتور عمانويل ، ولكنه لم يكن يرغب فى وجود دولة قوية تشمل إيطاليا الموحدة جميعها ، والوحدة الإيطالية معناها أن يفقد البابا ممتلكاته وولاياته ، ولا يمكن أن يوافق الإمبراطور على ذلك ، لأنه يفقده عطف الحزب الكاثوليكى ، وهو حزب قوى فى فرنسا ، وكان الإمبراطور يعتمد إلى حد كبير على تأييد هذا الحزب ، وقد وعد قبل الشروع فى الحرب بالمحافظة على سلطة

البابا الزمنية ، وأكثر من ذلك أنه كان يعلم أن ملك بروسيا قد أخذ يحشد جيوشه ، وكانت بروسيا تطمع من زمن فى الاستيلاء على مقاطعتى الألزاس واللاورين ، وخاف الإمبراطور أن تهاجمه بروسيا من ناحية الراين وهو مشغول بمحاربة النمسا .

وقد أضاع الإمبراطور بعمله هذا ما قدمه من جميل لإيطاليا ، وجعل أوربا جميعها فى عجب من موقفه وفى حيرة من أمره ، وحقق ظنون متزينى السيئة به ، وقد قال متزينى لأصدقائه وأتباعه عند نشوب الحرب « إن ڤينسيا لن تظفر بحريتها وسيعقد الصلح عند ضفاف نهر منشيو » وقذف نابليون الثالث بقوله « هناك شىء أسمى من النجاح وأقوى من الأمر الواقع وأعلى من عبادة الأوثان ، وهذا الشىء هو الله والحق والزمن » وكأنه كان يستشف الغيب بصفاء تفكيره وطهارة نفسه ونزاهة غرضه حينما وجه إلى كاڤور هذه الكلمة « ستكون بالمعسكر فى ركن من أركان لومبارديا حينما يعقد الصلح الذى يهمل فيه أمر ڤينيسيا بدون أن تعلم » ولم يكن متزينى ممن يتكهنون بالغيب ، وإنما كان يحسن قراءة الحوادث ، ويجيد فهم التيارات السياسية ، وبرغم بساطته وصراحته كان يستطيع أن يصل ببصيرته إلى أغوار النفوس ومستودع الأسرار ، وغضبة كاڤور الوطنية القوية ترينا وطنية الوطنى المخلص الكامنة وراء الوزير السياسى الذى كان يخدم الملك ، وقد علمت الحوادث كاڤور صواب رأى منافسه العظيم وخصمه الكبير فى سوء الظن بالأمراء ورميهم بالجبن والإحجام وإيثار العاجلة على الآجلة ،

وأصبح كافور يؤمن بضرورة اعتماد إيطاليا على نفسها ، واستجاشة شعورها القومى ، وتحريك نخوتها الوطنية ، أى أن الحوادث دفعته دفعاً إلى طريق متزينى الذى كان يندد بآرائه ويود لو ظفر به لتقر عينه برؤيته معلقاً فى حبل المشنقة .

والرجل الذى أثبتت الحوادث أصالة آرائه وثاقب نظراته كان حينذاك يسرع فى العودة إلى إيطاليا ، وقد ذهب إلى فلورانسا متنكراً لأن العفو العام الذى شمل الجميع فى إبان الحرب استثنى منه فرد واحد وهذا الفرد الواحد هو متزينى .

وكانت تسكانى حينما نشبت الحرب قد أظهرت عطفها على الحزب القومى وطلب أهلها إلى الدوق حاكمها أن يعتزل الحكم ، وأبدوا رغبتهم فى الانضمام إلى بيدمونت ، وتولى زعامتهم رجل صارم العزم قوى الشكيمة صادق الوطنية وهو البارون بتينو ريكاسولى ، وطلبت كذلك مقاطعات پارما ومودنا ورومانى الانضمام إلى بيدمونت ، وقبل الملك ڤكتور عمانويل طلب الولايات الأربع ، وأرسل نواباً عنه فى فلورانسا وبولونيا ومودينا وپارما ، وبعد صلح ڤلافرانكا طلب إلى الدوقيات أن تعيد أمراءها وأن تخضع رومانى للبابا ، واضطر ڤكتور عمانويل إلى استدعاء نوابه ، ولكن الولايات الثلاث توحدت تحت اسم « إمليا » وكونت حلفاً للدفاع مع تسكانى ، وكان نابليون الثالث بعد صلح ڤلافرانكا قد قال لڤكتور عمانويل « إنك تدفع لى نفقات الحرب ، وسنمسك عن الحديث عن ساڤوى » ، ولما كان لم يف بوعده فى تحرير ڤنتيا فإنه لم

يكن له حجة مقبولة فى المطالبة بالمقاطعة التى قامت عليها المساومة ، ولكنه لما رأى أن الولايات الوسطى فى إيطاليا ترفض التقيد بشروط المعاهدة طالب بنيس وسافوى ثمناً لموافقته على ضمها ، وكان راتاتزى الذى خلف كافور سياسياً بارعاً ، ولكن لم يكن له جرأة على تحدى الإمبراطور ولا القدرة السياسية على إبطال دسيسته ورد كيده ، وتردد بين خوفه من إغضاب الإمبراطور وخوفه الإساءة إلى الشعور القومى ، وطالبت الأمة بعودة الرجل الذى يمكن أن تأتمنه على مصيرها ، ولم يكن الملك قد نسى ما حدث بينه وبين كافور ، ولكنه غالب نفسه ليستجيب لطلب أمته واستدعى كافور إلى رياسة الوزارة فى يناير سنة ١٨٦٠ ، وقبل كافور أن يحتمل مغبة نصيحة الملك بأن يوافق على تسليم جزء من البلاد لتتم وحدة إيطاليا ، وكان الثمن باهظاً والتضحية غالية ، فسافوى كانت مهد الأسرة الحاكمة ، وكان أهل سافوى ونيس لا يكفون عن إظهار ولائهم الشديد للملك وأسرته ، وكان سلوك كافور وسلوك نابليون الثالث فى هذه المسألة لا ينطويان على الصراحة ، فالإمبراطور كان يروقه أن يقف موقف منقذ إيطاليا الخالى من الغرض ، وكان ينكر علناً أنه سيقتطع من إيطاليا مقاطعة سافوى ثمناً لذلك ، وكان كافور من ناحية أخرى يحاول أن يجد لنفسه مخرجاً من هذه الورطة ولكنه كان يحرص على استرضاء الإمبراطور ويتحاشى جهده إغضابه ، لأن الوحدة لا يمكن أن تتم — فى رأيه — إذا انضمت فرنسا إلى النمسا ، وفى مارس سنة ١٨٦٠ أرسل الإمبراطور رسالة إلى كافور يقول فيها

إنه إذا لم يقر الاتفاق السرى المعقود بينهما الخاص بتسليم سافوى ونيس لفرنسا فإن الجيوش الفرنسية التى كانت لا تزال فى لومبارديا ستبادر إلى احتلال بولونيا وفلورانسا . ولم يستطع كافور أن ينصح فكتور عمانويل بالاستهداف لهذا الخطر ، وأقر المعاهدة التى تضمنت التضحية القاسية فى ١٢ مارس سنة ١٨٦٠ .

وأمر كافور بإجراء تصويت عام يعبر فيه أهل تسكانى وإميليا عن رغباتهم ، وقد طلبت أغلبيتهم الانضمام إلى پيدمونت ، وصدر أمر عال يعلن انضمام الولايات الوسطى إلى مملكة پيدمونت ، وبقيت مشكلة إبلاغ مجلس النواب الپيدمونتى خبر اقتطاع مقاطعتى نيس وسافوى ، وقد قوبل كافور بعاصفة شديدة من النقد والانتقاص ، ولكنه عرف كيف يدافع عن نفسه ويسوغ عمله ، وأقر مجلس النواب المعاهدة .

وحينما حل مترينى بفلورانسا كان صاحب الأمر والنهى فيها البارون ريكاسولى ، وقد سمح لمترينى بالبقاء على شريطة أن يظل متوارياً ، وكان بين الرجلين بعض أوجه من المشابهة ، فكلاهما كان شجاعاً أميناً نقى الصفحة محدد الهدف ، ولكن تشدد كل منهما فى الاستمساك بآرائه لم يكن ليجعل التعاون بينهما ميسوراً . وبرغم ذلك كان الرجلان يتبادلان الاحترام وحسن التقدير ، وكان مترينى لايزال يرى أن الحركة يجب أن تكون حركة شعبية خالصة ، ونصح ولايات وسط إيطاليا الأربع بضرورة التعلق بحريتها وأن تترفع عن الخضوع لأوامر الإمبراطور نابليون ، وبشىء كثير من التردد وافق مترينى على انضمام الولايات

الأربع لمملكة بيدمونت ، ووعد بأنه لا يثير الشعور الجمهورى ما دام الحزب الملكى يعمل لتحقيق الوحدة ، وأرسل إلى ملك بيدمونت خطاباً مفتوحاً (فى سبتمبر سنة ١٨٥٩) ، وقد طلب فيه من الملك أن يعير سمعه الذى ملأته كلمات طلاب المناصب ونهازى الفرص لرجل حر لا يخشى بأسه ولا يرجو نفعه ، وكل ما يريده فى حياته هو أن يعيش ويموت مطمئن الضمير ، وذكر للملك أن ما تريده إيطاليا هو الوحدة ، فلينبذ الملك الحزم فهو فضيلة الأيام العادية ، وليتسلح بالشجاعة التى تتطلبها الساعات الحاسمة ، وليقف إلى جانب شعبه ويناصره فى ثورته القومية بلا خوف ولاتردد ، وبرغم ذلك لم يكن متزينى كبير الأمل فى الملك ، وكان يأخذ عليه تردده وضعفه ، والظاهر أن الملك قد قرأ رسالة متزينى فى شىء من العناية وتأثر بها ، واتجاه الحوادث بعد ذلك يؤيد هذا الظن ، وكان هدف متزينى الأسمى على الدوام هو الوحدة الإيطالية ، فإذا لم تعمل حكومة بيدمونت على تحقيقها فإن الشعب الإيطالى يتولى ذلك ، وكان يريد أن يتخذ تسكانى ورومانى قاعدة لغزو المقاطعات البابوية الباقية ، ثم يتقدم الغزاة إلى نابولى وجنوب إيطاليا ، وكان يرى فى ذلك انتصاراً باهراً للحرية الدينية ، وكان تحرير روما من سلطة البابا فى رأى متزينى تحريراً للعالم جميعه .

وفى الوقت نفسه أرسل بعض أعوانه إلى صقلية لتهيئة الجو لقيام ثورة ، وحرض غاريبالدى وجيوش حكومات الوسط على غزو أومبريا التى استردها متطوعو البابا ، وحرض أصدقاءه من الإنجليز والألمان

على أن يثيروا الرأى العام ضد احتلال الفرنسيين لروما ، وأن يضغطوا على نابليون الثالث باسم مبدأ عدم التدخل ، وفكر متزينى فى قيادة الحملة بنفسه ، ولكنه خشى أن يزعج اسمه جمهرة الشعب ، ويثير ثائرة أعدائه وخصومه، وأقنع فارينى ديكتاتور مودنا بوجهة نظره، وكان فارينى من رجال حزب إيطاليا الفتاة فى بواكير حياته ، وحاول أن يضم ريكاسولى إلى صفه ، ولكن ريكاسولى كان يرى أن حركة التقدم إلى الجنوب محفوفة بالأخطار ، لأن مهاجمة مقاطعات البابا تثير الرأى العام الكاثوليكى ، وتضطر نابليون الثالث إلى أن يتنكر لإيطاليا ويقلب لها ظهر المجن ، وكان ريكاسولى يذهب مذهب كافور فى ضرورة العناية بكسب عطف الإمبراطور وتحاشى إغضابه جهد الطاقة وإلا وجدت إيطاليا نفسها منفردة وجهاً لوجه مع النمساويين ، وقد أوقف ريكاسولى وملك پيدمونت تنفيذ هذه الخطة ومنعا غاريبالدى من الاشتراك فيها وأشار عليه ريكاسولى بمبارحة تسكانى ، ولما وجد متزينى أنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً توجه إلى ليجانو وعاد منها إلى إنجلترا فى نهاية العام .

ولقد انسحب متزينى من الميدان مرغماً مغلوباً على أمره ولكن أفكاره كانت تسرى مسراها وتؤثر تأثيرها ، فلما عاد كافور إلى رياسة الوزارة البيدمونتية فى أول سنة ١٨٦٠ كان قد عقد العزم على تحقيق الوحدة ، وعلى أن تكون روما عاصمة إيطاليا المستقلة الموحدة ، وإذا تخلى عنه الإمبراطور هاجم النمسا وحرض المجر على الثورة ، ولكنه كان

يقدر ما تنطوى عليه هذه الخطة من خطورة ، ووجد أن من حسن السياسة أن يحتفظ بحماية الإمبراطور لإيطاليا ما وسعته المحافظة عليها ، وفى سبيل ذلك وافق محزوناً مغموماً على إعطائه نيس وساقوى ثمناً لهذه الحماية ، وقد أثار تسليم المقاطعتين غضب متزينى وزاده شكاً فى نيات كافور ، وكان يعتقد أن كافور لا يجترئ على إشعال الثورة فى الجنوب ، وكان متزينى يرى هذه الثورة عاملاً هاماً فى إتمام الوحدة ، وكان يرى أن جيش الملك فرديناند لا يثبت فى الميدان ، وأنه إما أن يولى الأدبار وإما أن ينضم إلى الثوار .

وكان متزينى يرى أن برنامجه واضح مفهوم ، ولذا كان يؤمل أن يقبله الدمقراطيون جميعهم ، ولكن بعض الدمقراطيين رأوا أن متزينى يستهين بالأخطار الكامنة والصعاب المعترضة وأن الأمر يستلزم حرباً أشد قوة وأطول مدى مما قدر ، وأصروا على أنه إذا ذهب المتطوعون إلى صقلية فلا بد من أن يتولى قيادتهم غاريبالدى ، وأن يضمنوا العطف الأدبى من كافور ، ورحب متزينى بتولى غاريبالدى القيادة ، بالرغم من أنه لم يكن هناك بينهما شعور ودى ، ولكنه كان يعرف أن غاريبالدى يتردد فى القيام بهذه المهمة ، وفى أوائل مارس بينما كان غاريبالدى لا يزال متردداً أرسل متزينى روسالينو پيلو إلى صقلية ، وهو شاب من نبلاء صقلية ، ليقود الثورة بها ، وأنفق على إعداد هذه الثورة كل ما كان يملك من المال ، وكان متزينى حينذاك مهتاج الخاطر ، قلق النفس ، كثير البلابل والشجون ، لأنه كان يقدر التبعة الخطيرة الملقاة على عاتقه ،

وسافر إلى ليجانو ليكون على مقربة من مكان الثورة وميدان العمل ، وهناك علم أن خطته قد أثمرت وأن جهوده قد أجدت ، وأن غاريبالدى ومعه رجاله الألف قد قصدوا صقلية ، وقال متزينى « الحمد لله ، إن إيطاليا لم تمت ! » ولما بلغه نبأ انتصار غاريبالدى فى كالاتافيمى — بجزيرة صقلية — قال « إن صقلية ستنقذنا ، وإيطاليا ستوجد » .

وفى اليوم السابع من مايو وصل إلى جنوا ، وكان غاريبالدى قد غادرها منذ يومين ، وكان متزينى لا يزال مضطراً إلى التخفى والاستتار فكان لا يرى أصدقاءه إلا فى الليل ، ولم يرحب به الرجال الذين أعدوا الحملة ، وثقل عليهم حضوره وهو الرجل الذى كان دائماً على أتم استعداد ليحتمل التبعات ويترك للآخرين نيل المجد وجنى النصر ، وكان يدفع جسمه الواهن الضعيف إلى العمل دفعاً بحكم الشعور بالواجب والإخلاص لوطنه ، والظاهر أن مدبرى الحملة — وهم برتانى ومدنشى وبيكسيو — كانوا يخشون أن مجهوده المستقل قد يفسد عليهم الأمر ، فقد كان كافور يسند هذه الحركة ويؤيدها ، ومتزينى كان معروفاً بكراهيته لكافور وعدم ثقته به ، وبينما كان غاريبالدى يحرز انتصاراته فى صقلية ، كان متزينى يرسم خطة لغزو أراضى البابا ، وكان يؤمل أن متطوعيه لا يحررون إيطاليا الوسطى ويهاجمون البوربون فحسب بل يكون لهم كذلك نفوذ مستقل عن سيطرة كافور وغاريبالدى ، وأن هذا النفوذ قد يمكنهم من القضاء على الملكية أو على الأقل يرغمها على الخلاص من سيطرة فرنسا ، وتتابعت انتصارات غاريبالدى فى صقلية ، وأحدثت

رعبا فى نابولى ، وحاول فرنسيس الثانى أن يستنجد بالنمسا كما استنجد بها أبوه فرديناند من قبل ، ولكن النمسا كانت مشغولة بثورة نشبت فى بلاد المجر فالتمس العون من إمبراطور فرنسا ، ولكن الإمبراطور تلقَّى رسله بفتور ، ونصح الملك فرنسيس بمنح صقلية الاستقلال الذاتى والأخذ بمبادئ الإصلاح فى نابولى وبأن يحالف پيدمونت التى رفض محالفتها مرتين ، فأعلن الدستور ولم ينفعه إعلانه كثيراً ولم يرفع من شأنه لأن رعاياه أدركوا أنه أعلن الدستور بدافع الخوف والرهبة ، وكان عزاؤه الوحيد فى هذا الموقف أن فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا اتفقت كلمتهم على أن لا يسمح لغاريبالدى بعبور مضيق مسينا وغزو مملكة نابولى ووافق على ذلك فكتور عمانويل وكافور ، وكان يخشيان تمادى الحركة التى قام بها غاريبالدى .

ولكن غاريبالدى رأى غير ذلك ، وكان قصده أن يطرد جيوش نابولى من صقلية ويغزو نابولى بعد ذلك ، ورفض طلب كافور ضم صقلية إلى مملكة پيدمونت لأن هذا يجعله يتلقى الأوامر من ملك پيدمونت وانتظر فى پالرمو مجئ المدد من بعض رجاله ، ولما جاءه المدد وأتم الاستيلاء على الجزيرة أخذ فى الاستعداد لغزو مملكة نابولى ، واستطاع غاريبالدى بالحيلة والمراوغة أن يعبر المضيق وينزل برجاله فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وبدأ مهاجمة مملكة نابولى فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٦٠ ، واستطاع غاريبالدى بشجاعته النادرة وحركاته السريعة وشهرته التى كانت توقع الرعب فى قلوب الأعداء وتجلب له الأنصار

أن يجتاح مملكة نابولى ويدخل نابولى منتصراً ، وكان الملك قد ذهب إلى جيتا Gaeta ، وكان غاريبالدى يريد بعد ذلك مهاجمة ممتلكات البابا ، ولكن هذه الخطة لم ترض كافور ، وكان أشد ما يخشاه كافور هو أن تعظم قوة غاريبالدى ويعلو نفوذه فينتقص ذلك من سلطان ملك بيدمونت ويقلل من هيبته ويهدم من مكانته ، وكان كافور يعتقد أن من مصلحة قضية الوحدة أن يظل الملك ڤكتور عمانويل محور الولاء القومى ، ولم يكن يسىء الظن بغاريبالدى ، ولكنه كان يخشى الجمهوريين الغلاة فى نظره أمثال متزينى وبرتانى وكرسبى وكانوا فى هذه الآونة حول غاريبالدى يمدونه بآرائهم ويزودونه بنصائحهم وخبرتهم ، وعقد كافور العزم على منع غاريبالدى من غزو أراضى البابا ، وأن يضع حداً لسلطته ونفوذه ، وقد ساء ذلك غاريبالدى وأغضبه واعتقد أن كافور يحسده ويغار منه فانفذ رسالة إلى الملك ڤكتور عمانويل يطلب عزل كافور ، ولم يرض الملك عن ذلك ، ولما كان كافور مصمماً على منع غاريبالدى من غزو الولايات البابوية لذلك كان العلاج الوحيد للموقف هو أن يرسل جيشاً ملكياً لغزوها ، وبينما كان القائد الشجاع والبطل المقدام غاريبالدى يتقدم برجاله من الجنوب أرسل كافور رسلاً إلى الإمبراطور نابليون الثالث يلتمس الموافقة على خطته ، وكان الإمبراطور قد استاء من رفض البابا قبول طلبه القيام بالإصلاح فى الولايات التابعة له وكان من ناحية أخرى يخشى خطر تقدم غاريبالدى ويقاسم كافور مخاوفه ، ولذلك وافق كافور على خطته وأيده فى

موقفه ، وأوصى بعدم مهاجمة روما وعدم التعرض للبابا ، وأوصى كافور بالإسراع قبل أن يتدخل الحزب الكاثوليكى فى فرنسا والنمسا ، فبادر كافور إلى إرسال إنذار نهائى للبابا طلب منه حل جيش البابا ، ورفض البابا الإنذار ، وكان يجهل ما دار بين نابليون الثالث وكافور ، وبدأت الحرب وانتصر جيش پيدمونت ، وأضاف أومبريا ومارشز لأملاك ڤكتور عمانويل ، ولم يترك للبابا سوى مدينة روما ، وانتصر غاريبالدى على الجيوش البوربونية انتصاراً باهراً وصمم كافور على ضم مملكة ناپولى لپيدمونت فاقترح على مجلس النواب إجراء تصويت عام فى جنوب إيطاليا كما حدث فى الولايات الوسطى ليستوثق من رغبات الأهالى ، وأثنى على جهود غاريبالدى ولكنه أعلن أن بقاء الأمر فى يده مدة طويلة يعرض الوحدة الإيطالية للخطر ، وقبل أهالى مملكة ناپولى الانضمام إلى پيدمونت ، ولم يرض غاريبالدى عن ترك مدينة روما تحت سيادة دولة أجنبية تجنباً للاساءة إلى شعور فرنسا ، وانتوى أن يستردها بنفسه قائلاً « إن روما تابعة لإيطاليا وليس من حق البابا ولا الإمبراطور أن يبعدانى عنها » وكان الملك عمانويل يتقدم بجيشه إلى ناپولى ، واتجه غاريبالدى إلى الشمال مع جماعة من جنده للقائه ، ولقى غاريبالدى الملك ، والتمس منه أن ينضم رجاله إلى الجيش الملكى فى آخر محاولة للقضاء على قوة نفوذ ملك ناپولى ، ولكن الملك ڤكتور قال له « جنودى محتفظة بقوتها ورجالك متعبون » وفهم غاريبالدى ما يرمى إليه الملك بهذا القول ، وأدرك أن خدماته وخدمات رجاله الأمناء أصبحتا غير لازمتين ، وعاد

غاريبالدى إلى معسكره محزون القلب ، ولم يشك ملكه ، وكظم غضبه ، وكتم حزنه ، وقال لأصدقائه فى أسف وحسرة « لقد أرسلونا إلى المؤخرة » وأساء الملك بعد ذلك معاملة غاريبالدى ورجاله .

وفى ٢ نوفمبر سنة ١٨٦٠ دخل ڤكتور عمانويل ناپولى وإلى جانبه فى العربة غاريبالدى ، وفى اليوم التالى جلس ڤكتور عمانويل على عرش ملوك البوربون بتصويت الأهالى ، وأمضى هو وغاريبالدى قرار ضم مملكة ناپولى ، وبعد انتهاء الحفلة قدم غاريبالدى تنازله عن القيادة وأصبح جندياً عادياً ، وما دام الملك قد رفض خدماته فإنه انتوى تسريح فرقه والاعتزال فى كاپريرا ، وأراد الملك أن يمنحه بعض ألقاب التشريف وضيعة لأبنائه وصداقاً لابنته ولكنه رفض ذلك كلّه ، فقد كان الرجل لا يعبأ بالمال ولا يطمع فى الألقاب ، وعاد إلى كاپريرا أفقر مما تركها لأن أكثر العتاد الذى زودت به حملة صقلية كان من حرماله ، وبعد انتصار الملك على فرنسيس الثانى فى جيتا Gaeta اجتمع فى تورين أول مجلس نواب لإيطاليا المتحدة فى ١٨ فبراير سنة ١٨٦١ وصدر إقرار بأن يلقب ڤكتور عمانويل وخلفاؤه بلقب « ملك إيطاليا » ، وتم تحرير إيطاليا ما عدا ڤينسيا وروما .

ونرى من ذلك أن غاريبالدى نفذ الخطة التى وضعها متزينى وأتبع برنامجه ، وكانت حكومة پيدمونت تشجع غاريبالدى بطرائق ملتوية ، فتارة تهادنه وتؤيده ، وطوراً تقيم العقبات فى طريقه ، وكانت بوجه عام تراقب حركاته وتقدمه بشىء غير قليل من الحذر والتوجس ، وكان

متزينى وغاريبالدى يريان أن جروح إيطاليا لا يتم برؤها إلا بتحرير فنتيا وروما ، وقد أنفق متزينى آخر مبلغ كان فى حوزته وقدره ثلاثون ألفا من الفرنكات فى إعداد فرقة مكونة من ثمانية آلاف رجل بمعداتهم بعد أن أرسل له فى صقلية ثلاثة أمداد ، ولكن كافور كان معارضاً فى ذلك أشد المعارضة ، وفرق هذه الوحدات ، وكان متزينى قد أعلن تنازله عن برنامجه الجمهورى حتى يتم تحرير إيطاليا وتقول إيطاليا الحرة كلمتها ، ولكن كافور كان يشك فى إخلاص متزينى فى هذا التنازل ، ويشك كذلك فى ولاء غاريبالدى للملك عمانويل ، وكان كافور قد اعتقد أن متزينى قد صحب الحملة التى توجهت إلى صقلية ، فطلب من غاريبالدى تسليم صديقه وزميله القديم ، ولما كان يعلم بما سبق أن حدث بين الرجلين الكبيرين من خلاف لذلك طمع فى أن يستدرج غاريبالدى إلى الموافقة على ذلك ، وقد أخطأ كافور فهم أخلاق غاريبالدى ، فقد كان الرجل أنبل نفساً من أن يستعان به فى مثل هذا العمل ، وبذل متزينى جهده ليوضح لأنصار الحزب الملكى أنه لا يريد فى هذه الآونة أن يرفع علماً آخر ، وأن كل ما يريده هو حرية العمل لتحقيق استقلال إيطاليا ووحدتها ، وكان الملك يتقبل من أنصار متزينى هذه الوعود ، وفى اليوم التالى تصدر جرائد المعتدلين ملأى بالشتائم الموجهة إلى متزينى وحزبه وتخصه بالنصيب الأوفر من الاتهامات ، وذهب متزينى إلى نابولى فى منتصف شهر سبتمبر ، ورحب به غاريبالدى وتبعه أنصار حزب المعتدلين بشتائمهم وأهاجيهم ، ونظموا الحملات لمحاربته ،

وأشاعوا أنه عنه عدو الملك فكتور عمانويل وأنه جاء إلى نابولى ليبذر بذور الشقاق ، ويشيع الفوضى ، ويؤسس الجمهورية ، وأنه سبب المتاعب فى نابولى ، وأنه سيثير حرباً داخلية ، وأمثال ذلك من التخرصات والتهم الباطلة ، وعبثاً حاول متزينى تفنيد هذه الاتهامات ، وأعلن أن حبه للوحدة جعله يقبل الملكية ، وهو مستعد للتعاون معها إذا أوجدت الوحدة ، ولكن الدسائس ظلت تحاك حوله ، وقام رعاع المدينة بمظاهرة هتفوا فيها تحت نوافذه بموته ، فاستدعى غاريبالدى أحد زعماء هؤلاء الهاتفين وسأله « هل تعرف الرجل الذى تهتف بموته ؟ » فقال الرجل « لا » وإنما قيل له إن متزينى هو سبب المتاعب، فسأله غاريبالدى « أتعرف شيئاً عن حياة هذا الرجل وأعماله ؟ » فأجاب « لا » وإنما صدرت إليه الأوامر بتأليف مظاهرة ضده وصرف له مبلغ من المال لتوزيعه على زملائه !

وبعد دخول الملك نابولى رجا بلافينشينو متزينى أن يغادرها ، ولكن متزينى رفض أن يتنازل عن حقه باعتباره إيطالياً فى أن يعيش فى أرض إيطالية ، ودافع عنه غاريبالدى دفاعاً حاراً ، وأوصى الملك بعدم التعرض له ، وقال « أتركوا متزينى وحيداً » .

وفى اليوم الخامس من نوفمبر دارت محادثة بين الزعيمين بحثا فيها خطط الاستيلاء على روما وفينسيا ، وبعد ذلك بأيام غادر غاريبالدى نابولى إلى داره فى كابريرا ، وغادرها متزينى إلى إنجلترا ، وكلاهما كان مهموماً محزوناً لانه لم يستطع أن يظل فى الميدان حتى نهاية معركة

الحرية ، وسياسة كاڤور فى حماية البابا وأعوانه الفرنسيين زادت الرجلين سوء ظناً به وشكاً فى نياته .

وقضى مترينى السنوات التالية فى الخارج ، وكان يزور إيطاليا من الحين إلى الحين ، وصرف جهوده إلى تحرير روما وڤنيسيا أو « قلب إيطاليا » و « يدها اليسرى » كما كان يسميهما ، وكانت خطته أن يرغم نابليون الثالث على سحب جيشه من روما بضغط الرأى العام الأوربى عليه ، لأن الإمبراطور لا يستطيع أن يجترئ على سحب رجاله من روما خشية إغضاب رعاياه الكاثوليك . وكان عرشه قائماً على تأييدهم له فى فرنسا، ونظّم حركة تقديم عرائض إلى الحكومة البريطانية لتؤثر بنفوذها فى هذا الموضوع ، وأذاع اعتراضاً قوياً موجهاً إلى أوروبا جميعها التى اعترفت بالمملكة الإيطالية الناشئة ورحبت بها يشير فيه إلى ما ينطوى عليه من الأضرار وجود جيش أجنبى فى عاصمتها الطبيعية ، وأن ذلك يزرى بفرنسا من ناحية ويهدد إيطاليا من ناحية أخرى ، وهو يزرى بفرنسا لأنه اعتداء صارخ على حقوق الأمم ، ويهدد إيطاليا لأنه يعرضها للشقاق والحرب الداخلية وهى مملكة حديثة النشأة ، وقال إن مثل هذا الاحتلال المسلح لا يحسن أن تسكت عليه الدول ، وتغضى عنه ، والواقع أن الحكومة والشعب أخذا يشعران بضرورة امتلاك روما ، فقد كانت مصدر خطر للدولة ، ووكراً لدسائس البوربون والبابا ، وباعثاً على الفوضى وانتهاك الحرمات ، وحاول كاڤور أن يحمل البابا على التنازل عن سلطته الزمنية فى مقابل الاستقلال التام بالسلطة

الدينية ، ولكن البابا رفض الاقتراح ، وعرض نابليون الثالث بعد ذلك على حكومة إيطاليا أن يسحب جنده من روما مشترطاً أن تتعهد الحكومة بأنها لا تهاجم الأملاك الباقية للبابوية ، وقبل كافور هذا العرض على ما به من إقامة عقبات فى سبيل الأمانى القومية ،واتفق على أن يسحب الإمبراطور جيشه فى آخر شهر يونيه ، وفى أوائل ذلك الشهر قضى كافور نحبه ، وخلفه فى رياسة الوزارة البارون ريكاسولى ، وبالرغم من أن لويس نابليون قد قطع على نفسه عهداً بسحب جنده فى الميعاد الذى حدده فإنه أعلن أنه غير رأيه حالما تسلم رئيس الوزارة الجديد مقاليد الحكم ، وقد تأثر فى ذلك برجال الدين ، ورأى أن يرجئ سحب جنوده حتى تلوح له فرصة مغنم يناله من وراء ذلك يرفع من شأنه فى فرنسا ، وأمل أن تسلم الحكومة الإيطالية جزيرة سردينيا ، ولكن ريكاسولى لم يلن له ، وصارحه بأنه لن يسلم شبراً واحداً من الأراضى الإيطالية ، والعجيب من أمر ريكاسولى أنه كان أقل معارضة فى التسليم بالنفوس منه بالتسليم بالأرض ، فقد كانت هناك مفاوضات بين نابليون الثالث وكافور — قبل أن يموت — اتفق فيها أن ترسل إيطاليا حملة لمساعدة نابليون فى غزو مقاطعات الراين فى مقابل مساعدة الإمبراطور لإيطاليا فى ڤنتيا ، وحينما وصل هذا الاتفاق إلى علم مترينى اشتد غضبه ، وكتب فى إحدى رسائله يقول « إذا كانت إيطاليا عند مولدها من جديد تقوم برسالة غزو أراضى الأقوام الآخرين لمصلحة الطغاة فالأجمل بها أن تظل مستعبدة ممزقة الأوصال »

وفى هذه السنة أخذت صحته تسوء ، وقد تعود أن يغالب ضعف صحته بقوة عزمه ومضاء إرادته ، وكان ينصح أصدقاءه باتباع ذلك ، ويقول لهم : « إشحذوا إرادتكم لتصحوا ، فقد طالما فعلت ذلك وحالفنى النجاح » ، وفى أوقات الأزمات الحازبة كان يقول « سمعت أنكم تشكون ضعف الصحة والمرض ، فكفوا عن ذلك ، فمن السخف أن يكون الإنسان مريضاً وصباً بينما الأمم تجاهد لنيل حريتها » ولكن نوبات المرض الشديد توالت عليه حتى عجزت إرادته القوية ونفسه العالية عن مقاومتها ، وداعبه حيناً الأمل فى أن الحكومة الملكية ستضرب ضربتها للاستيلاء على ڤنتيا وروما ، وأمسك عن الإشارة إلى دعوته الجمهورية لكى يفسح لها المجال ، ولكن لما وجد أن الحكومة مقصرة فى هذا السعى غير معنية به عاد إلى الاستظلال بمبدئه القديم فى صراحة وبغير مواربة .

الفصل الحادى عشر

محاولة غاريبالدى استرداد روما — تقدير غاريبالدى لمتزينى — معركة كستوزا — استرداد فنتيا من النمسا .

كان البارون ريكاسولى الذى خلف كافور فى رياسة الوزارة الإيطالية سياسياً صريحاً واضح المحجة لا يحسن اللف والدوران ، ولا يجيد المصانعة والمماكرة ، ولا يخفى أغراضه ، ولا يكظم عواطفه وميوله ، ولم يكن فيه شيء من دماثة أخلاق كافور وفكاهته وحلاوة شمائله وبراعته السياسية التى كانت تستر قوة إرادته وشدة تصميمه ومتانة عزيمته ، وقد لقب ريكاسولى لصلابته بالبارون الحديدى ، وأمثال هذه الصفات التى اشتهر بها كانت تجعله من ناحية موضع الإعجاب والاحترام والتقدير ومن ناحية أخرى كانت تلقى فى طريقه الأحجار وتقيم فيه عقبات كان يمكن التغلب عليها بشيء من اللباقة واللين وحسن السياسية . ولذا تكاثرت الصعاب على ريكاسولى حتى أصبح لا يدرى ماذا يصنع .

والولايات الجديدة التى ضُمّت إلى مملكة پيدمونت كانت تحتاج إلى اتباع سياسة حسنة فى معاملتها لتأكيد الوحدة ، وتعديل القوانين ، وإزالة أسباب المنافسة والتحاسد بين أفرادها ، والملاءمة بين إيطالى

الجنوب وإيطالى الشمال ، وتقريب ما بينهما ، وكان حكم البوربون فى نابولى قد أشاع الفساد إلى أقصى حد حتى كان يبدو أن محاولة إصلاح الأهالى وتعويدهم على الحياة الحرة الأمينة محاولة يائسة ، وكانت حكومة روما تحرض اللصوص وقطاع الطرق والسلابين والقتلة والمجرمين وتحميهم حتى اضطر الجنرال شيالديني أن يتخذ إجراءات قاسية فى تلك الأنحاء ، وكان مستشارو البابا يحرضون المجرمين على ارتكاب الجرائم والإمعان فى الشر لخلق المتاعب لحكومة پيدمونت وإيجاد الصعاب فى طريقها ، وقد زاد ذلك الناس تبرماً بحكم البابا وطالبوا بإنهائه وتقويض سلطانه ، وكان من هم ريكاسولى أن يسوى هذه المشكلة الشائكة بالطرق السلمية وبموافقة الإمبراطور .

وكان كافور قبيل موته قد انتزع من نابليون الثالث موافقته على أن يسحب جنده من روما على شريطة أن تتعهد الحكومة الإيطالية بحماية ما بقى للبابا من الأرض ، وإذا ثار الرومانيون بالبابا وطلبوا الانضمام إلى المملكة الإيطالية فإن للملك ڤكتور عمانويل الحرية فى الا ستيلاء على المدينة ؛ ولسوء الحظ أن هذا الاتفاق لم يكن قد وقعه الإمبراطور ، ولذلك عاد الإمبراطور فسحبه ، وكان الإمبراطور يقدر كافور ويميل إليه ويستطيب حديثه ، وكان كافور من ناحية أخرى نداً له فى المكر والدهاء والتحايل ، بل كان يفوقه فى هذا الميدان ويسبقه ، أما ريكاسولى فلم يكن يحسن تناول شخصية ملتوية مثل شخصية الإمبراطور ، والرجل المستقيم يجد صعوبة فى الاحتكاك بالرجل

الحب الذى يميل إلى السرية والأساليب الخفية . ويحب العمل فى الظلام لا فى ضوء النهار ، وفضلاً عن ذلك فقد كان الإمبراطور يكرهه لسبق رفضه ترشيح چيروملعرش تاسكانى ولذا لم يقبل الإمبراطور أن يعين ريكاسولى فى خلافه مع البابا ، وتركه وحيداً يفاوض البابا بصراحته المعهودة واستقامته ، وقال ريكاسولى للبابا « إذا كنت تريد أن تصبح أعظم من ملوك الأرض فحرر نفسك من هموم الملوكية التى تجعلك وحدها نظيرهم » ولكن الأمر الذى أخفق فى معالجته كاڤور لم يكن من المنظور أن ينجح فى معالجته ريكاسولى ، ورفض پيوس التاسع أن يعيد النظر فى رفضه مقترحات الحكومة الإيطالية .

وإخفاق هذه المفاوضة مع الڤاتيكان كان مخيباً لآمال الملك ، وجعل ريكاسولى مكروهاً من مجلس النواب ومن البلاد جميعها ، ولذا قدم استقالته فى مارس سنة ١٨٦٢ ، وخلفه راتاتزى ، وهو رجل طموح بارع وخطيب مصقع ، وكان ملماً بآداب البلاط ، وقربه ذلك إلى قلب الملك ، وسر به نابليون الثالث لأنه اعتقد أن رئيس الوزارة الجديد أسهل تناولاً وأطوع للإشارة من كاڤور ومن ريكاسولى ، وبادر راتاتزى عند تسلمه مقاليد الوزراة إلى الدخول فى مفاوضات مع الإمبراطور فى مشكلة ڤينيسيا ، وكان الإمبراطور مستعدا لمساعدة إيطاليا فى استردادها إذا تركت إيطاليا التفكير فى مشكلة روما .

وعرض الملك ورئيس الوزارة على غاريبالدى خطة لمهاجمة النمسا عن طريق دلماشيا وهى مشغولة بهجوم المجر من ناحية أخرى ، وكان

الرجل مستعداً على الدوام للجهاد من أجل إيطاليا ، وقوبل فى تورين مقابلة حماسية ، ولقى تقديراً عظيماً ، وذهب إلى التيرول لتنظيم الحملة فى الباطن وفى الظاهر ليستفيد من الحمامات ، ولكن الحكومة غيرت سياستها فجأة ، وألقت القبض على بعض المتطوعين وأوقفت المحاولة ، وأثار ذلك غضب غاريبالدى ومثل بين يدى الملك ورئيس الوزارة ، وعاد فى صمت إلى كاپريرا ولم يعرف ما كان من أمر هذا اللقاء وما دار فيه من حديث .

وبعد ذلك بقليل ظهر غاريبالدى فى پالرمو وقوبل مقابلة حماسية وأعلن عزمه على تحرير روما ، وانطلق صوت من أحد الحاضرين يقول « روما أو الموت » فقال غاريبالدى « نعم روما أو الموت » واتخذ هذه الكلمة شعاراً للحملة التى أعدها فى الجزيرة ، واستدعى المتطوعين فأقبلوا إليه زرافات ووحداناً والتف حوله آلاف منهم ، فاتجه إلى كاتانيا ، واعتزم الوثوب إلى شبه الجزيرة الإيطالية ، ولم تكن خطته سراً خفياً ، ولكن الحكومة ظلت أسابيع لا تحرك ساكناً ، وظن غاريبالدى أن الحكومة عاطفة على هذه الحركة وراضية عنها ، ونزل فى كلابريا برجاله ، ولكن الحكومة عاودها الخوف من أمثال هذه الحركات الشعبية ، وخشيت شر نابليون الثالث فأعلنت أن غاريبالدى ثائر على الدولة ، وأرسلت الجنرال شيالدينى على رأس جيش من الجنود النظاميين . للتغلب عليه ، ولما رأى غاريبالدى أن الجيش الذى جاء لإخماد حركته جيش إيطالى أبى أن يقاوم وتقدم الصفوف ليمنع رجاله من المقاومة

ويطلب إليهم طاعة أمر الملك والنزول على حكمه ، وبينما كان يمر بين الصفوف أصابته فى ساقه رصاصة أطلقها عليها الجيش الملكى ، فخر الرجل صريعاً ، وألقى القبض عليه ، واعتقل وسجن بأمر الحكومة ، وحبس رجاله فى سجون نابولى وأعدم الجنود النظاميون الذين انضموا إليه رمياً بالرصاص .

ولم يكن متزينى موافقاً على هذه الحملة إلى روما التى قادها غاريبالدى ، ولكنه لما علم بعبوره المضيق تحقق أنه فى حاجة إلى المساعدة ، فغادر إنجلترا وذهب فوراً إلى إيطاليا ، وبلغته الأنباء السيئة وهو فى ليجانو ، فأحزنته وأثارت شجونه ولم يسغ له طعام ولا شراب ، وود لو يفتدى بحياته حياة البطل الذى كانت حياته — فى رأى متزينى — ألزم لإيطاليا من حياة متزينى نفسه . ولما هدأت ثائرته أرسل إلى الوزارة بياناً لإطلاق سراح غاريبالدى « جندى الوحدة الإيطالية ورمزها لتمكنه من علاج جراحه محاطاً بحب عشيرته لا فى السجن الذى يذكر أوربا بحبس كولومبس » وقال فى هذا البيان « قد تقيمون العقبات فى سبيل هذا العمل أيها السادة ولكنكم لا تعاقبون من يقوم به فهو عمل تطلبه إيطاليا جميعها ، وقد تعدون محاولته غير ناضجة ولكنكم لا يمكن أن تعدوها محاولة مجرمة ، إن إيطاليا كلها تشاركه جراحه وسجنه » .

وأسرع إلى إيطاليا جيمس ستانسفيلد ، عضو الوزارة البريطانية وزوج كارولين أشرست صديقة متزينى ، وزار غاريبالدى فى سجنه

بأسبزيا ونقل أخباره إلى متزينى الذى كان شديد القلق عليه مشغول البال به ، ولما عاد متزينى إلى إنجلترا بدأ اكتتاباً لغاريبالدى وللجرحى من رجاله ، وجمع له ألفاً من الجنيهات ، وقام بمثل هذه المحاولة فى إيطاليا .

وكان من خطة المعتدلين فى إيطاليا أن يفرقوا ما بين الزعيمين الكبيرين ، وبعد حادثة أسبرومنتو ظهر فى إحدى الجرائد الإيطالية المعروفة رسالة مزورة من متزينى تشير بأشياء كثيرة منها إبعاد منوتى —ابن غاريبالدى الذى كان يحبه حباً شديداً—عن أبيه، ولما رفع برتانى وماريو صديقا متزينى الأمر إلى المحكمة برئ صاحب الجريدة لأن التزوير كان غاية فى الإتقان ، وعرفت بعد ذلك حقيقة التزوير والأسلوب الذى اتبع فيه .

وفى شهر مارس من السنة نفسها لفق النائب العام فى باريس تهمة جديدة لمتزينى ، إذ أوضح أن المدعو « جريكو » الذى كان ينوى الاعتداء على حياة الإمبراطور من رسل متزينى ، وبحث الأمر فى مجلس النواب البريطانى ، واتُهم چيمس ستانسفيلد بأنه ضالع فى هذه المسألة مع متزينى ، وكان حينذاك فى منصب وكيل وزارة البحرية ، ورد المستر ستانسفيلد فى مجلس النواب قائلاً « مهما يكن غضبه لتوجيه هذا الاتهام الوضيع إليه فإنه أشد غضباً لسوق مثل هذا الاتهام إلى متزينى » وأقسم بشرفه إن صديقه الإيطالى ليس له نصيب فى هذه المؤامرة إذا كانت هناك مؤامرة غير المؤامرة المدبرة للنيل من أخلاق

متزينى ، وكان پالمرستن وجلادستون مقتنعين بأن هذا الاتهام لا أساس له ، وعرف ڤكتور عمانويل — وكانت هناك مفاوضات حينذاك بينه وبين متزينى — أن متزينى لا ناقة له ولا جمل فى هذه المسألة ، وكان المقصود من توجيه هذه التهمة تحذير الملك من الاتصال بمتزينى والتقرب منه ، وكان الملك قد خطا خطوات فى هذا السبيل ، وقد كان جريكو هذا من صنائع الشرطة ، وكان اعترافه أكذوبة ملفقة وعرف بعد ذلك أن متزينى لم يكن له أية علاقة به .

وفى تلك السنة عاودت ڤكتور عمانويل آماله فى مهاجمة النمسا مخترقاً ڤنتيا ، تسنده من ناحية ثورة البولونيين فى غاليسيا ومن ناحية أخرى ثورة فى بلاد المجر ، واتصل سراً بمتزينى ، وذهب معه إلى حد الموافقة على إرسال فرقة من المتطوعين والوعد بإرسال الأسلحة والمؤن لها ، ووافق غاريبالدى على الخطة ، وأمل متزينى كثيراً فى تعاون الإيطاليين والبولونيين والمجريين ، وحرض الملك على أن يعمل بعزم صادق وشجاعة حاسمة ، وأن يغير الوزارة الضعيفة العاجزة التى عادت إلى الخضوع لنابليون الثالث وأشار عليه باستدعاء ريكاسولى ، ولكن الملك خذلته شجاعته فلم يستطع الأخذ بهذه الآراء ، ويئس من متزينى وانقطعت المفاوضات بينهما .

وفى سنة ١٨٦٤ زار غاريبالدى إنجلترا ، وكان قد أطلق سراحه فى العفو العام الذى أعلن بمناسبة زواج ماريا پيا كريمة الملك الصغرى لملك البرتغال ، وكان له فى إنجلترا أصدقاء كثيرون ومعجبون أكثر

عدداً من الأصدقاء ، وقوبل بالحماسة والترحيب اللذين يندر أن يلقى بهما البريطانيون زائراً غريباً غيره ، وفى إحدى الحفلات التى أقيمت تكريماً له فى لندن نسى الغيرة التى لم تكن تليق ببطولته ولا تلائم بساطة نفسه وصفاء طبعه والتى كان يثيرها فى نفسه أعداؤه وأعداء مترينى ليظل ما بينهما متباعداً ، فقد دعاه هرزن المفكر الروسى الحر لحفلة غداء بمنزله فى يوم من أيام شهر أبريل صفت سماؤه ورق هواؤه وأشرقت شمسه ، وحضر الحفل صافى وغيره من المنفيين الإيطاليين والبولنديين والفرنسيين وچيمس ستانسفيلد وزوجته كارولين ، واستقرت عينا غاريبالدى على الرجل العجوز الشاحب الوجه الذى يلبس سود الثياب ، فقام رافعاً رأسه ليرسل هذه الكلمات الباقية على الدهر « أريد اليوم أن أقوم بواجب كان ينبغى أن أقوم به منذ عهد طويل ، فبيننا هنا رجل قدم لبلاده وللحرية أعظم الخدمات ، فحينما كنت صبياً تختلج فى نفسى الأشواق الغامضة بحثت عن رجل لأتخذه مرشداً لى فى شبابى وناصحاً ، وطلبته كما ينشد الظمآن الماء ، ووجدت هذا الرجل ، لقد كان وحده يقظاً ساهراً حينما كان كل من حوله مستغرقين فى النوم ، ولقد صار صديقاً لى وظل صديقاً لى . . . ولم تخب فى نفسه نيران حب الوطن والحرية ، هذا الرجل هو چوزيف مترينى ، فلأشرب نخبه ، نخب صديقى وأستاذى » وشرب النخب فى صمت ، وتأثر المنفيون وفاضت دموعهم ، وحتى الخدم بلغ التأثر بهم مبلغاً ، وكانت ساعة من تلك الساعات التى

تسمو فيها النفوس وتلتئم الجروح وتذوب الخلافات القديمة وآثار المناقشات العنيفة ، وكانت تحية جميلة للرجل الذى قضى حياته مجاهداً صابراً والذى كان يقف فى المؤخرة حينما توزع الأسلاب وتعقد أكاليل الفوز وتخلع ألقاب التقدير وعرفان الفضل والجميل !

وفى سنة ١٨٦٤ عقدت الحكومة الإيطالية اتفاقاً مع الحكومة الفرنسية مضمونه أن تسحب الحكومة الفرنسية الحامية الفرنسية من روما فى خلال سنتين ، على شريطة أن تتكفل الحكومة الإيطالية بحماية ما بقى للبابا من الأملاك ، وكان هذا الاتفاق يدل على أن ڤكتور عمانويل قد غير رأيه فى اتخاذ روما عاصمة لمملكته وأراد الإمبراطور أن يؤكد هذا التأثير فى نفس الأمة الإيطالية فأغرى ملك إيطاليا بنقل حكومته من تورين إلى فلورانسا ، وكان الإمبراطور يعلم أن الحكومة الإيطالية لا تستطيع الاجتراء على مس الشعور الإيطالى بترك روما وإظهار اليأس من استردادها ، ومن ناحية أخرى فإن الحزب الكاثوليكى فى فرنسا متى عرف أن أملاك البابا مصونة محروسة لم يجد سبيلاً للاعتراض على سحب الجنود الفرنسيين من روما ، وقد وافق الملك مرغماً على هذا الاتفاق لأنه كان يعلم ما يجره عليه من المتاعب .

وقد انتقد متزينى هذا الاتفاق ، وعارضه معارضة شديدة ، لأنه يخون آمال الأمة ويلوث شرفها ، فالجنود الفرنسية ستظل محتلة جزءاً من الأراضى الإيطالية مدة عامين ، وتضمن إيطاليا بعد انقضاء

هذه المدة خصمها اللدود الذى لا يعرف التردد فى إيذائها وتحافظ على سلطته الزمنية التى كانت مصدر شر لإيطاليا وباعث فساد ، والحكومة الإيطالية بهذا العمل تستبقى فى داخلها حصناً من حصون الرجعية والشقاق والإفساد ، وتسمح بوجود جيش من المرتزقة المفسدين فى صميم أرضها مما يزرى بحياتها المدنية وينال من عزتها القومية ، واستنكر متزينى تنازل الحكومة عن حقها الأبدى فى روما وهى منزل ذكرياتها القديمة وأمجادها السالفة ومعقد آمالها وطموحها ورمز ماضيها وعنوان مستقبلها وذلك كله ترضياً لنزوات رجل اتخذ إيطاليا قطعة من قطع الشطرنج فى رقعة لعبته السياسية وطالما استذلها واستخف بها وأهدر كرامتها وأساء معاملتها وأقام العقبات والعثرات فى طريق استقلالها ووحدتها ، وقد ساعدها مرة فى استرداد لومبارديا خدمة لمطامعة ولقاء استقطاع جزء من أرضها ، ولم يلبث أن عاد وأضاع جميله وأفسد صنيعته وقلب لها ظهر المجن بعقده صلح ڤلافرانكا وهددها بأنها إذا لم تقبل الأمر الواقع وأبت إلا متابعة الحرب لاسترداد ڤنسيا فإنها ستجد نفسها أمام عدوين بدلاً من عدو واحد ، وعد قبول هذا الاتفاق صدمة للعزة القومية وقضاء على أسمى آمال الإيطاليين وهو الأمل فى جعل روما عاصمة الدولة الإيطالة ، والواقع أن هذا الاتفاق المهين ملأ قلوب الوطنيين الإيطاليين ألماً ونقمة ونفوراً من الحكومة الإيطالية ، فقد كانت آمال الإيطاليين متعلقة بروما حائمة حولها مرتبطة بها منذ اتسق لهم أمل وجاهدوا للاستقلال والوحدة ،

وقد أبعد اتفاق سبتمبر الوطنيين عن الحكومة وأفقدها عطفهم وأدى إلى تجديد النزاع بينهم وبين السلطة الحاكمة ، وقد أوجز غاريبالدى التعبير عن هذا الشعور الدمقراطى العام فى قوله « ليس هناك سوى اتفاق واحد مع بونابرت وهو أن يريح البلاد من حضوره » .

وانتقلت الحكومة من تورين إلى فلورانسا واتخذتها عاصمة لها ، وقد أثار ذلك الشعور القومى ، وقام الشعب بمظاهرات أخمدها الجيش مرتين وقتل فيها وجرح قرابة مائتين من الإيطاليين فى تورين ، وتلقى الملك خطابات من مجهولين تعبر عن الغضب والحنق والنقمة وثورة الخواطر ، واضطر إلى مغادرة العاصمة حتى تهدأ الأحوال ، وسرت إشاعات تقول إن هناك اتفاقاً سرياً مضمونه أنه إذا حصلت إيطاليا على روما أو ڤنسيا بدون إذن نابليون الثالث فإن جزءاً كبيراً من پيدمونت سيضم إلى فرنسا ، وأكدت الحكومة أن هذه الإشاعة لا نصيب لها من الصحة ، ولكن الشك ظل يساور النفوس فقد سبق لكاڤور أن كذب بشدة تنازله عن ساڤوى ونيس وظهر بعد ذلك زيف هذا التكذيب وبطلانه ، وكان من دواعى الأسف أن تصبح كلمات الوزير الإيطالى كمية مهملة وموضع الشك .

ووجدت الأحزاب الإيطالية المختلفة أن محاولات استخلاص روما فى تلك الظروف غير مجدية ، وأن مشكلة الساعة هى تحرير ڤنسيا من نير النمساويين وطردهم منها ، ولم يكف متزينى عن العمل لهذه الغاية ، وفى سنة ١٨٦٥ اتفق متزينى مع فريق من أعضاء

مجلس النواب الإيطالى على إحداث ثورة فى إبريل وإعداد العدة لذلك ، ووعد متزينى كعادته أن يكظم ميوله الجمهورية فى أثناء الحرب ، وأيد النواب رأيه ووافقوا على الخطة التى وضعها لجمع المتطوعين الذين يساعدون الثائرين ، وشاطر رئيس الوزارة لنزا Lanza متزينى آراءه ووافق على أن ڤنسيا هى الطريق إلى روما ، وسمح باستمرار الاستعدادات التى كان يقوم بها متزينى ، ولكن سقطت وزارة لنزا فى أثناء ذلك ، وخلفه لامارمورا ، وكان رجلاً مستقيماً ولكنه متطرف فى محافظته ، يكره الثورات ، ويمقت الاستعدادات الثورية ، فأمسك عن تشجيع هذه الحركة .

وفى تلك السنة بدأت مفاوضات بين بسمارك ولامارمورا لعقد تحالف دفاعى وهجومى بين بروسيا وإيطاليا ، وبمقتضى هذا التحالف كانت إيطاليا تضم ڤنسيا وبروسيا تضم كذلك أرضاً مقابل ذلك ، وأمضيت المعاهدة فى إبريل ، وبعد إمضائها بثلاثة أشهر أعلنت بروسيا الحرب على النمسا ، وتلتها إيطاليا فأعلنت الحرب على النمسا ، وحرض متزينى الجمهوريين جميعاً على الانضمام إلى الصفوف فى محاربة النمسا ، وأعطيت لغاريبالدى قيادة إحدى فرق المتطوعين ، وكثر إقبال المتطوعين على التجنيد إلى حد أن لامارمورا — الذى كان قد استقال من رياسة الوزارة ليتولى قيادة الجيش — هاله الأمر ، ولم يوافق إلا على قبول تسليح ما يقرب من نصف عدد هؤلاء الراغبين فى التطوع وإرسالهم إلى جبهة القتال ، ولم تكن الأسلحة التى زُودوا

بها من الصنف الجيد ، ولم يكن غاريبالدى راضياً عن الأسلحة ولا عن النظام ، وكانت وطنيته وحدها هى التى تمنعه من الاستقالة ، وطلب إعارته بعض الضباط النظاميين وبعض المدافع ، ولكن طلبه لم يجب ، وهزمت الجيوش الإيطالية فى معركة كستوزا وانتصر البروسيون فى معركة سادوا ، وكان الإيطاليون بعد هزيمتهم فى كستوزا قد أعادوا تنظيم صفوفهم واستعدوا لمنازلة النمساويين ، ولكن فى ذلك الوقت ظهر لويس نابليون على المسرح وأرسل برقية أوضح فيها أن النمسا قد اقترحت تسليم ڤنسيا له ليسلمها إلى الإيطاليين ، وحث الحكومة الإيطالية على قبول الهدنة ، وبعد إرسال البرقية بثلاثة أيام أتبع نصيحته بتهديد يقول فيه « إذا لم تقبل الحكومة الإيطالية طلب الهدنة فإنه سيرد ڤنسيا للنمسا وإنه قد ينضم إلى صفوفها » .

وقد يبدو هذا الموقف غريباً من نابليون الثالث بعد تشجيعه إيطاليا على خوض غمار هذه الحروب ، ولكنه لم يكن مناقضاً لسياسته ، فقد رحب بالحرب بين الأمتين الألمانيتين ، وكان يعتقد أن بروسيا ستغلب فى هذه الحرب وتوافق على إعطائه أراضى الراين السفلى لأنه كان يطمع فى امتلاكها منذ حين ، وكان يعتقد أن بروسيا ستوافق على إعطائها له تلافياً لاتفاقه مع النمسا ، وكان يرضيه أن تفقد النمسا ڤنسيا إضعافاً لقوتها لكى يصبح هو محرر إيطاليا من الألب إلى الأدرياتيكى وبذلك يوطد دعائم عرشه فى فرنسا ويرفع مكانته فى إيطاليا ، وكان يود من ناحية أخرى تحسين علاقته بالنمسا ، ولذا وعد بالحياد قبل

نشوب الحرب ، وقد أزعجه انتصار بروسيا فى معركة سادوا لأنه هدد النمسا بالانهيار وكان من ناحية أخرى يمهد السبيل لظفر إيطاليا بفنسيا بغير حاجة إلى تدخله ، ولذلك أثر أن يتقدم لإنهاء الحرب وإنقاذ النمسا وإيقاف تقدم بروسيا والحد من طموح إيطاليا وتأكيدها لإدارتها

وتهديد نابليون الثالث للحكومة الإيطالية بالتحالف مع النمسا ربما كان من قبيل التهويل والرغبة فى التهويش والمخادعة ، ولكنه بدا لرجال الحكومة الإيطالية أمراً مفزعاً وخطباً جليلا ، وقد علمهم الخوف من الإمبراطور أن لا يتجاهلوا مثل هذا التهديد كما فى قول النابغة الذبيانى حينما أوعده النعمان .

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد

وكذلك لاقرار لرجال الحكومة الإيطالية على زأر الإمبراطور نابليون الثالث ؛ ولكن لامارمورا لم يكن راغباً فى عقد الصلح والجيش لا يزال سليماً برغم الصدمة الأولى ، وكان يؤيده فى ذلك ريكاسولى الذى كان رئيساً للوزارة حينذاك ، وكانت الموافقة على عقد الصلح معناها الاعتراف بالهزيمة وإضاعة الفرصة المتاحة للمملكة الجديدة لتثبت قوتها وتجنى ثمار النصر بيدها ، وشعر كل ذى همة وإباء من الإيطاليين بما تنطوى عليه هذه المعاملة من إذلال للكرامة وإهدارا للحقوق ، وفضلاً عن ذلك كله فإنه لم يكن من الميسور إجابة الإمبراطور إلى طلبه قبل استشارة بروسيا حليفة إيطاليا ، ولكن بدلاً من تقدم الجيش بعد معركة سادوا فى فنسيا لاستعادة المكانة الحربية فإنه أمضى

عشرة أيام فى هدوء مريب غريب ، وزادت رغبة الإمبراطور فى إرغام إيطاليا على عقد الصلح ، وشعرت النمسا بتأييد الإمبراطور لها ، وبدأت بروسيا مفاوضات الصلح مع النمسا ، وأصيبت إيطاليا بكارثة بحرية فاستسلمت لضغط الحوادث وعقدت صلحاً مع النمسا استردت به ڤنسيا ، وأخلت الجيوش الإيطالية ترنتينو التى غزاها غاريبالدى ، ودخل ڤكتور عمانويل ڤنسيا يوم ٧ نوفمبر وكان يوماً مشهوداً قال عنه الملك « إنه أجمل يوم من أيام حياتى » .

الفصل الثانى عشر

استرداد روما ــ خاتمة مترينى

كانت معاملة نابليون الثالث لإيطاليا فى هذه الفترة تكشف عن أغراضه الحقيقية فى جلاء ، كان غاضباً حانقاً لإخفاق خططه وخيبة آماله ، فقد كان ينتظر أن يرى بروسيا الخانعة المنهزمة المستعدة لتسليم الجزء الذى يطمع فى امتلاكه من أراضى الراين ، ولكنه بدلا من ذلك رأى فى ألمانيا حكومة قوية ترفض التسليم والتفريط فى أية ناحية من نواحى الوطن ، وأغضبه موقف إيطاليا وأسلوبها البطئ فى قبول قنسيا وإصرارها على استفتاء الأهالى قبل هذا القبول والاعتراف بالضم ، وقد زادت الحرب الأخيرة كراهة الإيطاليين للإمبراطور الذى كان لا يكف عن اتخاذ إيطاليا وسيلة لتحقيق أهدافه ولا ينفك يسىء إلى شعورها ويعترض أمانيها القومية ويضغط على حريتها وينال من عزتها ، وكان يريد أن يشعر دائماً بأن إيطاليا من خلقه وأنه رب نعمتها وحامى حوزتها ، ومن أقوال وزيره رويه Rouher « إيطاليا من ابتكارات الإمبراطور » وكان يريد أن تظل إيطاليا شاعرة بحاجتها إليه ، واعتمادها عليه ، واستمطارها جوده ، والتماسها رضاه ، ولم يقدر أن طعناته المتداركة لشعورها القومى واستهانته بكرامتها وعزتها القومية وتردده

وتقلبه فى ملاينتها ومخاشنتها كان يحز فى قلوب أهلها ويتغلغل فى مسارب نفوسهم ومعاقد آهوائهم فغير غريب أن يضمروا له العداوة والكراهة ، ويضيقوا به ذرعاً ، ويملوا سياسته ، ويتمردوا على أساليبه وطرائقه ، وقد دارت مفاوضات بينه وبين الملك فكتور عمانويل فى سبيل عقد محالفة بين إيطاليا وفرنسا للوقوف فى طريق بروسيا ، وكان الملك ميالاً إلى هذه المحالفة ، ولكن الشعب الإيطالى رفض هذه العبودية التى طال أمدها وكان أقوى من حكامه شعوراً بالكرامة وأشد منهم إباء للضيم !

وتمادت فرنسا فى الإساءة إلى الشعور الإيطالى فأعلنت أن روما لن تصبح تابعة للإيطاليين ، وأعلن بعض الوزراء الفرنسيين أن موقف الإيطاليين من روما ومطالبتهم بها ضرب من ضروب إنكار الجميل الذى أسدته فرنسا لإيطاليا ، ومما زاد غضب الإيطاليين ونقمتهم أن فرنسا بعد أن سحبت جيشها من روما حسب شروط الاتفاق المبرم بينها وبين الحكومة الإيطالية ظل جيش البابا مكوناً إلى حد كبير من الجنود الفرنسيين النظاميين بعد أن أطلقوا على أنفسهم اسم المتطوعين ، واشتد ضغط الشعب على الحكومة للعمل على ضم روما ، وتردد راتاتزى الذى كان رئيساً للوزارة فى هذه الفترة بين إرضاء فرنسا وإرضاء الشعب ، واستقر رأيه أخيراً على مناصرة الشعب فى المطالبة بروما ، فأغضى على ذهاب غاريبالدى إلى حدود روما ، ولم يعارض الملك فى ذلك حتى جاءته رسالة من نابليون الثالث يهدد فيها الحكومة الإيطالية بأنها إذا عجزت عن حماية أملاك البابا فإنه سيتدخل لحمايتها ، فجاوبه ملك

إيطاليا - بأنه سيبادر إلى احتلال أملاك البابا ، وتردد نابليون الثالث إزاء هذا التصميم غير المنتظر الذى أبداه ملك إيطاليا ، ولما حرضه وزراؤه أعاد الإنذار ، وتشجع راتاتزى وزملاؤه وأعلنوا أنهم لا يخضعون لأوامر الإمبراطور واستحثوا احتلال روما مهما كان الثمن ، ولكن الملك ڤكتور عمانويل خذلته شجاعته ورفض طلب وزرائه فاضطر راتاتزى إلى الاستقالة .

وفى أواخر أكتوبر من تلك السنة حدثت ثورة فى روما ، وكان غاريبالدى الذى فر من مقره فى كاپريرا قد تقدم إلى روما على رأس جيش من المتطوعين ولم يكن هذا الجيش حسن التسليح ، ولما بلغ الإمبراطور نبأ الثورة التى حدثت فى داخل أملاك البابا ونبأ زحف غاريبالدى على روما أمر بإرسال حملة من ميناء طولون ، وتقدمت الجيوش الإيطالية من حدود أملاك البابا ، وفى غضون ذلك نزلت الجيوش الفرنسية فى شڤتياڤكيا وهزمت بطبيعة الحال غاريبالدى ومتطوعيه ، وأسرعت الجيوش الإيطالية فى الابتعاد عن حدود أملاك البابا واعتقلت الحكومة الإيطالية غاريبالدى لتسترضى الإمبراطور ، وبعد أن قضى الجيش الفرنسى بضعة أشهر فى روما استقر فى شڤتياڤكيا .

وجرح تدخل الفرنسيين على هذه الصورة الشعور الإيطالى جرحاً بليغاً ، وساء الإيطاليين اعتقال غاريبالدى ، وكان وجود الجيش الفرنسى فى الأراضى الإيطالية باعث ألم ونقمة فى نفوس الإيطاليين ، واتبعت الوزارة التى رأسها منابريا سياسة رجعية فى كل ناحية من

النواحى ، فاستنكرت الدعوة إلى ضم روما ، وحلت الجمعيات الدمقراطية ، وتقربت من البابا ، واضطهدت الصحافة ، وتفاقم الخلاف بين الشعب والحكومة ، وضعف الولاء للملك ، وزاد هذا الولاء ضعفاً ما كان يشاع عن الملك فى حياته الشخصية الخاصة ، وعم السخط والتذمر ، والجيل الذى تعلم من مترينى درس الواجب وتلقى عنه الآمال العريضة والمثالية المحلقة لم تعجبه سياسة الحكومة ، ولم يقر خطتها ، ولم يرضه موقفها ، وقويت النزعة الجمهورية ، ووجدت لها أنصاراً ومؤيدين حتى بين رجال الجيش .

وفى سنة ١٨٦٧ أخذ مترينى يعد خطة سرية للاستيلاء على روما ، ولم يفض بتفصيلات هذه الخطة لأحد من أصدقائه الإنجليز ، واكتفى بأن قال لصديقته إميلى ڤنتورى « إن هذه الخطة متوقفة على حدوث ثورة فى روما نفسها » ، وكان يود أن يشترك معه غاريبالدى فى العمل على إنفاذ هذه الخطة ، ولكن غاريبالدى كان هدفاً لدسائس الحريصين على التفريق بينهما ، وفى شهر أغسطس من تلك السنة ذهب إلى القارة لينظم حزبه ويختبر الأحوال بنفسه ، وتوغل فى أملاك البابا ، ولو كشف أمره هناك لألقى به فى غيابات السجن وقضى عليه ، وفى أواخر شهر أكتوبر وأوائل نوفبر تقدم غاريبالدى إلى روما كما ذكرت من قبل ، واستدعى ذلك حضور الجيش الفرنسى والجيش الإيطالى ، وثبتت أقدام الفرنسيين فى أملاك البابا وتحطمت آمال مترينى . وأصيب وهو فى ليجانو بمرض شديد ، وتزايد عنده ألم المعدة العصبى الذى كان

يهاجمه ، وقاومه كعادته بشحذ العزيمة حتى تغلب عليه إلى حدما بصعوبة ، وأحزنه إخفاق خطة استرداد روما ، وجعل المرض يعاوده فى شدة بالغة ، وفى ديسمبر عاد إلى إنجلترا فى صحبة أحد أصدقائه الأوفياء المخلصين ، ولما عاد فى سنة ١٨٦٨ إلى ليجانو اشتد به المرض إلى حد الخطورة ، وقد حفه فى مرضه بعض الأصدقاء المخلصين وشملوه بعطفهم ورعايتهم وخفت وطأة العلة ، وفى ربيع سنة ١٨٦٩ أبعد متزينى من ليجانو ، فذهب إلى سويسرة ، وكان مضطراً إلى التخفى والاستتار ، وفى أوائل سنة ١٨٧٠ جاء إلى چنوا ، وكان مشغولاً بتدبير انقلاب شامل يمكن أنصاره من الاستيلاء على زمام الحكم واسترداد روما وتحدى الفرنسيين معتمدين على موارد الدولة وتأييد الشعب .

وكانت فرنسا فى سنة ١٨٦٧ بدأت مفاوضات مع النمسا وإيطاليا لعقد تحالف ثلاثى لمقاومة بروسيا ، وقد أغضبت بروسيا نابليون الثالث حينما عقدت معاهدات مع الولايات الألمانية الجنوبية ، وكان نابليون يمقت فكرة ألمانيا المتحدة ، واستؤنفت المفاوضات فى سنة ١٨٦٨ بمكاتبات سرية بين الإمبراطور وفكتور عمانويل الذى كان يميل إلى محالفة فرنسا ، وكانت حكومته تجهل أمر هذه المفاوضات ، ولما علم بها منابريا رئيس الوزارة وبعض زملائه أيدوا فكرة التحالف الثلاثى بالرغم من أنهم كانوا يعرفون كراهة الأمة الإيطالية لمثل هذا التحالف ، ولكنهم اشترطوا جلاء الفرنسيين عن شقتياڤكيا ، فرفض

نابليون ذلك ، وكان عناد الإمبراطور خيراً لإيطاليا .

وفى عشرين يوليو سنة ١٨٧٠ نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا ، وكان أصحاب النظر البعيد من أعضاء الوزارة يعارضون فكرة محالفة فرنسا ، لأنهم كانوا يرون أن انتصارها على بروسيا يزيد نفوذها فى إيطاليا ويقوى سلطة البابا ، ولما ترامت أنباء هذه المفاوضات إلى مسامع الشعب قامت مظاهرات احتجاج شديدة فى العواصم الإيطالية ولكن الملك لم ييأس ، وأرسل الإمبراطور الأمير چيروم نابليون بعد كارثة جراڤيلوت إلى ملك إيطاليا يعده فيها بأن يترك له حرية التصرف فى روما إذا أرسل جيشاً لمساعدته ، ولكن الاقتراح جاء متأخراً ، وكان الوزراء العقلاء قد حذروا الملك عاقبة محالفة الإمبراطور لما فيها من استهانة بالشعور القومى ، واسترعوا نظره إلى أن هذا التحالف يعرض عرشه للخطر ، وأنه ليس من أصالة الرأى ربط مصير إيطاليا بإمبراطورية قد آذنت بالسقوط .

وكان متزينى — مثل سائر أفراد الأمة الإيطالية — يميل إلى بروسيا ، وكان يعتقد أن انتصارها يرغم الفرنسيين على سحب جنودهم من روما ، ولم يكن متزينى يرتاح إلى الأساليب التى أتبعها الكونت بسمارك لإيجاد الوحدة الألمانية ، ولكنه كان معجباً بمثابرته وإصراره وهمته واستقلاله وترفعه عن الخضوع لرأى أجنبى .

وكان متزينى يرى أن الحكومة الإيطالية لا تمثل إرادة الأمة الإيطالية ، وأنها حجر عثرة فى طريق التقدم القومى ، وقد فرضتها

على الأمة الإيطالية دسائس كافور والدبلوماسية الفرنسية وقوة الظروف ، وقد ترتد هذه الحكومة إلى اتباع الأساليب الاستبدادية العتيقة ، وأنها تحابي الطبقة الأرستقراطية ، وهو يرمى إلى رفع مستوى الشعب جميعه فى حين أن الحكومة توقع النفور بين الطبقات ، ونتيجة ذلك وبال على الأمة وتهديد لكيانها وإغراء لطبقة العمال بالاتجاه إلى المذهب المادى والميل إلى مبادئ الفوضوية ، فمحاولته إسقاط هذه الحكومة ليست مسألة حزبية وإنما هى مسألة قومية قبل كل شىء ، والبلاد فى حاجة إلى برنامج قومى ، والبرنامج القومى يتطلب حكومة قومية ، والحكومة الإيطالية التى تمثلها أسرة سافوى تقاوم مثل هذا البرنامج وتعمل على إحباطه ، ولذلك تقتضى مصلحة البلاد إسقاطها وأن تستبدل بها حكومة أخرى .

وسعى سعيه وبذل جهده وحمّل جسمه الواهن الضعيف أكثر مما يحتمل ، وقام برحلات سرية إلى جنوا وغيرها من البلاد الإيطالية ، وعقد اجتماعات ليلية لبث دعوته ، واعتزم إشعال الثورة هذه المرة فى صقلية ، وسافر إلى پالرمو ليشرف عليها بنفسه ويتولى قيادتها ولكن أحد الخونة المأجورين كان مندساً بين رجاله ، وكان ينقل أخبار اجتماعاته إلى رجال الحكومة ، واعتقلته الحكومة فى پالرمو ، ونقل إلى إحدى سفن الأسطول الإيطالى وعومل معاملة الضيف الممتاز لا معاملة الأسير المعتقل ، وحمل إلى حصن جيتا وتلقاه الحرس بالإكبار والاحترام ، وقد اشتد به الضعف ، وغلب عليه الحزن ، ولكنه كتم بثه ، ولم

يشك ما به ، وكان يقول « أمامى البحر الواسع الأرجاء وفوقى سماء إيطاليا وحسبى ذلك » وكان عنده ديوان بيرون وشعر دانتى وشكسبير وتاسُّو وهى نفس الآثار الأدبية التى كان يقطع الوقت بقراءتها وهو معتقل فى سجن سافونا .

وكانت الحكومة تغير الحراس بسرعة غير معتادة لأنهم كانوا سرعان ما يؤخذون بسحر متزينى ، ويقعون تحت تأثيره ، ويعبدونه عبادة ، وكان يراقب الحوادث ويسمع الأخبار ، ومن تلك الأخبار التى استرعت نظره ذهاب غاريبالدى إلى فرنسا ليدافع عن الإمبراطور ، وكان يؤمل أن يكافئ الإمبراطور جهوده برد نيس مسقط رأسه إلى إيطاليا ، وقرأ متزينى فى الصحف أخبار معركة جراﭬلوت ومعركة سيدان وسقوط الإمبراطورية الثانية ونفى نابليون الثالث .

وفى شهر سبتمبر دخلت جيوش الملك روما ، وضمت روما إلى إيطاليا بعد إجراء استفتاء شعبى ، وتوحدت إيطاليا ، وفى أكتوبر رفض سجين جيتا العفو الشامل وأطلق سراحه بغير شرط ، وغادر الحصن ، ورحب به الشعب ، وصحبه الكثيرون وهو يشاهد معالم المدينة ويزور قبر سيشرون ، وسافر مع صديقته إملى ﭬانتورى إلى ليجورن ليلتقى بعض أصدقائه ، وغادرها إلى جنوا ليزور قبر والدته ، وذهب إلى المقبرة فى الليل ، وعرفه حارس المقبرة ، ولما خرج من المقبرة وجد جماعة من الفقراء وبينهم قسيساً قد اصطفوا على باب المقبرة وانحنوا احتراماً له وهو يمر بينهم ولم يرفعوا صوتهم فى تحيته كأنما أرادوا أن

يشعروه بمشاركتهم له فى حزنه وأساه .

وكان متزينى محزون النفس موجع القلب يشعر فى ألم بأن حلم حياته لم يتحقق ، وبأن آماله قد خابت ، فإيطاليا العظيمة الجميلة السامية التى كانت تتمناها نفسه لم تتح لها الحياة ، وكانت إيطاليا الماثلة لعينه شبحاً ضئيلاً وصورة دميمة لإيطاليا المثالية التى كان يريدها ، وقد خذله الأعوان ، وتخلى عنه الأتباع حتى وجد نفسه غريباً فى بلاده وبين قومه .

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى   إن النفيس غريب حيثما كانا

وقال عن نفسه « لقد حاولت أن أهيب بروح إيطاليا وهاأنذا لا أرى غير جثتها » وأدرك أن أحلامه فى الجمهورية عسيرة التحقيق ، وأن كل ما يستطيع عمله هو تربية بنى وطنه وبخاصة طبقة العمال ، وأنشأ جريدة « روما دلپوپلو » لإذاعة آرائه وساعد فى تنظيم « جمعيات الصداقة » ودعا إلى إيجاد فصول مسائية للعمال ومكاتب عامة ، وجمع مبالغ من المال لإنشاء جمعيات للإنتاج التعاونى ، وكان فى مأموله أن يكتب كتاباً عن تاريخ إيطاليا وكتاباً آخر عن التربية الوطنية ، ولكنها كانت آمالا لم يستطع تحقيقها .

وكان أهم ما شغله فى هذه الأونة محاربة الاشتراكية غير الناضجة التى ذاعت وأخذت تؤثر فى طبقة العمال ، وكان المؤتمر الدولى للعمال قد أصبح ميداناً للصراع بين باكونين زعيم الفوضويين وكارل ماركس زعيم الاشتراكيين ، وكان لمتزينى بعض علاقات بالدولى فى أول

نشأته واتصال بالزعيم باكونين ، وقد نصح أتباعه من العمال بالانضمام إليه ، وحاول أن يجعله جمعية سياسية ثورية ولكن معارضة كارل ماركس تغلبت عليه فانسحب من الدولى واتجه الدولى اتجاهاً آخر غير اتجاه مترينى ، وكان مترينى يخالف الفريقين المتطاحنين فى الدولى وينكر على الدولى الإلحاد والفوضوية ، والواقع أن آراء مترينى فى الدين والقومية والاقتصاد لم تكن تتفق مع آراء زعماء الدولى البارزين ، ولم يكن راضياً عن الجمهورية الفرنسية الثالثة ، وكان يعدها جمهورية فى المظهر لا فى الجوهر ، وفضلاً عن ذلك فهى لم ترد إلى إيطاليا نيس ، ولما قرأ كتاب رينان عن الإصلاح الفكرى أكد له عدم ثقته بفرنسا وكتب وهو يكاد يكون على فراش الموت نقداً شديداً لهذا الكتاب عبر فيه تعبيراً قوياً عن يأسه من الروح السارية فى الكتاب .

وأراد مترينى أن يقضى اليوم الأول من أيام سنة ١٨٧١ مع أسرة الأشرست فى لندن ، ولكن البرد الشديد والثلوج الكثيفة المتساقطة فى الألب أخرا ذهابه ، وأعد قائمة بالهدايا التى يقدمها لأصدقائه منها هدية لصديقه الطفل چو ، وفى أوائل يناير عبر جبال الألب وقضى أسبوعاً مريضاً ، ولحظ أصدقاؤه فى إنجلترا ضعف صحته ووهن بنيته ولقد تعب هذا الجسم الواهن فى مراد هذه النفس الكبيرة ، وزاره كارلايل وقد هزل جسمه وفلت الأيام عزمه ، وقضيا معا ساعة من الزمن فى ذكريات حزينة ، وشعر كارلايل وهو يحييه منصرفاً أنها تحية الوداع ، وأن هذا آخر عهده بصديقه القديم ، وناقده الأبى الوفى .

وعاد فى فبراير إلى ليجانو ، وانغمس فى أعماله التى لم يكن لها نهاية من تدبيج الفصول والرسائل وتقديم المطالب ، ولم تساعده قوته على الاضطلاع بهذه الأعباء وموالاة العمل بحماسته المعهودة ومثابرته الدائبة فقد كان يشكو من الربو ومن الدوار وتشنج العضلات ، ولكنه كان يحمل نفسه على العمل حملاً ، وفصوله التى أذاعها بجريدة روما دلپو پلو تكشف لنا عن قوة الإرادة التى كانت تغالب العلل وتدفعه إلى العمل ، وكان يكتب فى موضوعات شتى سياسية واقتصادية وأدبية وأخلاقية ، وكان يرى الأخطار الماحقة تطالع أوربا من كل ناحية ، ولا منجاة لها إلا بخلق العقلية الأوربية الجديدة ، وإيجاد اليقين الاجتماعى ، والاعتراف بسلطة عليا تسمو على المصالح المادية ، وأوربا ينقصها اليقين الذى يؤلف بين القلوب ، ويقرب ما بين الأمم ، والعقل الأوربى فى مهب رياح المصالح والنزوات ، وكانت شؤون إيطاليا فى طليعة الأمور التى تشغله وتستأثر بتفكيره ، وقد كتب فى هذه الفترة إلى أصدقائه من الإنجليز يقول « إنى عاكف الآن على أمرين ، الأول هو أن أقنع بأفكارى جزءاً كبيراً من الطبقة المتوسطة والأمر الثانى هو أن أنقذ طبقة العمال الإيطاليين من الدولى وغيره من المؤثرات السيئة » .

ولكن تحذيراته وتوجيهاته ونصائحه وإرشاداته لم يلتفت لها الالتفات المنظور ، وقراء جريدته فى إيطاليا لم يتجاوز عددهم الألفين ، وساءت العلاقات بينه وبين غاريبالدى ، فقد عاد غاريبالدى من فرنسا غاضباً

ناقماً همه أن يصب نقمته على مترينى وأنصاره ، وخرج عليه بعض أنصاره وعارضوا آراءه وأخته الباقية على قيد الحياة رفضت قبوله فى منزلها إلا إذا كف عن التهييج السياسى ، ولم يكن له فى إيطاليا الجديدة عزاء ولا سلوى ، وفى هذا اليأس المكتسح الغامر كان يتسلى بالكتابة وإشعال لفافات التبغ ! كتب إلى صديقته إملى أشرست « إنى لا أنقطع عن التدخين ، ويؤسفنى أن أقول ذلك ، ولكن ماذا أصنع ؟ إنى أكتب بغير رغبة وإنما بدافع من الواجب وبغير حماسة وفى التدخين مسلاة لنفسى وتفريج لكربها » وكانت تمر به ساعات يشعر فيها شعوراً أليماً بأنه لم يبق له مكان فى هذه الدنيا ، كتب إلى صديق له يقول « من العجائب أن أرى كل من أحببتهم يختفون واحداً بعد الآخر وأظل حياً ولست أدرى لم هذا » ، وفى بعض الأوقات كان يطيل التفكير فى أصدقائه الأعزاء الذين طواهم الموت وتعرض له صور والده ووالدته وشقيقتيه وصديقه جاكوپو وپسكالى وأجوستينو رافينى وچين ولش كارلايل ، وضمت أخيراً إلى قائمة هؤلاء الأعزاء صديقته العزيزة جويديتا ، وقد كانت فى موتها — كما كانت فى حياتها — تؤمن برسالته وتدين بأفكاره وعقائده ، وقد استعانت على احتمال ساعاتها الأخيرة برسالة منه إليها يقول فيها « عزيزتى ، أنت تعانين الآلام وقد اشتد بك المرض ، وإنى أعهدك شجاعة مؤمنة مستسلمة لقضاء الله ، وعلمك أن أحد أصدقائك القدامى يرعاك بروحه وأنت طريحة الفراش قد يكون له عندك قيمته ، وقد يخفف عنك الألم بعض التخفيف ، وإذا كان

الأمر كذلك فكونى واثقة به كل الثقة ، وإنى لم أنقطع عن التفكير فيك ، والإعجاب بك ، وحبك باعتبارك نفساً من أحسن النفوس التى لقيتها فى رحلتى خلال الحياة ، وآمل أن تبقى لنا ، ولكن إذا كان لابد من انتزاعك منا فلا ينبغى أن تخافى ما يسميه الناس الموت فليس هو أكثر من تحول وانتقال ، وفى أحد الأيام ستلقين الذين أحبوك ومن أحببتهم ، فثقى بالله ، وثقى بقانونه ، وثقى بضميرك الخالص النقى ، واجعلينى من بعض ما تفكرين فيه ، وباركى لى ، وإنى لا أجترئ على أن ألتمس لك البركات ولكن قلبى معك ، صديقك چوزيف » .

وكتب بعد موت جوديتا إلى صديقته كارولين ستانسفلد يقول من رسالته : « مات كثير من الأصدقاء فى العام الماضى ، وأنا لا أنفك أردد فى نفسى قول جيتى « لقد لاذت بالصمت صغار العصافير فى الغابة ، فانتظر قليلاً فسرعان ما تجد أنت كذلك الراحة الكبرى »

ولم ينقطع عن العمل ولم ينصرف عن الكتابة ، واشتدت به نوبات الدوار ، وعاوده الربو ، وأصبح بذل أى مجهود يستلزم عزماً صارماً ؛ قال لصديقه صافى « إما أن يزول الربو ، وإما أن تزول حياتى ، وإنى أعزى نفسى بهذه المشكلة » .

وفى فبراير سنة ١٨٧٢ انتقل من ليجانو إلى پيزا ، وكان يسوءه أنه أصبح لا يستطيع أن يكافح المادية الطاغية إلا بكتابة بعض الفصول ، وبالرغم من المرض الذى كان يزداد شدة وخطورة ظل يجاهد إلى النهاية ، وكان جهاده فى أيامه الأخيرة مثل جهاده فى أيامه الأولى هدفه قبل

كل شيء تأكيد المعانى الروحية والقيم السامية ، ولم يكن بعد هذا الجهاد الشاق الطويل راضياً عن نفسه ، كان يزدرى كتاباته لأنه كان يعتقد أن التعبير الصحيح عن أفكاره إنما يكون فى عالم العمل لا فى عالم الكتابة ، وكان يود أن يرى أثر هذه الأفكار مجسماً فى الأعمال القومية ، ولما قرأ « أغنية إيطاليا » التى نظمها الشاعر البريطانى سوينبرن وأهداها إليه ضربية إعجاب ورمز تقدير أعجب بما فيها من صدق الشعور وكتب إلى صديقته إملى يقول « من أنا الذى تنظم له عقود المديح » .

وقد انتقل مترينى من ليجانوا إلى پيزا عملاً بنصيحة الأطباء ، فقد كان من أملهم أن جو پيزا المعتدل قد يساعد على إيقاف سير المرض ويعين على الشفاء ، ولكن حالته كانت تزداد سوءاً ، وكأن آخر كتاب أرسله إلى صديقته إميلى ڤنتورى قبل موته بأيام قلائل يرجوها فيه أن تساعد أحد الضباط الإيطاليين المنفيين على إيجاد عمل ، ويقول لها فيه « إنه رجل صالح وأمين إلى حد نادر » .

وكان وهو فى پيزا بمنزل صديقيه بليجرينو وچانيه روسلّى ، وكان الجيران يعرفون هذا الزائر العجوز باسم « المستر چورچ برون » ، وأصيب بذات الجنب ، واشتدت حدة المرض ، وتوالت هجماته ، وعجب الطبيب المحلى الذى استدعى لعلاجه حينما رأى عليله يجيد الكلام بالإيطالية وقال للحاضرين « يظهر أن المستر برون يحب إيطاليا ! ودوّت هذه الكلمات فى أذن المريض الوصب فتمتم قائلاً « أحب إيطاليا... أحب إيطاليا . . . لم يحبها إنسان قط أكثر مما أحببتها »

وفى صباح يوم ١٠ مارس فى حجرة حيطانها بيض وأثاثها بسيط وبها منضدة تكدست فوقها رسائل لم يفض غلافها وأصول فصول تنتظر المراجعة والتصحيح كان فى الفراش رجل نحيل معروق الوجه شاحب اللون يتكلم كلاماً شارداً متقطعاً عن إيطاليا ورجاله من طبقة العمال وعن المستقبل وعن الأيام السالفة ، واتفقت آراء ثلاثة من الأطباء على أن المرض قد بلغ أقصى مراحله ، وكان إلى جانب فراشه من أصدقائه چانيه روسلّى وسارينا ناثان وفليتشا دانينو وأدريانولى ، وبدا للحاضرين أنه يجاهد خصماً جهاداً عنيفاً رهيباً حتى صارت كلماته مضطربة متقطعة ثائرة مهتاجه . ثم جلس فجاءة فى الفراش ، وتحدث فى وضوح ودقة وبصوت مرتفع قائلاً « نعم ! نعم ! إنى أومن بالله » ونظر إلى الحاضرين نظرة العارف المودع ، واستلقى على الفراش ، وأطبقت عيناه ، وكانت الخاتمة .

وكان موته منتظراً ، ولكنه برغم ذلك كان صدمة قاسية لأصدقائه ومحبيه والمعجبين ببطولته وقادرى فضله وعارفى مكانته ، وكتب أحد أتباعه لصديقته إملى ڤنتورى يقول « لقد كنت أستمد منه الطاقة لعمل الخير فأما وقد ذهب الجسد فليذهب الظل » وكان آخر ما كتب رسالة وجهها إلى العمال الإيطاليين يحرضهم فيها على أن يحبوا إيطاليا بأن يعملوا من أجلها ، إيطاليا البائسة التى أنيطت بها رسالة سامية ولكن عاقها فى الطريق وأوقف تقدمها هؤلاء الذين لا يعرفون السبيل ولا يستطيعون أن يعرفوه ، ويوصيهم فيها قائلاً « إبذلوا أقصى ما فى وسعكم لتحققوا

لها الحرية والأخلاق والتربية ، وهى عظمة جديرة بمكانتها فى أوربا والرسالة التى قامت بها من أجل العالم أكثر من مرة ، وهذا هو أحسن السبل التى تظهرون بها حبكم لى ، وسأعينكم فى الطريق بالقدر الذى تسمح به قوتى ما دام فى عرق ينبض ونفس يتردد » .

وأخيراً رحب الوطن بالمنفى الشريد واحتفل به فى بلاده ودفن فى جنوا بمقبرة ستالينو إلى جانب رفات والدته ، وكتبت على قبره كلمات للشاعر كاردتشى » .

منها قوله :

« آخر الإيطاليين العظماء من القدامى وأول الإيطاليين العظماء من المحدثين ، المفكر الذى كان له قوة الرومان ويقين الاشتراكيين والذى فكر فى الأمة وأرادها وأوجدها ، وأغراضه النبيلة سخر منها الكثيرون من الذين يعملون اليوم على تشويهها ، وهو المواطن الذى أحب وطنه إيطاليا قبل كل شيء والرجل الذى ضحى بكل شيء والذى أحب حباً عظيماً وكان جم العطف واسع الرحمة ولم يضمر الكراهة لمخلوق » .

وعبر البحر المحيط بمنزل فى ضاحية شلسى جلس رجل مسن وحيد إلى جانب الموقد يعرض الماضى ويقلب صفحاته ويقول « إنى أذكر جيداً حينما جلس لأول مرة فى المقعد هناك منذ ست وثلاثين سنة ، ولم أر إنساناً أجمل منه صورة ، . . . وكان يمكن أن يشغل مكاناً سامياً فى عالم الأدب ، ولكنه ضحى بنفسه من أجل إيطاليا ، وعاش فقيراً ، وكانت والدته ترسل إليه النقود ، ولكنه كان يجود بها . . . وكان

يجئ هنا ويتحدث عن تضامن الأقوام ... وكان يُسعى إليه ، ويُدعى إلى العشاء وما إلى ذلك ، ولكنه كان زاهداً فى العشاء ، وأخيراً جاءت الخاتمة . . . وقد نجح بعد كل شيء ، . . . فإيطاليا قد توحدت ، وأصبحت روما عاصمة لها ... ويمكن أن يسرنا ذلك ، وسننتظر لنرى هل تقوم إيطاليا بشيء عظيم بعد الذى حصلت عليه » . . .

كان هذا الرجل صديق متزينى القديم وقريعه توماس كارلايل .

ومرت الأيام ، وتقلبت الحوادث ، وشاءت سخرية القدر أن يقوم تمثال متزينى فى چنوا بالمكان الذى هدد فيه كافور بشنق متزينى متى ظفر به رجاله وأصبح فى قبضة يده وهو پيازا أكواسولا ، وهو يمثل متزينى وقد وقف مضموم الذراعين حانى الرأس مستغرقاً فى الأفكار والتأملات كما كان فى حياته السياسية المثالية ورحلته الشاقة الدنيوية .

الفصل الثالث عشر

مترينى والنقد الأدبى

يرى المستر بولتن كنج أن حياة مترينى الملأى بالشواغل لو كانت تركت له متسعاً من الوقت أكثر مما كان يملك لصار من أعظم نقاد القرن التاسع عشر ، ثم يستدرك ويشير إلى أن الفصول الانتقادية التى كتبها ربما كانت ترفعه إلى هذه المكانة ، وما أتيح لى قراءته من كتابات مترينى فى النقد الأدبى تجعلنى أميل إلى الأخذ بهذا الرأى .

ولا نزاع فى أن مترينى بحكم ظروفه الخاصة وحياته القلقة العاصفة كان ينقصه فى فصوله الانتقادية الدقة المستوعبة والدراسة الشاملة المستفيضة ولكنه كان مع ذلك نافذ النظر ، قوى الملاحظة ، يدل نقده على الأصالة والطرافة وقوة الفطنة وحسن التهدى وسلامة الذوق ، ومع قوة إحساسه بجمال اللفظ وروعة التعبير فإنه لم يكن من هؤلاء النقاد الذين يقصرون همهم على تصيد العيوب ، والتماس الأخطاء سواء فى حياة المؤلف أو كتبه ، كان يؤثر أن يقرأ المؤلفين الممتازين بروح الإكبار والإعجاب متغاضياً عن عيوبهم ونواحى ضعفهم محاولاً أن يتغلغل إلى صميم أفكارهم ، ويتعرف جوهر رسالتهم ، ومن أقواله فى هذا الصدد ضمن مقاله البديع عن دانتى « فى العصر الحاضر لا نعبد العبقرى عبادة

عمياء ، ولا نسيء إليه أو نتجنى عليه ، وإنما نحاول أن نفهمه ، ونتعلم حبه ، والصور والقوالب فى نظرنا أمر ثانوى ومظهر زائل، والفكرة وحدها هى الشيء المقدس ، ونحن نحاول أن نرفع الحجاب الذى يسترها » وكان يشبه العبقرية بالشجرة ورسالة النقد هى هز أغصان تلك الشجرة لا محاولة اقتلاعها واجتثاث أصولها .

وللشعراء فى رأيه أهمية كبيرة وشأن عظيم ، والادب فى رأيه « كهانة أخلاقية » ومن كلماته عن الشعر « الشعر هو الحياة والحركة والحرارة المتقدة فى صميم العمل والنجم الذى يضيء طريق المستقبل وعمود النيران الذى يقود تقدم الناس عبر الصحراء ، والشعر هو الحماسة بأجنحة من النار ، وهو تلك الأفكار السامية التى توحى إلينا قوة التضحية ، كلا إن الشعر لم يمت ، الشعر خالد لا يموت مثل ينابيع الحب والحرية التى يستمد منها الهامه ، لقد هجر الشعر أوربا العجوز القديمة ليبث الحياة فى أوروبا الشعوب الشابة الجميلة ، لقد هرب مثل الطائر الغرد من البناء المتداعى ، مأواه السابق ، ليبحث عن عالم أزهى وسماء أصفى ، ولقد هجر العرش الملكى المنعزل إلى ساحة الشعوب وإلى صفوف الشهداء فى سبيل أمتهم وإلى سجن البطل الذى غُدر به ونُكث عهده وإلى المشنقة التى تنصب للمواطن ، فيا أيها الشعراء أنتم إخوة النسور فلماذا تديرون النظر إلى الخلف ؟ أنظروا حولكم وأمامكم ، إن الشعوب الأوربية تنتظركم . . . إرفعوا أبصاركم وكونوا رسل المستقبل . . . وانظروا قبل كل شيء للمستقبل وللشعب . . . »

وفى فصل له عن « الأدب الأوربى » يخاطب شعراء القرن التاسع عشر من الشبان قائلاً « أيها الشبان ، إن الإنسانية تعهد إليكم برسالة جليلة الشأن ، ففى الأيام الغابرة كانت الأمم تأتمن الشعراء على الأسفار التى استودعتها قوانينها وديانة آبائها ، وتقول للشاعر « لتكن مهمتك صيانة هذه الوديعة فى قلوب أبناء شعبك ، واعلم أن إلهاماتك لا تقدس ولا تحترم إلا فى داخل حدود وطنك » ، ولكنكم سيكون أمامكم العالم جميعه مسرحاً لفخاركم ، وكل نبضة من نبضات قيثارتكم ستكون تراثاً للبشرية ، وكل وتر تحركونه سيرن صداه ويترامى إلى ما وراء أقصى حدود البحر المحيط ، وقلوب سكان أوربا الراهنة تستجيب لروح الحب ولكن استجابة مختلطة مضطربة متفاوتة فى قوتها ، وقرون من الخطأ قد أزالت طابع أصولنا المتحدة العامة ، ولكن الله أعطانا الشعر ليؤلف ما بين الأخوان المشتتين المتباعدين ، وعملكم هو إيقاظ روح الحب وإشاعته فى كل ناحية وكسر الحواجز القائمة فى سبيل الأخوة البشرية ، وأن تتغنوا العواطف العامة الشاملة والحقائق الأبدية الخالدة ، ومن ثم كان لزاماً عليكم أن تدرسوا الآداب العالمية ، والذى لا يعرف سوى أدب أمة واحدة لم يقرأ سوى صفحة من الكتاب الذى احتوى أسرار العبقرية ، فاتحدوا فى مناجاة صامتة لهؤلاء الذين يعانون أحزاناً مثل أحزانكم وشاركوهم فى أفراحهم ، وجاهدوا لبلوغ الغرض الذى يقصدونه ، وليس يعنينا أكانت الشمس ترسل أشعتها خلال السماء الصافية الأديم أم كانت ترسلها خلال السماء الممتلئة بالسحب ،

فقلوب الناس جميعاً يسرع نبضها إذا تنسمت أنفاس الجمال ، ولكل إنسان دمعة وكلمة عزاء موقوفتان على صرخة المحزون الشقى ، وهل يوجد إنسان لا تتجدد روحه فى داخله حينما يذكر اسم الحرية ؟ ليكن ذلك مصدر وحيكم ، وستكون أشعاركم معبرة عن صوت الكون ، وإن شجرة الخلود لتزدهر فى نهاية طريق الحياة الممتد أمامكم ، وستغرسها الشعوب على قبر الذى يصل إلى الهدف فى الطليعة احتراماً له وإكباراً لشأنه ، وستخط الأبدية على ضريحه « هنا يرقد شاعر الطبيعة الذى أحسن إلى الإنسانية » .

والشعر فى رأى متزينى « ينقذ الدنيا من المحنة التى تعانيها » لأن الشاعر يستطيع أن يخلص الإنسانية من إسار الشكوك وأغلال المثل الوضيعة و « يكشف لها واجباتها ويبتعث أشواقها » وهو الذى يرفع الناس فوق تفاهات الحياة وصغائرها ويسمو بهم إلى الحقائق الخالدة ، ومن كلماته فى هذا الصدد « لقد نفينا الشعر من الحياة فذهب اليقين وتولت الحماسة وافتقدنا الحب بالمعنى الذى أفهمه والثبات على التضحية وعبادة الأعمال العظيمة والرجال العظماء » .

وكان يعتقد أن إيطاليا ليس بها سوى القليل من الحياة القومية النابضة والشعر لا يزدهر إلا فى ظلال الحياة القومية النابضة القوية ، والعصور التى يضعف فيها الإيمان تسلب الشاعر غذاءه ، فالعصر عصر النقد ، النقد البنائى ، والناقد الفيلسوف هو المعلم الأدبى ، وهو الذى يمهد السبيل لشاعر المستقبل ، ويرسم له خطة سير الشعر الحديث

الدمقراطى ، ويهيئ ذهن الجمهور لفهمه وتقديره ، والناقد هو الواسطة بين كبار الكتاب والجماعات ، وهو الذى يرود أحوال العصر ويتعرف حاجاته الأدبية ويبشر بها للأمم ليستشعروها ويتطلبوها ، وصفوة القول إن تكهناته تعدّ جمهور الكاتب والشاعر وهو أمر أهم مما يقدر الكثيرون ، وقلما يظهر كاتب قبل وقته » .

ومن آرائه أن الفن الصادق عليه أن يتجنب خطرين ، خطر النظرية الملحدة القائلة بالفن للفن ، وهى نظرية كان يمقتها متزينى ولا يبخل عليها بالطعنات والضربات ، ومتزينى لم يكن يهاجم اكتمال الأداة التعبيرية ولا جمال الصياغة وحسن الأسلوب ، وقد كان يحب الدقة فى اختيار الألفاظ وتحرى الصحة ولم يكن يعيب الأسلوب ما دام لا يستر فقر الأفكار ، وإنما كان يذهب نقده إلى أعمق من ذلك ، فالشاعر فى رأيه لا يجب أن يعيش فى فنه منعزلاً عن الحياة التى تعج وتصطخب حوله ، ولا أن يلتمس الوحى فى أوهامه ونزواته ، وهو لا يعبر عن شخصيته بهذه الطريقة وإنما يصبح مرآة للانطباعات العابرة ، وبدلاً من أن يظفر بالحرية فإنه يضرب فى الفوضى ويسير على غير هدى ، وعنده أن نظرية الفن للفن تحرم الفن من الاتصال بحقائق الحياة العظيمة وتقطع علاقته المثمرة بالشعب المكافح الدائم التقدم والمعرفة ، وهى تجعل الفنان شارداً حائراً لا غرض له ولا هدف ، وتنزل به من مستوى المفكر والمعلم إلى مستوى المغنى غناءً فارغاً تافهاً ، ومن أقواله « الذى أريده ليس الفنان فحسب وإنما « الفنان الرجل » والكاهن

الأعلى للمثل الأسمى لاعابد الأوهام والخزعبلات ، ويلزم أن يكون الأدب وسيلة لشيء أعظم منه وأنفس » .

وكان كذلك لا تروقه الواقعية ، وبخاصة الواقعية فى تصوير الطبيعة ، وقد انتقد من هذه الناحية شعر فكتور هيجو ووردزورث ، ومن أقواله فى نقد فكتور هيجو ، « جمال هذه المقطوعة من الشعر يقوى شعورنا بالخطأ الذى كثيراً ما يقع فيه فيكتور هيجو ، سواء كان ذلك خلال تفكيره أو خلال تصويره ، فأعطه ركناً قد خيّم عليه الهدوء أو حديقة أو جناحاً فى قلعة قديمة تره ينطلق من أول الأمر متحدثاً عن كل زهرة وكل شجرة وكل جدول وكل حصاة ، ويتبع ذلك الحديث عن السقف والأروقة والكرانيش والأبواب والعوارض الراكزة على الأعمدة وتماثيل النساء التى تحمل على رؤوسها أثقال البناء ثم ماذا بعد ذلك ؟ الطحلب واللبلاب والأشنة والطير الذى يبنى عشه والعنكبوت الذى ينسج خيوطه هناك ، وأعطه فكرة تره يظل يبدأ فيها ويعيد وينصرف عنها ويكر عليها وينظر إليها من كل وجهة ويعاينها من فوقها ومن تحتها ، ويحللها إلى عناصرها ويقتلها بحثاً وشرحاً حتى لا يستطيع أحد أن يقول له « لقد تركت جزءاً من هذه الفكرة فى ظلمة الخفاء » وهو يكشف ويرود ويغير ويفصّل ويشرح ويحلل ويترك موضوعه — إذا سمح لى بالموازنة — كما يترك المنزل بعد أن يفتشه الشرطة تفتيشاً دقيقاً .

وهذه الطريقة مستهدفة للنقد الشديد من ناحيتين ، فهى من

ناحية لا تترك للقارئ شيئاً يعمله ، وفى كل انطباع شعرى قوى فإن المبهم الخفى يطلب له مكاناً متسعاً ، وهذا الخفاء الذى يحسن أن لا نخلط بينه وبين الغموض هو ميدان الروح وطريقها إلى اللانهائى حيث تقيم الروح عقود الجسر الذى يوصلها إلى الله ، وسر الشعر العظيم أو قوة الشعر العظيمة فى قدرته على أن يضع الروح تلقاء هذا الخفاء وأمام هذا الميدان اللانهائى ، وذلك بأن يمنحها أجنحة تحلق بها هناك ، والشعر المكتوب مثل الموسيقى التى تعزف يلزم أن يكون من بعض النواحى مقدمة لشعر آخر ، هو الشعر الذى تنشئه روح القارئ المهتاجه فى صمت داخل نفسها ، أو بلفظ آخر إن أحسن الشعر هو الذى يجعل القارئ أعظم شاعرية ، كما أن أحسن أنواع التربية ليست التربية التى تعلمنا أعظم تعليم وإنما هى التربية التى تمنحنا أعظم القدرة على التفكير .

وفكتور هيجو بتحليله الدقيق يقضى على عالم الخفاء واللانهائى فى نفوسنا ، بل يقضى على الرغبة فيهما ، وهو يمحو التأثرات الشعرية من نفوسنا لأنه يتخمنا بها ، وبعكوفه على التعريف والتحديد والإسهاب والتفصيل يحصر ويحد ، ويترك ملكات القارئ متبلدة متعطلة ، وليس هذا كل ما فى الأمر ، فإن الأنكى من ذلك أنه قد يفسد الفكرة بمحاولته إنهاكها واستنفاد قوتها ، ويصرف أنظارنا عن الكل إلى الأجزاء وبمحاولته مضاعفة التأثيرات يضعفها » .

وهو نقد يخيل إلى أنه قد أصاب المحز ، فإن إطالة الشاعر فى بسط المعانى وإسهابه فى الشرح والتفصيل يضعف شاعريته ويزهدنا فى

شعره وما أصدق قول الشاعر العربى البحترى .

والشعر لمح تكفى إشارته   وليس بالهذر طولت خطبه

ويؤكد متزينى لمعاصريه أن الشاعر الحق هو الذى يعبر عن الأفكار التى تختلج بنفوس الجماعات ، والخواطر الكامنة فى نفوس الشعوب ، والتطلعات التى تعمل فى عقلها الباطن ، والشعراء هم كهنة الحركات السياسية والاجتماعية ، ولا مكان عنده للشعر الفردى فى العصر الحديث عصر الشعوب والأمم والجماعات ، والفن الصادق المقدس فى رأى متزينى يرمى إلى كمال المجتمع وتطهيره وتنقيته من الشوائب ورفع مستواه ، وهو يوافق شلجل النقادة الألمانى فى قوله « إن الشعر يجب أن يكون قومياً » ، أى يجب أن يكون نافعاً متصلاً بالموقف السياسى والمدنى ومؤثراً فى المجتمع ، والشاعر بيرون الذى ذهب ليدافع عن حرية اليونان وقضى نحبه هناك قد مثل لنا فى رأى متزينى الاتحاد المقدس بين الشعر وقضية الشعوب .

ويشير متزينى إلى علاقة الشعر بالفلسفة فيقول « للشعر أن يتناول مبتكرات الفيلسوف ويمنحها الحياة ويضفى عليها اللون ليكشف الحق الكامن تحت الواقعى وينيره بنور العبقرية ويفسر القوانين العامة المسيطرة على التاريخ البشرى » .

ولا يكفى فى نظره أن يثير الشاعر أفكارنا فإن عليه أن يستحثنا على أن ننقل أفكارنا إلى عالم العمل ، وشعراء التأملات مثل ورد زورث وكولردج فى رأى متزينى شعراء ناقصون ، وكما أن الدين يعطى القوة

والحياة للفلسفة فكذلك الفن يستطيع أن يجعل الأفكار معتقدات مؤثرة عن طريق الصور والرموز ، والشعر الحق فى رأيه هو الذى يضع فى يد الناس سيفاً أو قلماً أو خنجراً ، ويعلم الشباب التضحية والثبات والمثابرة والصمت والشعور بالعزلة بغير يأس واحتمال الآلام سنوات طويلة واليقين بالمستقبل والكفاح من أجل هذا اليقين .

وعنده أن الفن يجب أن يكون جريئاً وحافلاً بالأمل ، « يعلم الناس ما فى نفوسهم من قوة لا ما تنطوى عليه من ضعف ، ويلهمهم القوة والإقدام والإرادة المصممة لا الضعف والخور والإحجام »

ومتزينى يكره شعراء التشاؤم والحزن ولا يترفق بهم وقد انتقد مواطنه الشاعر الكبير چياكومو ليوپاردى وأخذ عليه يأسه وولعه بالأطلال الدارسة واستمتاعه بمعاقرة الأحزان ، وعلل حزنه بيأسه من نيل السعادة الفردية ومن وجود من يحبه ويعطف عليه .

وكان متزينى يقسم الشعراء إلى شعراء موضوعيين وشعراء ذاتيين ، فالشاعر الموضوعى يخفى معتقداته ويعكس الانطباعات الخارجية ولا يعايرها بمعياره الذى يفرق بين الحق والباطل ، ولا يقدم لنا طريقه للعمل ولا يمدنا بوحى للأمل ، أما الشاعر الذاتى فإنه يطبع موضوعاته بطابع فرديته ، ويجلس مجلس من يصدر الأحكام ، ويمدح أو يذم ، ولذلك يساعد الغير على تكوين القانون الأدبى ويخلق المستقبل ، والنوع الأول يثير إعجابنا ولكنه لا يحرك حبنا ، ومن هذا الطراز شعراء اليونان باستثناء شاعر واحد وهو الشاعر اسكيلاس ، ومن هذا الطراز شكسبير

وجيتى ، ومن شعراء الطراز الثانى اسكيلاس ودانتى وميشيل أنجلو وبيرون وشلر ، وعند مترينى أن دانتى هو أسمى نوع من الشعراء الذاتيين ، وقد تأثر مترينى بدانتى إلى حد كبير وكان يعده الشاعر الذى لم يأخذ من الناس سوى القليل وأعطاهم الكثير والبطل الذى كانت حياته حرباً طويلة والذى كان يحمل القلم والسيف والذى لم ينتسب إلى طائفة من الطوائف المتنافسة فى عصره وإنما كان إيطالياً قبل كل شىء ، وكان يوازن بينه وبين شكسبير شاعر الفردية ، والمؤلف الدرامى العظيم والذى خلق شخصيات لم يخلق مثلها فرد ، وكان يمنح شخصياته حرية اختيار الخير والشر ومتابعة مصائرهم إلى النهاية ، وعنده أن شكسبير رجل تلقى الحياة كما وجدها فلم يفكر فى المستقبل ولم تمسه العواطف الأخلاقية القوية ولم يعرف الشعور بالواجب ، فهو من ثم رجل كلبى النزعة متشكك ، شديد الشعور بزوال أمور الدنيا لا يقين له فى مصير الإنسان ومجده .

وقد عقد موازنة بين جيتى وبيرون ، وكان يكبر عقل جيتى ويعجب إعجاباً شديداً بسعة إحاطته ، والظاهر أنه درس رواية فاوست دراسة وافية وألم بسائر مؤلفات جيتى ، وهو يقول عنه « جيتى عقل يتلقى ويعمل ويمثل كل صورة ممكنة من صور العواطف الإنسانية والنزوع الإنسانى ، وهو فى خلال الخلق يظل مشرفاً معتزلاً يراقب ويفحص بنفس النفاذ وعين الاهتمام أعماق المحيط وبرعوم الزهرة . . . ويعرض فى رواية فاوست مشكلة العصر فى تجردها التام الرهيب ، وهو أقدر الشعراء الممثلين

لعصرهم الذين أخرجتهم أوربا منذ عهد شكسبير » ولكن عقل جيتى على سموه واعتلائه لا يصل إلى أسمى القمم لأن الفنان تغلّب فيه على الرجل ، وليس عنده معيار أخلاقى ولا إحساس بوحدة الحياة ، فهو شاعر التفاصيل والتحليل ، يشعر بكل شيء ولكنه لا يشعر بالأشياء فى كليتها ومجموعها ، ويعيش بمعزل عن الدين والسياسة يراقب حركات الدنيا وهى تعج حوله وتمور فى برود وفتور ولا يحاول أن يقدر الناس أو يجعلهم أحسن حالاً أو يقاسمهم همومهم وشقاءهم ولا يشعر بحاجة إلى العمل ولا يشعر بالحزن المقدس أو بأى حب حار عميق ، وهو يوصى الناس بالهدوء والتأمل والنظام والاستسلام وينصحهم بأن يلائموا بين أنفسهم وبين الظروف المحيطة بهم وأن يؤدوا واجباتهم الصغيرة على أن لا يستهدفوا للأخطار ولا يعكروا صفو مواهبهم ولا يخلوا بموازينها .

ويقول إننا إذا تحولنا من مراقبة جيتى إلى مشاهدة بيرون رأينا الرجل نفسه وهو يؤمل ويجاهد ويشقى لأجل الشعب كما فعل دانتى من قبله وكما فعل إسكيلوس ، وهو يشبه جيتى فى أنه شاعر له فرديته وفى أنه طراز من القوة التى ليس لها هدف ، ولكنه لا يشبه جيتى فى شعره ، فشعر بيرون ليس مجرد انعكاس لأفكار الغير وأعماله ، وإنما هو يطبع صوره بطابعه وينظر إلى العالم من زاويته الخاصة ويفسره فى ضوء أشعته الداخلية ، وهو أعمق وجيتى أوسع ، وبيرون ينشد الجلال لا الجمال ، ويعبد القوة والعمل ، ويقوم بنصيبه فى المعارك السياسية والاجتماعية الدائرة حوله ويضرب فى مناكب الأرض محزوناً مكتئباً

قلقاً نافر النفس حاملاً السهم في جراحه ، ويفهم إيطاليا ويحبها ويموت مستشهداً في الدفاع عن قضية اليونان .

وبرغم إعجاب متزيني ببيرون ونقده لجيتي فإنه كان يرى أن شعرهما ليس هو الشعر المثالي الذي يريده ، فشعر بيرون شعر الثورة واليأس ، وكلا الشاعرين لم يشعر بشعور الجماعة ، ولم يمثل الأمل الجديد والقوة القادمة التي ستتجمع حينما يتعلم الناس التعاون والتساند ، ويعملون معاً للغاية المشتركة ، والشاعر الذي يحمل الرسالة للإنسانية عامة والتي تصل أناشيده إلى الكوخ والمصنع وتلهم السياسة وتوجه الأمة كما تصوره متزيني لم تجدبه الأيام في عصره وما أحسبها جادت به بعد موته حتى عصرنا هذا .

ومن الفصول الانتقادية والدراسات الأدبية التي كتبها متزيني ووصل فيها إلى الذروة وأوفى على الغاية الفصلان اللذان نقد في أحدهما عبقرية كتابات كارلايل واتجاهها ونقد في الفصل الآخر كتاب كارلايل عن الثورة الفرنيسة ، وهذان الفصلان من أحسن ما كتب في نقد كارلايل ، ويلمح القارئ من خلالها أوجه الشبه ونواحي الخلاف بين هاتين العقليتين الممتازتين ، عقلية كارلايل النزاعة إلى تفسير التاريخ تفسيراً أرستقراطياً وعقلية متزيني التي تميل به إلى أن يفسر التاريخ تفسيراً دمقراطياً ، وقد كان متزيني صريحاً ومنصفاً في نقد صديقه العظيم فلم يقصر في إظهار ما عده من عيوبه وأخطائه ، ونوه كذلك بما رآه من الحسنات والمزايا ، وهو يقول في خلال هذا النقد : « بين المستر

كارلايل وبينى خلافات فى النظر إلى الأشياء ، وسأبدأ بذكرها ، ولكننى لا أفعل ذلك قبل أن أعلن مزاياه التى لا يختلف فيها اثنان ، وهى مزايا فى العصر الحاضر هامة ونادرة ، وهذه المزايا تسمو فيه سمواً يستدعى الاحترام والإعجاب حتى من هؤلاء الذين يقفون تحت راية أخرى ، وتستدعى العطف والشكر من الذين هم مثلى يقفون بوجه عام فى صفه ولا يختلفون معه إلا من ناحية اختيار الوسائل والطريق الذى يتبع » ، ويبدأ بذكر مناقب كارلايل فيقول : « ألاحظ فوق كل شىء إخلاص الكاتب ، فهو لا يفكر فيما يكتبه فحسب بل يشعر به ، وقد يخدع نفسه ولكنه لا يستطيع أن يخدعنا ، لأن ما يقوله صدق حتى حينما لا يكون الحق ، وهو يلتمس الخير بحماسة صادقة لا بدافع حب الشهرة ، ولا بحافز من الاستمتاع بكشف المخبأ ، وإنما الباعث له هو حب إخوانه البشر والشعور بالواجب العميق الفعال لأنه يعتقد أن هذا هو رسالة الإنسان فى هذه الأرض ، وهو يكتب الكتاب كما لو كان يقوم بعمل صالح ، وأكثر من ذلك أنه لا يشعر بكل ما يكتب فحسب وإنما يكتب كذلك على وجه التقريب كل ما يشعر به ، فما جال بفكره من الخواطر ولم يضعه بعد على الورق فمن المؤكد أنه سيظهر عاجلاً أو آجلاً ، وهو قد يبشر بمزية حفظ اللسان لهؤلاء الذين يخالفونه ولكن موهبة الصمت ليست من ملكاته ، وإذا كان فى بعض الأوقات يدّعى احترامها فإنه إنما يفعل ذلك لمنع الغير من سوء الحديث ، أما العقول المكونة تويكن عقله فإن

حبس الأفكار فيها غير ممكن ، والأفكار عنده لا بد لها أن تتمدد وتنتشر وكل محاولة لإيقافها وكبحها يطول أمدها تجعل الانفجار أقوى وأعنف ، وليس المستر كارلايل مثل الأطباء الذين يعالجون بإعطاء الجرعات الصغيرة من الدواء ، فهو لا يقدم العلاج للشر فى كميات ضئيلة ، وهو لا يدنس قداسة الفكر بالإذعان للخطأ أو قبول المساومة معه وإنما هو مثل لوثر يقذف بدواته رأس الشيطان فى أى صورة يظهر له دون أن يفكر فى العواقب ، ولكنه يفعل ذلك فى إخلاص وسذاجة وحسن نية وسلامة طوية إلى حد أن الشيطان نفسه لا يغضبه ذلك ما لم يكن الموقف حرجاً وما لم تكن كل ضربة بالداوة شيئاً خطيراً بالقياس إليه » .

ويصف هجوم كارلايل على الأفكار المخالفة لأفكاره فيقول « فى هجمات كارلايل بوجه عام من الصراحة والنزاهة وفى أفكاره من قوة اليقين وصدق الاعتقاد والتجرد من الأثرة ما يرغمنا على الاستماع لما لو نطق به أى إنسان آخر غاضباً أو محتقراً لأثار عاصفة من المعارضة ، ولن تجد فى لغة المستر كارلايل أثر الغضب ، وقد نجد فيها الاحتقار ولكنه خال من المرارة وحينما يتناثر خلال صفحاته فإنه سرعان ما يختفى وراء ابتسامة حزن وإشفاق مثل قوس قزح بعد العاصفة ، وهو يقضى ويدين لأن هناك أشياء لا تستطيع السماء ولا الأرض أن تسوّغها ، ولكن قارئه يشعر بأنه يقوم بواجب شاق ، وحينما يقول لعقيدة من العقائد أو لنظام من النظم « إذهب فإنك فاسد بال ! » فإن عنده له دائماً كلمة

طيبة عما أداه فى الماضى وعن فائدته وفى بعض الأحيان حتى عن عدم فائدته ، وهو لا يدفن شيئاً دون أن يقيم له نصباً ، وأضرب مثلاً لذلك قبل كل شىء كتابه عن الثورة الفرنسية » .

ويتحدث بعد ذلك عن المزية الثانية التى تمتاز بها كتابات كارلايل بعد مزية الإخلاص ، وهى فى رأى مترينى مزية الروحية ، وكارلايل كان من أقوى المجاهدين فى رد الفعل الذى قاوم المادية التى استولت على العقول واستمدت قوتها من كتابات أمثال لوك وبولنجبروك وپوپ وبنتام ، ويشير مترينى إلى كتابات كالاريل وفصوله التى قاوم فيها النزعة المادية مثل كتاب سارتر ريزارتس أو فلسفة الملابس وبعض محاضراته وفصوله الأدبية التى نشر فيها علم الروحية ، ويؤكد مترينى أن وجهة النظر الروحية التى قال بها كارلايل هى وحدها وجهة النظر الصالحة ، ويحذر من عواقب الإمعان فى المادية ، ويشير إلى أنها تسفر عن الحرب والفوضى والدمار .

والمزية الثالثة فى رأيه هى النزعة الإنسانية عند كارلايل ، فالناس عنده إخوة ، وهو لا يعبد أى طائفة من الطوائف أو عصر من العصور أو قوم من الأقوام ، وإنما يعبد الله إله الجميع ، ويقدس ظل الله على الأرض وهو الجمال والنبل والعظمة ، ووجهة نظره دائماً عالية رفيعة ، وأفقه واسع يمتد إلى ما وراء حدود بلاده ، ونقده يخلو من طابع التحيز القومى ، وفصوله عن شلر وجيتى وچان بول رختر وما نقله عن الألمانية ومحاضراته عن دانتى وما كتبه عن الكتاب الفرنسيين كل ذلك يدل

على توفر هذه الميزة فى نفسه ويؤكدها .

ثم ينوه بعد ذلك بمواهبه الفنية ، وملكاته الأدبية ، وقوة خياله ، وسعة عطفه ، وطرافة أسلوبه ، وقدرته الفائقة على أن يمزج نفسه بالأشياء والحوادث والرجال ، وأشار إلى أنه بلمسات خاصة ثابتة عميقة فاصلة يعطيك الملامح العامة لموضوعه مركزاً جهده وقوة إضاءته فى النقطة الرئيسية ، ويصف كارلايل بالصراحة والأمانة والقوة ، ويرجو له المثابرة على خطته وأن ينال التشريف والتقدير الجدير بأدبه وتفكيره حتى يشعر بأن البذور التى بذرها قد أثمرت ولم تذهب سدى .

وبعد هذه الإشادة بمزايا كارلايل ومناقبه يقول : « لقد ذكرت فى توسع كاف ما أعده صالحاً فى الكاتب الذى أحاول تقديره لأسمح لنفس بأن أكون حراً فى القيام بواجب آخر ، وهذا الواجب هو إعلان ما يبدو لى أنه السبب فى جعل هذه المواهب الشريفة غير كاملة ويفسد على كارلايل عمله بجعله متخلفاً عما يستلزمه هذا العصر فى بعض النواحى وسرعان ما سيحتاج إليه هنا » .

والعيب الرئيسى الذى يأخذه مترينى على كارلايل هو نظره إلى الفهم الكلى للعصر ، وهذا العيب الجوهرى يؤثر فى وجهة نظره وفى كل مايعمله وكانت الفكرة الغالبة على العصر فى رأى مترينى هى فكرة « التفكير الكلى » الذى يحاول أن يحل محل « التفكير الفردى » ، وأثر هذا التفكير كان واضحاً فى السياسية وذلك بالعمل على إقامة الحكم الدمقراطى فى مكان الحكم القائم على أصحاب الامتيازات ، وكان كذلك واضحاً

فى الاقتصاد الاجتماعى وذلك بطلب إحلال التعاون والاجتماع بدلاً من التنافس غير المحدود ، وكان واضحاً فى الدين وذلك بمحاولة إحلال التقاليد العامة بدلاً من الأخذ بوحى الضمير المنعزل ، وهناك ما هو أهم من الفرد وأجل منه شأناً وهو « الإنسانية » أو هذا « الكائن الكلى » الذى يعيش دائماً ولا ينفك يتعلم ويتقدم ، ونحن البشر لسنا سوى آلات ووسائل لهذا الكائن الكلى ، ومن هذا الكائن الكلى نستمد رسالتنا فى الحياة وهدف مجتمعاتنا .

ويشير متزينى إلى أثر هذه الفكرة فى فهم التاريخ فيقول : إن التاريخ فيما مضى كان يكتفى بذكر أعمال الأمراء والحاكمين ولكنه فى العصر الحديث يولى وجهه شطر الجماعات وكارلايل لا يفهم سوى « الفرد » ، ووحدة النوع الإنسانى تغيب عنه ، فهو يشارك الأفراد فى عواطفهم ولكنه يشاركهم منفصلين منعزلين ، وهو لا يشعر شعوراً كافياً بقوة الرابطة بين الأجيال السالفة وبين الحاضر والمستقبل ، وفكرة الإنسانية الدائبة على التقدم بأعمالها الكلية المجتمعة التى أعلنها وأذاعها كبار مفكرى أوروبا فى الخمسين سنة الأخيرة ليس لها صدى فى نفس كارلايل ، فالإنسانية عند كارلايل مجموعة من الأفراد متشابهين متجاورين ، أما فكرة القومية — وهى أقل اتساعاً من فكرة الإنسانية — فإنها لا تظهر فى تفكيره ، وقيمة القومية الإيطالية فى رأيه هى أنها أخرجت أمثال دانتى وكريستوف كولومبس وقيمة القومية الألمانية عنده هى أنها أخرجت أمثال جيتى ولوثر وغيرهما ، والظلال الضخمة التى يلقيها أمثال أهؤلاء الجبابرة

تحجب عن عيني كارلايل رؤية الفكر القومى الذى كان أمثال هؤلاء الرجال ممثلين له ومعبرين عنه ومفسرين لغوامضه ، والشعوب والأمم والأقوام هي مستودع هذا الفكر ومستقره ، وتاريخ العالم فى رأيه هو ترجمة سير الأفراد العظماء ، وهى فكرة تعارض حركة الأفكار الحديثة ، ويقول متزيني « إننى باسم روح العصر الدمقراطية أعارض هذه الآراء ، فليس التاريخ هو تراجم حياة العظماء ، وإنما تاريخ العالم هو تاريخ ديانة الإنسانية التقدمية وتنقل رموز هذه الديانة أو أعمالها الخارجية ، وعظماء الأرض هم المعالم فى طريق الإنسانية وهم كهنة ديانتها » والعبقرى فى رأى متزيني يستمد نصف وحيه من السماء والنصف الآخر من الناس ، ولذا لا نستطيع أن نقدر العبقرى تقديراً صحيحاً إلا إذا درسنا بيئته .

ثم بيّن أثر هذا التفسير الفردى للتاريخ فى نظرة كارلايل للحياة بوجه عام ، وقد عزا إليها القدرية الغالبة عليه وولعه بمظاهر القوة إلى حد أنه كاد يصبح من المحامين عن الطغيان والاستبداد . ويعلل متزيني الشك الذى استولى على عقول بعض مفكرى القرن التاسع عشر وما أصابهم من الحزن والأسى بأنهما ناشئان من هذه النظرة الفردية للحياة والتاريخ ، وهو يقول فى ذلك : « فى الحق أن الحياة الإنسانية جد محزنة إذا نظرنا إليها من الناحية الفردية الخالصة ، فالمجد والسلطان والعظمة كل ذلك زائل ، وهى ألاعيب النهار التى تتحطم بالليل ، والأمهات اللواتى يحببننا ينتزعن منا ، والصداقات تفنى وتزول ونحن نعيش بعدها ، وشبح

الموت يقف بالمرصاد إلى جانب وسادة الأعزاء علينا ، وأقوى حب وأنقاه سيكون أمر سخرية وأقساها إن لم يكن وعداً للمستقبل ، وهذا الوعد نفسه نشعر به شعوراً ناقصاً ونحن فى حالتنا الراهنة ، وإذا حطمنا سلاسل الاتصال التى بيننا وبين الأجيال السابقة والتى بيننا وبين الأجيال اللاحقة فإن التفانى فى سبيل الأفكار النبيلة يصبح حماقة سامية ، إزل الرابطة التى تربط الحيوات البشرية بعضها ببعض تجد الاستشهاد بعد ذلك مجرد انتحار بلا غرض ! فالحزن والأسى الذى لا نهاية له واليأس والتخاذل هى أمثلة الحياة البشرية إذا نظرنا إليها من وجهة النظر الفردية » .

ويأخذ مترينى على كارلايل فرط احتقاره للإصلاح السياسى ويقول إن صور الحكم تبدو لكارلايل شيئاً خالياً من المعنى ، وهولا يعبأ بتعميم التصويت العام وضمانات الحقوق السياسية ، وكل ما يريده هو أن يرتفع مستوى الناس الأخلاقى وأن يكثر عدد القاسطين ، وظهور رجل حكيم فى نظره أهم من عشر ثورات ، ويقول مترينى إنه كان مستعداً لأن يشارك كارلايل وجهة نظره هذه لو كان فى مستطاعه خلق الرجل الحكيم ، وتغيير النظم السياسية الباغية البالية هو الخطوة الأولى التى لا محيد عنها لخلق الرجل العادل العاقل الحكيم ، ويضرب مترينى فى ذلك مثل إيطاليا فى عصره ويقول ما معناه إن الأحوال السياسية السيئة السائدة بها لا تمكن من القيام بالإصلاح الأخلاقى والعقلى ، وإنه لا مفر من قلب تلك النظم وتغييرها حتى تمهد سبل الإصلاح ، ويستشهد

كذلك بأحوال پولنده وروسيا وحاجتهما إلى الثورة والانقلاب لتسير حركة الإصلاح فى طريقها ، ثم يسوق لكارلايل حالة العمال الكادحين الذين يقضون سحابة يومهم فى أعمال شاقة مجهدة مضنية للجسم والعقل ولا يحصلون إلا على ما لا يكاد يقيم أودهم وينصرفون فى الليل إلى بيوتهم القذرة الحقيرة التى تكاد تكون كأوجار الكلاب فكيف تصل إلى هؤلاء الاستنارة ؟ وما فائدة الكتب المؤلفة لمثل هؤلاء الناس ؟ إنك لا تستطيع أن تشعل الشرارة المقدسة الخابية فى نفوس أمثال هؤلاء الناس وهم الكثرة الكاثرة من سكان أوروبا إلا إذا أعطيتهم سعة من الوقت لإنماء عقولهم ولا يكون ذلك إلا بتقليل ساعات العمل وزيادة الأجور التى تصرف لهم ، ولن يكفى فى رفع مستوى هؤلاء أن تقول لهم كما يريد كارلايل « أنت أيها العامل كذلك إنسان ، وقد سواك الله ، وأنت هنا فى الدنيا تنمى حياتك من جميع وجوهها ، وجسمك معبد ، وروحك الخالدة هى كاهن هذا المعبد » ، وأشار إلى أن الإصلاح الدمقراطى يحاول أن يرفع شأن العامل فى نظر نفسه وأن يبصره برسالته ، ويشعره بواجباته ويعرفه حقوقه وذلك كله عن طريق التصويت العام ويقول متزينى فى خاتمة نقده لكارلايل : « إننا نختلف فى اختيار الطريق الذى يسلكه كل منا ، وفى الوسائل التى تتخذ ، وكلانا يعبد إلهاً واحداً ، ولكنا نختلف فى طريقة العبادة » ، ثم يشير إلى الفرق بين طبيعته وطبيعة كارلايل فيقول عن نفسه إنه يؤثر أن يخوض عباب المشكلات المعاصرة لكى يستمد منها الوحى ويخالط الناس ليتقوى بهم ، وأما

كارلايل فإنه يؤثر الاعتزال والانسحاب والتأمل من بعيد .

وينتقد متزيني كتاب كالاريل عن الثورة الفرنسية من هذه الزاوية نفسها ، فهو يرى أن كارلايل قد شغل عن « الفكرة العامة » للثورة الفرنسية بالعناية بالتفصيلات والصور والمناظر ، وعيب الكتاب الأصيل فى نظر متزيني هو أن كارلايل لا يعترف بحياة الإنسانية مجتمعة ولا بالهدف العام للإنسانية فى كليتها الشاملة ، فهو لا يرى سوى « الفرد » وكتابه فى رأى متزيني صور باهرة لامعة لحوادث الثورة الفرنسية قد رسمتها يد فنان صناع وأستاذ متمكن ، ولكن كان ينتظر منه أكثر مما صنع ، فهو لا يذكر لنا أسباب الثورة الفرنسية ولا يوضح لماذا حدث هذا الانفجار الذى هز أركان العالم ، ولماذا أثر فى أوربا تأثيراً عميقاً ، ولا يحدثنا عن رسالة الجمعية التشريعية ، ولا يعلل لنا لماذا انتصرت فرنسا على جيوش الدول التى تحالفت على محاربة الثورة وإخمادها ، ويعزو متزيني إلى تأثير جيتى فى كارلايل كثرة ميل كارلايل إلى محاولة كشف عجز الإنسان وإظهار ضعفه وقلة حيلته بالموازنة بينه وبين اللانهائى ، فى حين أن عظمة الإنسان الحقيقية هى فى شعوره باللانهائى الذى يحيط به من كل ناحية دون أن يعوق عمله أو يعترض سبيله ، والأبدية الماثلة أمامنا ووراءنا هى كذلك فى نفوسنا ، ويختم نقده لكتاب الثورة الفرنسية بقوله « لقد كتبت هذه الملاحظات وأفكارى مشغولة كل الاشتغال بالأيام القادمة علينا ، وكارلايل سيسامح صراحتى ، ويرى حتى فى ألفاظ اللوم القليلة التى اجترأت على توجيهها إليه دليلاً جديداً على

الآمال التى اشترك مع الكثيرين فى إناطتها به وتعليقها عليه » .

وقد حاولت أن ألم مع القارئ إلمامة يسيرة بنقد متزينى النافذ العميق لكتابات كارلايل وأن أقدم له لمحات سريعة عن هذا النقد ولكنى أشعر مع ذلك بأن هذه الإلمامة غير كافية ، وأن الصورة التى قدمتها لهذا النقد الرائع ربما كانت شاحبة غير مستوفاة ، ولذا يروقنى أن أشير على القارئ بالرجوع إلى الفصول التى كتبها متزينى فى النقد الأدبى وبخاصة الفصلين اللذين اختص بهما توماس كارلايل .

الفصل الرابع عشر

متزيني وفكرة القومية

كان متزيني كثيراً ما يلقب بنبي القومية فى القرن التاسع عشر ، وقد انقضى عهد النبوات ، ولكن القومية كانت فى رأى متزيني ديانة مقدسة ، وعقيدة إلهية ، ومن الآراء التى كان يدين بها متزيني ويصر عليها ويستمسك بها أشد استمساك أنه لا يمكن أن يوجد مجتمع حقيق أو تقدم صادق هام بدون معتقد ديني قوى ، وعنده أن لا حقوق الفرد التى أعلنتها الثورة الفرنسية ولا نظرية أوفر مقدار من السعادة لأعظم عدد من الناس التى قال بها بنتام أو مادية الاشتراكية تنفع لتكون مجتمع حسن النظام مستقر الأساس يستطيع الناس فيه إنماء ملكاتهم . وإذا كانت حرية الفرد وسعادته هما أسمى الأهداف فكيف نطلب إلى الفرد أن يجعل مصلحته خاضعة لمصلحة المجتمع وتابعة له ؟ وكيف نطلب إلى الأفراد أن يضحوا بأنفسهم من أجل مصلحة المجتمع ؟ إن واجبات الأفراد للمجتمع تسبق حقوقهم ، والناس لم توجد لتنال السعادة أو لتفعل ما تشاء وإنما وجد الناس لأداء رسالة فى خدمة الإنسانية .

وقانون الواجب يتجاوز الفرد ويتخطى الدولة إلى العلاقات الدولية ؛

فغاية الإنسان هى خدمة تقدم الإنسانية ، ولكن الفرد فى عزلته وتفرده يحجم عن حمل هذا العبء الضخم ، وفكرة الإنسانية لا تثير فى نفوس معظم الناس شعوراً بما عليهم من التزام ، فهم يبذلون فى سبيل بلادهم ما لا يبذلونه فى سبيل الإنسانية الأعم والأشمل ، ونصير الفكرة العالمية الذى يتحدث عن واجبه نحو العالم ويهمل واجبه نحو وطنه هو كالذى يأمر الناس بتسلق السلم ثم ينتزع درجاته ، وقد شاءت العناية الإلهية أن تضع الفرد بين رجال يشبهونه فى مشاعره وأمانيه لكى يخدم الإنسانية خلال خدمته لوطنه ، وبذلك يسهم فى حركة التقدم العالمى ، والأمة بهذه المثابة آلة من الآلات التى صاغها الله لخدمة الجنس الإنسانى ورقيه ، وهذا هو جوهر وجودها الأخلاقى ، ومن أقوال متزينى فى هذا الصدد « القومية عندى شىء مقدس ، لأننى أرى فيها آلة العمل لتقدم الناس جميعاً وخيرهم » و « كل قطر من الأقطار هو معمل من معامل الإنسانية » ومن مأثور كلماته « الإنسانية جيش هام يجد فى السير لاقتحام أراض مجهولة ومقاومة أعداء أقوياء ماكرين ، والناس هى كتائبه ، ولكل منهم عمل خاص قد أنيط به أداؤه ، والنصر العام يتوقف على الدقة التى يؤدون بها أعمالهم المختلفة » .

وتوزيع الأعمال لازم لحركة التقدم ، ولكن لكى تستطيع كل جماعة من الإنسانية أن تؤدى عملها لا بد لها من أن تكون جماعة منظمة متماسكة قادرة على النهوض بالعمل وأدائه ، وهذا التماسك لا يجئ نتيجة للإرغام والضغط وإنما يجىء بقبولهم مختارين راضين الوفاء بالتزاماته واحتمال

تبعاته ، وكل أمة من الأمم يلزم أن تكون وحدة حية متجانسة لها يقينها وعقيدتها ولها شعورها ووعيها .

ولم تكن أوربا فى عهد متزينى مثل أوربا اليوم ، ولذا كان يعيب توزيع الأقوام بها لأنه لا يخضع لمبدأ ولا يتبع نظرية ، وإنما كان مجرد تجمعات بشرية قد كونت لتلائم مصالح الأسر المالكة أو مجاراة لنظرية مصطنعة مثل التوازن الدولى ، ولذا كانت هذه التجمعات أعجز من أن توحى مجهوداً قومياً مشتركاً لتحقيق غاية نافعة معقولة ، وبدلاً من ذلك كانت تملأ الفراغ غايات متوهمة مسفة .

فما هى علامات القومية الأصيلة وسماتها المميزة فى رأى متزينى ؟ وهل هى الأرومة والسلالة والموقع الجغرافى واللغة والأدب والعادات والتقاليد ؟ كان متزينى يرى أن هذه السمات جميعها عوامل ثانوية ، وبخاصة السلالة الشعبية ، ورأيه فى هذه المسألة أدق وأقرب إلى الحق من رأى بسمارك ومدرسته ، لإن العلاقة بين الأرومة الشعبية وحقائق الحياة الحاضرة علاقة ضعيفة ، ولم يرض متزينى أن يخوض فى تلك المسألة الغامضة المظلمة الكثيرة العثرات وهى مسألة الخصائص الشعبية ، وقد نأى به عن الغوص فى أوهام الشعوبية رأيه السليم الموفق فى أن الشعوب قد طال اختلاطها بعضها ببعض حتى أصبح اتخاذ الأرومة الشعبية أساساً جوهرياً للقومية من الأمور التى لا يمكن التعويل عليها والاطمئنان لها ، ولا نستطيع أن نجد فى بقعة واحدة من بقاع أوروبا شعباً نقياً خالصاً لم يمتزج بسلالات شعبية أخرى ، ففرنسا وهى من الأمم الحديثة القوية

أهلها مزيج من الألمان والسلتيين والرومان .

وقد كان متزينى ولوعاً بدراسة الجغرافيا ، وكان فى دراستها كدأبه يحاول أن يتبين أغراضاً روحية خلف المظاهر الطبيعية ، أنظر إلى قوله « لقد وضح الله الحدود الطبيعية بين الأمم بمجارى الأنهار ، وخطوط الجبال الشم ، وغير ذلك من الملامح الجغرافية » ، وكان يبدو له أن إصبع العناية الإلهية قد رسمت على خريطة أوربا منازل القوميات المختلفة ، فإيطاليا مثلاً واضحة الحدود بينة المعالم .

وكان يرى مثل أكثر الباحثين فى تكوين القوميات أن اللغة والأدب لها مكانة سامية وأثر قوى فعال فى تكوين الوحدة القومية ، وأهمية اللغة جلية واضحة ، وقد كان الأدب فى بعض الأحيان هو الرمز الوحيد الباقى للقومية ، وقد كان متزينى يقدر أثر أدب دانتى فى تكوين الشعور القومى الإيطالى ، وقد شاهد فى عصره أثر الشعراء البولنديين فى إحياء الشعور القومى فى بولندة وتغذيته وتقويته ، ولم يغب عن متزينى كذلك ملاحظة أثر التاريخ فى تكوين الأمم وأثر الحكومة فى جعل الناس يشتركون فى ولاء عام لها أو ثورة عامة بها ، وكذلك أثر الحروب فى بناء القوميات ، وكذلك أثر القوانين والعادات والتقاليد فى مزج الناس بعضهم ببعض .

وكل هذه عوامل هامة فى تكوين القومية ، ولكن هذه العوامل برغم أهميتها ليست جوهر القومية ، فالقومية مشستقلة بذاتها عن كل هذه العوامل وقد حكمت إيطاليا خلال قرون متعاقبة حكومات مختلفة ، ولكنها مع ذلك لم تستطع القضاء على الشعور القومى ، وسويسرة

أمة واحدة برغم اختلاف اللغات بها ، واختلاف اللغة لم يمنع لتوانيا وبولندة من الاتفاق فى الأمانى القومية ، والقومية شعور ومظهر أخلاقى ، وقد تولد هذا الشعور الأسباب المادية ولكنه لا يوجد إلا بفضل الحقائق الأخلاقية ، والإرادة الشعبية العامة هى أساس القومية ، والقومية التى تتكون بالضغط والإرغام تكون قومية زائفة مصطنعة ، قال متزينى : « إن القوميات لا توجد إلا بالناس ولا تقوم إلا بهم » ، ويتبع ذلك أنه حينما يريد سكان قطر من الأقطار أن تتكون منهم أمة ويكون هناك وراء رغبتهم هذه غاية أخلاقية فإن من حقهم أن يصبحوا أمة ، ونرى من ذلك أن متزينى لم يكن يرى أن الرغبة الشعبية العامة كافية ، فالقومية مثل كل مظهر سياسى لا بد لها من هدف أخلاقى يسوغ وجودها ، والأمة الحقة لا بد أن يكون لها هدفها الأخلاقى ورسالتها الواضحة التى تؤديها للإنسانية ونصيبها فى تحقيق الفكرة الإلهية فى هذه الأرض ، والجماعة التى تجمعها المصالح المادية وحدها لا تسمى أمة ، وتكوين أمة يستلزم أن يكون الهدف أخلاقياً لأن المصالح المادية لا تكفى لتكوين رابطة دائمة ، والوطن ليس رقعة الأرض ، وإنما رقعة الأرض هى قاعدته .

وحب الوطن هو الوطنية ويقول متزينى : « أيها الإخوان أحبوا وطنكم فإن وطننا هو منزلنا ، المنزل الذى منحنا إياه الله ، وجعلنا فيه أسرة واحدة » . ولكن متزينى كان يمقت الوطنية العاطفية المسرفة المؤكلة بالمظاهر البراقة والادعاءات العريضة ، وقد كانت وطنيته وطنية صامتة عاملة تكره

الادعاء وتأبى التظاهر ، وكان يرى أن الوطنية الصادقة تسمو بالفرد ، فالرجل الذى يعيش عيشة باطلة لا يمكن أن يكون وطنياً صادقاً ، والوطنى الصادق يحرص على أن يكون ممثلاً لفضائل بلاده ومزايا قومه ، والوطنية الحقة تقتضى قول الحق لأن التملق لا ينقذ الأمم ، وشرف الأمم يتوقف على إزالة الأخطاء أكثر مما يتوقف على المفاخرة بصفاتها ، وأكبر ما يرمى إليه الوطنى هو أن يظل وطنه رفيع الشرف نقى الصفحة ، وكرامة الأمة الحقيقية ومجدها وعزها لا يكون إلا فى اتباع سبيل الحق ، ولا يحيق بها الذل ويلحقها العار إلا إذا اتبعت سياسة الكذب والمخاتلة ولوثت شرفها ، وكانت نصيحته للعمال الإيطاليين « عليكم أن تجعلوا أمتكم بمنأى من الأثرة » .

والوطنية فى رأى متزينى هى قبل كل شيء الاهتمام الشديد بعظمة الوطن الأخلاقية ، ويتجلى ذلك فى الشعور بالواجب الوطنى الذى يراه متزينى الأساس الوحيد الحق لوجود الأمة ، وهذا الواجب له ناحيتان ، ناحية تمس حياة الجماعة التى نعيش معها وناحية تمس حياة الإنسانية جميعها ، وواجب الوطن نحو أبنائه هو التربية القومية وتدبير العمل للأفراد ، وواجبه نحو الإنسانية عامة هو المشاركة فى العمل على تقدمها وإعلاء شأنها، وعنده « أن الحياة القومية والحياة الأممية يلزم أن يكونا مظهرين لمبدأ واحد وهو حب الخير » ، ففوق الأمم المختلفة الأخوة العالمية ، والقومية التى تحتقر غيرها من القوميات قومية زائفة بائسة شقية ، وهذا الاحتقار هو طريق الشر والدمار ، ورقى أمة من الأمم

يتوقف على الثقة التى تناط بها ، والأمة التى تسترشد بالمبدأ الأخلاقى تجد السبيل ممهداً والأبواب مفتوحة سواء أرادت الاتفاقات السياسية أو أرادت الأسواق التجارية ، ومن ثم فإن الأمة التى تسئ إلى غيرها من الأمم إنما تسىء إلى نفسها ، ويقول مترينى فى ذلك : « إنى لأمقت الأمة المحتكرة المستأثرة التى لا ترى قوتها وعظمتها إلا فى ضعف الأمم الأخرى وفقرها » وكان مترينى ينقد سياسة الأمم التى تؤيد الحرية فى بلادها وتعتدى عليها فى الخارج .

والواجب الأممى لا ينتهى عند مسألة عدم الاعتداء ، وعلى كل أمة واجب إيجابى للإنسانية ، فحيث يسود الشر وينهزم الحق وحيث تدور أرحاء المعركة الأبدية بين الخير والشر لا يحسن أن تقف الأمة مكتوفة اليد متغافلة متناسية متخاذلة متقاعدة ، ونلمح من ذلك أن مترينى لم يكن يوافق على نظرية عدم التدخل فى شؤون الغير الداخلية ، وكان يقول إن هذه النظرية قد نادى بها الأمريكيون لحماية الحرية ولكن ساسة فرنسا وإنجلترا استعانوا بها لتسويغ جبنهم ، ولو كانت هذه النظرية قد قبلت وامتنعت بموجبها فرنسا من التدخل فى شؤون روما وأمسكت روسيا عن التدخل فى شؤون المجر لنجحت النظرية ، ولكن التدخل كان دائماً من ناحية الخطأ لا من ناحية الحق والصواب .

ولم يكن مترينى من هؤلاء الذين يؤيدون السلم بأى ثمن ، وقد كان يمقت الحرب ويستنكرها إلا إذا كانت من أجل مبدأ حق وغاية نبيلة ، وكان يرى أن بعض القوميات المظلومة المستعبدة فى عصره

لا خلاص لها من نير الاستعباد إلا بالحرب ، ولا يسود السلام إلا « إذا حل العدل محل الطغيان والحق مكان الباطل والواجب بدلاً من المصالح الشخصية » .

ولم يقف متزينى عند المبدأ الإنسانى الشامل الذى يحض كل أمة على أن تستعمل قوتها ونفوذها فى سبيل تأييد الحق والحرية ، فقد ألحق به نظرية أخرى لها نصيب من الحق ولكنها تتحدى التعريف وتأبى التحديد ويمكن بسهولة أن يساء تفسيرها وتفهم على غير وجهها الصحيح ، فعنده أن كل أمة لها رسالتها الخاصة التى تستطيع أن تؤديها للإنسانية ، وهذه النظرية التى تأبى التحديد الدقيق تتسع للخيال الشعرى، وقد سبح فيها خيال متزينى ؛ وعنده أن رسالة إنجلترا هى الصناعة والمستعمرات ورسالة روسيا هى حضارة آسيا وأن رسالة ألمانيا رسالة فكرية ، ورسالة فرنسا هى العمل ، وأن إيطاليا تجمع بين الفكر والعمل ، وتحديد الرسالات على هذا الوجه لا يخلو من إسراف ومبالغة ، والمسألة كما يبدو لى ليست بمثل هذه البساطة واليسر .

وكان متزينى يرى أن من هذه القوميات المستقلة فى أوربا ينشأ اتحاد الدول الأوربية ، وهذا الاتحاد الأوربى العظيم يقضى على التقسيمات التى أوجدتها منافسات الأسر المالكة ، ويقوى القوميات ، ويرفع شأنها ، ومن العجيب أن نظرة متزينى هنا كانت لا تتجاوز أوربا وأممها ، وقد لاحظ بولتن كنج أنه لم يذكر الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا الصدد إلا نادراً ، ولم يشر كذلك إلى الأمم الشرقية ،

ومتزينى رجل إنسانى النزعة ، ولذلك يدهشنى منه هذا الموقف ، فإن أوربا ليست العالم كله ، والمنتظر على الدوام من مثل متزينى أن تكون نظرته إنسانية واسعة شاملة ، وربما كان يعلم من أمور أوربا وسياستها أكثر مما يعلم عن سائر أنحاء العالم ، ولكن هذا لم يكن مدعاة لأن يسقط من حسابه الأمم الأسيوية والأمم الإفريقية ، والظاهر أن أحوال الأمم الشرقية التى كانت فى عصره سيئة متأخرة هى التى أغرته بعدم التفكير فيها ، وكان متزينى يعتقد أنه متى انتصر مبدأ القوميات فى أوربا انتفت أسباب الحرب ، وتوثقت روابط الإخاء بين الأمم الأوربية ، وتنافست فى سبيل التقدم ، وكان يعتقد أن إيطاليا الموحدة المستقلة هى التى تستطيع أن تقوم برسالة توثيق الروابط الأدبية بين الأمم الأوربية ، وعن طريق أوربا تشمل رسالتها العالم جميعه ، وإيطاليا خليقة بذلك بحكم تقاليدها وماضيها وموقعها الجغرافى ، وقد انتصر مبدأ القوميات انتصارات باهرة بعد موت متزينى ، ورغم ما أقيم فى طريقه من عقبات وما أصيب به من انحراف والتواء فإنه لا يزال متابعاً تقدمه مواليا انتصاره ، وقد استمسكت به الأمم الأوربية وغير الأمم الأوربية ، وقد شقى العالم من النزعة القومية المتطرفة ولكن الشر يحمل فى طيه علاجه وعناصر القضاء عليه ، والمأمول أن ينتهى عهد القوميات الطاغية المعتدية لينتقل العالم إلى مرحلة جديدة فى طريق التقدم ، ولقد انحرفت بعض القوميات عن الطريق السوى ، ولكن الإنسانية تتعلم من أخطائها وتنهض قوية موفورة النشاط من عثراتها .

فمتزينى كما أوضحت على شدة إيمانه بالقومية لم يكن يعتقد أنها الغاية التى تقف عندها الإنسانية ، وإنما كانت القومية فى رأيه عاملاً من العوامل التى تؤدى إلى التضامن الأشمل ، وهى تكمل الفردية ، وكانت الثورة الفرنسية فى رأيه قد ختمت عهد الصراع للحرية الفردية ، وتلا ذلك عهد آخر هو عهد بناء التعاون الإنسانى ، واعتقد متزينى أن هذا التعاون المأمول لا يتم إلا عن طريق تحقيق الكيان القومى لشتى الأمم ، ولم ير متزينى تحقيق هذا التعاون عن طريق الاشتراكية أو الشيوعية ، لأنه كان يعتقد أن كلتيهما تؤدى إلى قيام الحكم الديكتاتورى وهو بطبيعته الدمقراطية يمقت الحكم الديكتاتورى فى كل صورة من صوره ، وكان يريد لإيطاليا أن تكون أنموذجاً مثالياً للحياة القومية الصحيحة ، وكان يرى إيجاد نظام الحكومة المحلية بها منعاً للطغيان وتدريباً للناس على معالجة شؤون الحياة الاجتماعية والتمرس بأحوالها وخلق تقاليد لها ، ومتى أجاد الناس التصرف فى شؤونهم الصغيرة المحدودة أصبحوا أقدر على اختيار الممثلين للأمة ومراقبة أعمالهم ، وكان متزينى يمقت سياسة كافور ، والسبب الأصيل فى ذلك هو أن متزينى كان يعتقد أن مساعدة پيدمونت لازمة لتتم الوحدة وتتحرر إيطاليا ، ولكنه كان يود أن تتقدم پيدمونت إلى القيام بهذا العمل من تلقاء نفسها ولا تملى شروطاً ولا تطلب ثمناً لهذه المساعدة ، ومتى تم تحرير إيطاليا تلتقى جمعية ممثلة للأمة وتفصل فى اختيار النظام الملكى أو النظام الجمهورى ، ومتزينى كان يؤثر النظام الجمهورى ، ولكنه

كان يرى أن الأمة هى صاحبة الكلمة ، ولو اتبع ما أشار به متزينى واختارت الأمة الإيطالية نوع الحكم الذى ترتضيه فى حرية تامة لما قضى متزينى نحبه وهو منفى شريد غريب فى دياره متنكر بين قومه ومواطنيه ، ومن أسباب كراهة متزينى للأسر المالكة أنه كان يعزو إلى مطامعها أكثر الحروب التى وقعت فى أوربا ، وكان يرى أنه متى نشأت القوميات وثبتت أقدامها فى أوربا وتوثقت بينها الروابط والعلاقات ذهب عهد الحروب والمشاحنات ، وقد انتقد الناقدون متزينى من هذه الناحية ، وقالوا إن عهد القوميات لم يقض على أسباب الحرب ، والحروب التى قامت فى عهد القوميات كانت أشد وطأة وأوسع نطاقاً من الحروب التى شنتها الأسر المالكة ، والحكومات القومية باغية معتدية مثل الحكومات الملكية ، وهذا النقد لا يخلو من الحق ، ولكن يحسن أن يلاحظ كذلك أن معظم الحروب التى كانت تشنها الأسر الملكية كانت أعرق فى الحماقة والسخافة والاستخفاف بحياة أفراد الأمة والمغامرة بمصيرها ، على أن هذا النقد لا يهدم آراء متزينى ، فمتزينى رجل من رواد الفكر الممتازين ، وهؤلاء الرواد أبعد نظراً وأوسع خيالاً من الناس العاديين ، وهم يرون الغايات أقرب منالاً ، وأيسر تحقيقاً ، وقد يستسهلون الصعب ، ويستقربون البعيد ، والقوميات الدمقراطية التى تورطت فى الحرب وأمعنت فى العدوان انحرفت عن القومية كما كان يتصورها متزينى وجانبت المبادئ الدمقراطية الصحيحة التى كان ينادى بها ويناضل عنها ويعيش من أجلها ،

وعلاج القوميات الدمقراطية من داء العدوان الوبيل إنما يجيء من التربية القومية الصحيحة التى كان ينادى بها متزينى ، وهذه التربية الوطنية الصحيحة تعلمنا أن نحترم مثل القوميات الأخرى العليا ، ونراعى حقوقها ، وهذه التربية لا تزال ناقصة مهملة ، واقتلاع العداوة التى تضمرها بعض الأمم للأمم الأخرى من أقوى الأسباب لتصفية الجو العالمى وتطهيره وإيجاد أسباب التضامن بين الأمم وهو الحلم الذى كان يراود متزينى ويطالعه فى كل مرحلة من مراحل حياته ، والأمة لا تتماسك وتقوى وحدتها إلا إذا تأكدت أسباب التعاطف بين أفرادها ، وكذلك عصبة الأمم لا يصبح لها قوة ومكانة محترمة ورأى مسموع إلا إذا حسن التفاهم بين الأمم ، وساد العطف وحب التعاون ، وإذا يئسنا من ذلك وأنكرنا على متزينى وأمثاله آمالهم المترامية وأخيلتهم المحلقة وأمانيهم المحبوبة فإن الحوادث القاسية والنكبات المترادفة ستعلمنا أن نعيد التفكير فى هذه الآمال الحسان والأمانى العذاب ، ونعمل جاهدين على تحقيقها ، إلا إذا آثرنا الفناء ، ورضينا العدم ، ولعل الإنسانية أعقل وأصح رأياً من أن تنتحر بيدها وتؤثر الفناء على البقاء والعدم على الوجود .

وقد ضرب متزينى وهو فى الحكم مثلاً للحاكم الذى لا يسىء استعمال القوة فكان حكمه يصدق فيه قول عبيد الله بن قيس الرقيات فى مصعب بن الزبير :

ملكه ملك قوة ليس فيه . جبروت ولا به كبرياء

وقد كان متزينى يجاهد من أجل خلق أمة وإحياء وطن ، ولكنه مع ذلك تنزه عن القسوة وأعرض عن الأساليب الملتوية ، وآراء متزينى فى القومية تزينها وتسمو عليها آراؤه فى الدمقراطية ، ويلقى عليها شعاعاً وهاجاً اعتقاده فى العناية الإلهية .

الفصل الخامس عشر

(متزينى والدين)

كانت حياة متزينى المتمرد الثائر حياة مطردة متصلة مترابطة الحلقات متناسقة الخطوات متجاوبة النواحى ليس فيها عوج ولا التواء وليس فيها انحراف ولا تراجع ، فأقواله وآراؤه متجاوبة مع أعماله ومواقفه وحياته الخاصة الخفية لا تقل نبلاً وعفة وكرماً وشجاعة عن حياته العامة البارزة ، وآراؤه فى شيخوخته لا تناقض آراءه فى مطالع شبابه ، وبين آرائه فى السياسة والاجتماع والدين والقومية والأدب والنقد وحدة لا تنفصم عروتها وصلة لا تنحل عقدتها ، والسر فى هذا الانسجام الفنى البديع النادر فى حيوات البشر هو أن حياته كانت تسيطر عليها مجموعة خاصة من الأفكار ، وكانت هذه المجموعة من الأفكار تضم أجزاءها وتجمع أشتاتها ، وقد كان متزينى رجلاً كثير الجوانب ، كان سياسياً وكان فيلسوفاً وكان مصلحاً دينياً وناقداً أدبياً وزعيماً شعبياً ، وكل جانب من جوانب حياته الحافلة كان يكمل الجانب الآخر ، وكانت الأجزاء كلها تكون وحدة متجاوبة منسجمة معقودة الأوائل بالأواخر ، كانت عقيدته الدينية كامنة فى صميم هذه الحياة ومحورها الرئيسى ومركزها الداخلى ، والدين عنده هو عنصر

الحياة الجوهرى الأبدى وروح الإنسانية وحياتها ووعيها ، وهو الذى يلهم الإنسانية مبادئ الإخاء وخدمة المجتمع ويشرفها ويعزيها ويشد من عزمها ويقويها ، والشعور الدينى فى رأى متزينى كامن فى أعماق الوعى الإنسانى متصل بالحياة اتصالاً وثيقاً ، وهذا الشعور بالقداسة فى الكون يدفعنا دفعاً إلى التماس الكمال والبحث عن الطريق الذى يوصلنا إليه ، وقد حاول الإنسان فى كل عصر أن يعرف شيئاً عن الغاية لوجوده الأرضى ، والدين يعلمنا المبادئ المسيطرة على الإنسانية ، ويقوى الرابطة التى تربط الناس بعضهم ببعض لشعورهم بوحدة الغرض ووحدة الأصل ووحدة الرسالة الدنيوية ، ويتخذ الإنسان هذه الرسالة وهذا الغرض نجمة يسترشد بها فى تطلعه للخير ، ومن هذه الصيغة التى تسمى « الدين » تنشأ مبادئ التربية وقواعد الإخاء الإنسانى والسياسة والاقتصاد الاجتماعى والفن ، ومن المستحيل الممتنع إبعاده عن السياسة، ويقول متزينى فى ذلك: « إذا نظرنا نظرة تاريخية فإننى لا أعرف غزواً واحداً عظيماً للروح الإنسانية ولا خطوة مفردة هامة لجعل المجتمع الإنسانى كاملاً لم تكن جذورها ضاربة فى أعماق يقين دينى قوى » ويقول كذلك : « لا يوجد مجتمع صادق بدون يقين مشترك وغرض عام ، والدين يقدم المبادئ والسياسة تطبقها، وحيث لا يوجد هذا اليقين الدينى فإن مجرد إرادة الأكثرية معناها فقدان الاستقرار والعسف بالأقلية ، وبدون الله تستطيعون أن ترغموا ولكنكم لا تستطيعون أن تقنعوا ، وتستطيعون أن تكونوا طغاة جبابرة ولكنكم لا تستطيعون أن تكونوا

مربين مرشدين أو رسلاً هادين » .

وعند متزيني أنه لا يمكن أن يوجد مجتمع سليم متماسك بغير عقيدة دينية عميقة مستعلية غلابة ، وقد فشلت المادية لأنها فردية النزعة جامدة فاترة تخمد شعلة التفكير السامى والحياة الحرة وتغرى الناس بعبادة النجاح وتجعلهم بعد ذلك عبيداً للشدة المنتصرة والواقع الذى تحقق ، وتقضى على العظمة الحقيقية فى الأمة ، وقد ظهرت محاولات لإقامة الأخلاق على أساس غير الأساس الدينى ولكن بدون عقيدة ولا سماء ولا سند للأخلاق ، والإنسان فى حاجة ماسة إلى العقيدة ليرد عن نفسه غوائل الشك ، ويروى ظمأه إلى المستقبل ، وهو يريد أن يعلم من أين جاء ، وإلى أين يسير ، وقد حاولت الناس الاستناد إلى الفلسفة ولكن الفلسفة صخرة جرداء لا تستريح فى ظلالها الحياة ، والتنكر للدين ليس له قيمة إلا فى حالة الانتقال من عقيدة إلى عقيدة أسمى ، والفلسفة تستطيع أن تحلل وتشرح وتفصل ولكنها لا تبعث أنفاس الحياة ولا تدفع الناس إلى القيام بالواجب أو الإقدام على جلائل الأعمال .

وكان متزيني بالرغم من استمساكه بالفكرة الدينية أو من أجل استمساكه بالفكرة الدينية يمقت البابوية ويعتقد أنها أساءت إلى إيطاليا إساءة شديدة وأضرت بها ضرراً بليغاً ، وكان يرى أنها قد قضى عليها منذ انتزع منها شمال أوربا وأنها قد خانت رسالتها وهى حماية الضعفاء وحالفت الأمراء واعتزلت الحركات الإنسانية التى قامت فى القرن

التاسع عشر مثل تحرير إيطاليا واليونان وتحرير السود ، وأنها أصبحت لا دين لها ولا قوة ولا رسالة وأن أيامها قد أصبحت معدودة وأن ساعة وفاتها قد حانت ولكنه كان مع ذلك يحترم ماضيها ويود لها خاتمة نبيلة مثل « غروب الشمس فى المحيط العظيم » .

وكان متزينى يأخذ على العقيدة البروتستانتية إسرافها فى تأكيد التفسير الفردى ، فإن كانت الكاثوليكية فى نظره تسرف فى الخضوع للتقاليد فإن البروتستانتية تبالغ فى الاعتماد على الفردية حتى أصبحت عقيدة البروتستانت لوناً من الأثرة الروحية تفضى إلى المادية الخالصة ، وقد اتهمها بأنها شجعت على نشوء نظرية « دعه يعمل » فى الاقتصاد وهى فى رأيه نظرية فوضوية قاسية .

وكان يحترم شخصية المسيح ويكبره ويتحدث عنه بكلمات عذبة رقيقة جميلة فهو الروح الإنسانية الحافلة بالعطف المتحليه بأقدس الفضائل وقد « جاء للجميع وتحدث للجميع من أجل الجميع » وقد شمل بحبه الأغنياء والفقراء والسادة والعبيد ، وكان يجد فى تعاليمه الكثير من الحقائق الأخلاقية والاجتماعية التى يحرص عليها ويدعو إليها ، فالمسيح يدعو إلى الإخاء والتضحية والمساواة والحرية وإلغاء الأرستقراطية ، ونظرة متزينى إلى الحياة تتفق مع جوهر المسيحية كما كان يفهمها هو ويفسرها ، ومع اعتقاده أن آداب المسيح خالدة وأن الإنسانية ستزيد عليها وتضيف إليها ولكنها لا تنقضها ولا تهدمها فإنه كان يقول عن نفسه : « لست مسيحياً وإنما أدين بما أعتقد أنه عقيدة أنقى وأسمى ،

ولكن وقتها لم يحن بعد » وكان يرى فى المسيحية بعض العيوب الجوهرية ويعتقد أن هــذه العيوب هى التى تجعلها لا ترضى المعرفة الإنسانية الحديثة ولا تلهم جهود الناس ، وأول هذه العيوب فى نظره أنها ترفض الحياة الأرضية ، وقد أذاعت الكنيسة أن الدنيا شر وأن الحياة الدنيوية تكفير عن الخطيئة وأن السماء هى مستقر الروح الحقيقى ، ودعت الناس إلى نبذ الدنيا وإهمال شأنها على حين أن الواجب يقضى عليهم بأن يعيشوا بها ويجاهدوا ويعملوا على تحسين أحوالها ، ويأخذ على المسيحية كذلك نزعتها الفردية ، فالمسيح فى رأى متزينى يدعو كل فرد إلى أن يعمل على إكمال نفسه بمجهوده الخاص وبمعونة الله ، ولكن نمو الإنسان الروحى متوقف على النمو الروحى لمن هم حوله من الناس ، وكانت الثورة الفرنسية فى رأيه وليدة المسيحية ومن ثم تأكيدها قيمة الفرد ، وقد أدى ذلك إلى الأنانية الأدبية ، والفوضى الاجتماعية ، وكان يرفض فكرة سقوط الإنسان ، وعنده أن الإنسان بدأ فى الحضيض وأخذ فى الارتقاع والسمو ، والآداب المسيحية لا تعرف الوطنية ، والإحسان هو علاجها للعيوب الاجتماعية ، ولكن الإحسان أضعف من أن يقضى على أسباب الفقر ، والعقيدة المسيحية فى رأيه لا تعين على علاج مشكلات العصر ، ولا تحرك الجبال ، ولا تصوغ العالم صياغة جديدة ، وقد ذهب عصرها ، وكل محاولة لتجديدها فاشلة .

وموجز القول إنه كان يحتفظ من العقيدة المسيحية باعتقادها فى اعتلاء الجانب الروحى فى الحياة ، وعقيدتها فى الله ، وعنايته الإلهية ،

واحترامه للمسيح ، وتعلقه با لكمال الأخلاقى ، ودعوتها إلى الحب والتضحية بالنفس ، وإيمانها بالبقاء وخلود النفس ، وكان ينكر ألوهية المسيح ولا يقبل كذلك فكرة وجود وسيط بين الله والإنسان وفكرة الخلاف بين الروح والمادة وإهمال الأشياء الدنيوية نتيجة ذلك .

واليقين الجديد الذى كان يتطلع إليه مترينى ليكمل المسيحية لا بد أن تكون له عقائده وأحكامه ، والحياة لا تكون فى الفراغ ، لأن معنى الحياة هو الاعتقاد فى شىء من الأشياء ، وهذا الاعتقاد يحدد للإنسان غايته ، ويوجه ملكاته إلى هذه الغاية ، ولا بد للإنسانية من خيمة تقيها الزوابع والأعاصير ، ونبع يبل ظمأها ويروى غليلها فى الصحراء الشاسعة المترامية التى تطوى أبعادها فى رحلتها الدنيوية ، وأساس عقيدة المستقبل هذه هو الاعتقاد بالله موجد الوجود والفكرة الحية الخالدة ، والإنسان يهتدى إلى وجود الله ولكنه لا يخلق هذا الإله ، وقد انتقد مترينى نظرية رينان فى أن وجود الله مسألة ذاتية نقداً شديداً ، وانتقد عقيدة البانثيزم كما يراها اسبنوزا لأنها تمزج الذات بالموضوع وتخلط الخير بالشر ولا تفسح مكاناً للعناية الإلهية أو الحرية الإنسانية ، وانتقد كذلك عقيدة الـ Deism التى تقول بأن الله موجود ولكنه لا يتدخل فى شؤون الدنيا ، ولكن ما دليل مترينى على وجود الله ؟ الدليل عند مترينى على وجود إله هو إدراك الإنسان لذلك بنوع من اللقانة والإلهام ، وهو يقول فى ذلك « الله موجود ، وهو حى فى ضمائرنا وفى ضمير الإنسانية وفى العالم جميعه حولنا ، وضميرنا

يتجه إليه حينما يطغى على نفوسنا الحزن أو يحتوينا السرور ، والذى ينكر وجود الله وهو يتأمل النجوم فى سماء ليلة صافية الأديم أو وهو واقف إزاء قبور أعز الناس عليه وأحبهم إليه أو وهو يشاهد مصرع شهيد من الشهداء لا بد أن يكون رجلاً شقياً تعساً أو مجرماً أثيماً مستغرقاً فى الإجرام والآثام » ونزوعنا إلى الكمال وتعلقنا باللانهائى يثبت وجود الكمال ووجود اللانهائى أى يثبت وجود الله ، ونفس الوجود فى رأى مترينى يحمل الدليل على وجود الخالق المدبر « فالله موجود لأننا موجودون » و « الكون يدل على وجوده بما فيه من نظام وانسجام وبما فى تنسيقه وإحكام قوانينه من عناية وحسن تدبير » .

وكان مترينى يعتقد اعتقاداً جازماً أكيداً بخلود الروح ، فالحياة فى هذه الدنيا قصيرة المدى سريعة الكر يعتورها النقص وتعوقها الأخطاء فلا تستطيع الروح فى رحلتها الدنيوية أن ترتفع إلى المستوى الذى يوصلها إلى الله ، ولكن بالرغم من ذلك فإن التقاليد والبداهة يعلماننا أننا سنصل يوماً ما إلى المثل الأعلى ، والحب سيكون ضرباً من السخرية إذا لم يتجاوز القبر ، ووحدة الشعب تدل على وجود رابطة بين الأموات والأحياء ، والعلم يعلمنا أنه ليس هناك موت وإنما هناك انتقال ، وتحول ، وكان مترينى شديد الاستمساك برأيه فى خلود النفس ، فالأعزاء الذين فقدهم كانوا فى رأيه يرقبونه ويلهمونه الأفكار والنوازع ، والروح تتدرج فى السمو وسرعة تقدمها متوقفة على صفائها ونقائها ، ووجود الشر لا يخيف مترينى ولا يروعه فالشر فى رأيه شىء

زائل لأن الإنسان يستطيع التغلب عليه ، والإنسان بطبيعته مخلوق ناقص ، ولكنه يستطيع أن يستدرك نقصه ويسير فى طريق التقدم والكمال بتضحية النفس من أجل الخير والصلاح ، فالشر إذاً لازم لإظهار مزايا الإنسان والكشف عن قدرته ، وما دام التقدم هو قانون الحياة فإن الموت فى رأى مترينى شىء لا وجود له ، وآراؤنا وأفكارنا وأمانينا وتطلعاتنا جميعها تترامى إلى ما وراء امتداد حياتنا الأرضية ، وكوننا نملك مثل هذه الآراء والأفكار والأمانى والنوازع التى لا نستطيع أن نردها إلى حواسنا دليل على أنها قد هبطت إلى نفوسنا مما وراء عالمنا الأرضى وأنها يمكن أن تتحقق فى ذلك العالم الآخر .

ومن كلامه عن النزعة المادية قوله : « المادية ليست معتقداً ، إنها بغير يقين ولا تدرك شيئاً أسمى ، ولا تعترف برسالة ، وتعيش فى نفسها وبنفسها مع نفسها ، وتنظر إلى الحقائق ، وتهمل المبادئ ، وتظل نظرية فردية فاترة حاسبة ، ومثل هذه النظرية لا تخلق أممـاً عظيمة لأن الأقوام العظاء هم الذين يمثلون فكرة فى الإنسانية وينمون هذه الفكرة ، والمادية لاتأتى بفكرة عامة وإنما تنفيها وتستبعدها وتجعل المصلحة الذاتية قانوناً لكل شىء » .

ويعجب مترينى من أمر المثاليين الماديين ، فهم يحاولون مقاومة الأثرة التى يولدها الطغيان ويريدون أن يعلموا الناس الولاء للوطن والتضحية من أجله ولكنهم برغم ذلك يذيعون أفكاراً تصرف الناس عن حب التضحية والولاء للوطن ، فهؤلاء القوم الذين يحرضون الناس على

واجب إراقة دمهم من أجل الفكرة وفى سبيل المبدأ ينكرون الفكرة والمبدأ ، فلا أمل لهم فى الحياة الأخرى ، وهم لا يعتقدون بخلود النفس ولا يصدقون بوجود قانون التقدم أو وجود العناية الإلهية ، والإنسان فى رأيهم عرضة انقلبات الحظ وصدمات القوى العمياء التى تخبط خبط العشواء ، وهم يعلمون إخوانهم الذين يحاولون استجاشة عزيمتهم واستنهاض همتهم أنهم من تراب زائل وأن فكرة مثل كپلر أو دانتى من تراب أو من فسفور ! وأن حرية الإرادة والقانون الأدبى والتقدم كل ذلك أوهام وأضغاث أحلام ، ويقول متزينى « الأفكار الكبيرة تخلق الأمم العظيمة ، فلتكن حياتكم الخلاصة الحية لفكرة واحدة عضوية ، وأوسعوا آفاق الناس وحرروا ضمائرهم من رق المادية الجاثمة عليهم ، واجعلوا لهم رسالة ضخمة لتكون قبلة خواطرهم ، والمصالح المادية حينما يلحق بها الضرر تحدث التمرد والعصيان ولكن المبادئ وحدها هى التى تستطيع إيجاد الثورات وإحداث الانقلابات ، والمسألة التى تشغل خواطر العالم فى هذه الآونة وتثير اهتمامات الناس مسألة دينية ، وقد أخمد التحليل وفوضى المعتقد الدينى جذوة اليقين فى نفوس الناس » وكان متزينى يرى ضرورة العودة إلى إشعال العقيدة الدينية ، لأنها هى وحدها التى تستطيع ابتعاث الهمم ، وتوحيد الصفوف ، وإقصاء الخونة والملوثين ، والقضاء على الريب والشكوك .

ويرى متزينى أن الذين يفصلون السياسة عن الدين ويقولون بترك المسائل الدينية للسلطة الروحية وإن الأشياء التى تهم الناس جميعاً هى

الأشياء الدنيوية لا يحبون الله ، وأن الذين يؤثرون الانصراف عن الحياة الدنيا ويعتزلون أمورها ويعقدون طرفهم بالسماء مستقلين الأرض وما فيها ، يرى مترينى أن مثل هؤلاء لا يعرفون الله .

وفى سنة ١٨٤٦ كتب فى رسالة إلى كارلو فنتزى يقول « أتريد أن تكون رجلاً ؟ إذاً درّب حياتك فى هذه الأرض على عبادة الجميل والعظيم والمقدس واعمل لتدريب حياة غيرك على هذا المثال ، ولكن ليكن فى بالك أن هذا الشىء الذى أطلبه منك شىء جدى خطير ، وأنه أكثر جدية وخطورة مما تظن ، فإرادة القلب الهادئة ليست كافية ، وليس يكفى أن تحدوك حماسة الطبيعة الكريمة من الحين إلى الحين على العمل الجميل ، فهذا هو حال الرجال الذين تسوقهم دوافعهم ، وهم أقل مرتبة من الرجال الحقيقيين . ومن الضرورى أن تكون هذه العبادة التى أطلبها منك دائمة مستمرة فى كل وقت وبادية فى جميع أعمالك ، ومن الضرورى أن تكون وحياً لها وأن تتمثل فيك » .

وبهذا الإيمان العميق بالله وبالتقدم وبخلود النفس استطاع مترينى أن يكون فى لقاء الحادثات كالذين قال فيهم المتنبى :

وإنا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل

واستطاع أن يقاوم الإغراء ، ويثبت للشدائد ، ويحتمل الآلام صابراً محتسباً ، وأن يجاهد فى غير ملل ولا طمع فى منصب ، ولا تطلع إلى جاه وسلطان ، وإنما مضحياً بكل شىء فى سبيل تحقيق مثله العليا وأهدافه السامية .

الفصل السادس عشر

متزينى وفكرة الواجب

فى الكلمة التى وجهها متزينى إلى العمال الإيطاليين واستهل بها كتابه « واجبات الرجل » يقول مخاطباً العمال « لماذا أتحدث إليكم عن واجباتكم قبل أن أتحدث إليكم عن حقوقكم ؟ وفى المجتمع الذى يضطهدكم فيه الجميع برغبتهم أو بغير رغبتهم والذى يمتنع عليكم فيه ممارسة الحقوق الخاصة بالإنسان ، والذى فيه البؤس نصيبكم ، وما يسمى : السعادة نصيب غيركم من طبقات الناس ، لماذا أحدثكم فى مثل هذا المجتمع عن التضحية بالنفس بدلاً من أن أحدثكم عن الغلبة والانتصار ، وأحدثكم عن الفضيلة والإصلاح الأخلاقى والتربية بدلاً من أن أحدثكم عن العيش اللين والرغد المادى ؟ هذه مسألة يجب على أن أجيب عنها لأوضح الفرق بين مدرستنا وغيرها من المدارس التى يبشر بها فى أوربا ، ولأنها — علاوة على ذلك — مسألة سرعان ما تظهر فى تفكير عقل العامل الشقى الغاضب » .

ثم يعبر عن لسان حال العمال فيقول « نحن فقراء مستعبدون متعوسون ، فحدثنا عن أحوال مادية أحسن من أحوالنا وعن الحرية والسعادة ، وقل لنا هل قضى علينا بالشقاء الأبدى ، أو هل نحظى

بالسعادة نحن كذلك ؟ بشر بالواجب لسادتنا وللطبقات الأعلى منا التى تعاملنا كأننا آلات وتحتكر النعم والخيرات التى هى من حق الجميع ، حدثنا عن الحقوق ، وحدثنا عن طريقة الدفاع عنها وحدثنا عن قوتنا ، وانتظر حتى يكون لنا كياننا المعترف به،وحدثنا بعد ذلك عن الواجبات والتضحية » .

ويتبع ذلك متزينى بقوله « هذا ما يقوله الكثيرون من عمالنا ، وهم يتبعون أساتذة وجماعات تستجيب لرغباتهم ، وهم ينسون شيئاً واحداً ليس غير ،.وهذا الشيء هو أن هذه النظرية التى يثيرونها قد بشر بها ودعى لها خلال الخمسين سنة الأخيرة ولم يسفرذلك عن أقل تحسين فى أحوال العمال المادية » .

ثم يستطرد متزينى فى الحديث ويوضح أن الثورة الفرنسية قامت على المطالبة بالحرية وحقوق الإنسان ، وأن الثورات التى تلتها أيدت إعلان حقوق الإنسان وأكدته واستكملته فعرف كل فرد حقوقه وأصر عليها واستمسك بها ، وكانت هذه الثورات تطالب بالحرية لأن الحرية هى الوسيلة إلى الحياة الطيبة والعيشة السعيدة الراضية ، وكانت كل المذاهب الثورية تبشر بأن الإنسان قد ولد للسعادة وأن من حقه أن يعمل على نيل السعادة ويتوسل إلى ذلك بكل وسيلة ممكنة ، وأنه ليس من حق أى إنسان أن يعترض سبيله ، وأن من حقه أن يزيل كل العقبات التى تقوم فى طريقه ، وقد استطاع الإنسان أن يقهر العقبات ويظفر بالحرية . وقد ظلت الحرية سنوات عدة فى مواطن

جمة وما تزال فى بعض تلك المواطن . ولكن هل تحسنت أحوال الناس ؟ وهل ظفر الملايين من الكادحين بما كانوا يؤملون من العيش اللين والنعيم الموعود ؟ كلا ، بل قد ازدادت أحوالهم سوءاً ، فارتفعت أسعار الحاجيات وهبطت أجور العمال وتكاثرت الأزمات وتوالت الهجرات ، فلماذا لم تحسن نظرية حقوق الإنسان الأحوال ولم توزع الإنتاج توزيعاً عادلاً متساوياً بدلاً من أن يظل فى أيدى القلة القليلة لا فى أيدى الكثرة الكاثرة ؟ولماذا لم يؤد تقدم الصناعة والتجارة إلى تحسين أحوال الكثرة وإنما أدى إلى رخاء القلة وترفها ؟ الجواب عند مترينى واضح لمن أراد أن يبصر ويتدبر ، فالناس كما تكونهم التربية ، وهم يعملون حسب المبادئ التى يتلقونها ، فقد قامت الثورة الفرنسية والثورات التى تلتها على المطالبة بحقوق الإنسان وظفرت بحرية الفرد ، ولكن ما قيمة هذه الحرية لمن لا يستطيع ممارستها ؟ وماذا تجدى حرية التعليم لمن لا يجد متسعاً من وقته للتعليم ؟ وماذا تنفع حرية التجارة لمن لا يملك شيئاً ليتجر فيه ؟ وفى شتى الأمم التى أعلنت فيها هذه المبادئ كان المجتمع مكوناً من أفراد قلائل يملكون الأرض ويحوزون رؤوس الأموال وأكثرية ساحقة لا تملك شيئاً فهى مضطرة ومرغمة على أن تخدم تلك الفئة القليلة بالشروط التى تمليها عليها هذه الفئة المسيطرة لكى تعيش ، وأفراد هذه الكثرة الساحقة يقضون حياتهم فى العمل الرتيب الممل . فما قيمة الحرية لهؤلاء الذين يجاهدون ويكدحون فى سبيل الحصول على لقمة الخبز لسد نهمة الجوع ؟ كان لابد من

تقليل ساعات العمل وتحسين أحوال هؤلاء العمال لتصبح الحرية لها قيمة ، ولكن لماذا يقوم الأفراد القلائل أصحاب الثروات الطائلة والجاه العريض بذلك ؟ أليس العيش الناعم هو أسمى مطالب الحياة ؟ أليست النعم المادية مفضلة على كل شيء ؟ فلماذا يقللون من أسباب استمتاعهم من أجل الفقراء والمحتاجين ؟ ليحاول كل إنسان أن يعمل لنفسه ، فالمجتمع قد ضمن الحرية لأفراده تلك الحرية اللازمة للطبيعة البشرية ، فإذا كان هناك من عاقته ظروف حياته عن الانتفاع بهذه الحرية الممنوحة له فليرض بما قسم له ولا يلومن غيره من الناس .

وقد أصبح موقف الأغنياء الميسورين إزاء الفقراء المعسورين هو الموقف الذى يقفه كل فرد فى المجتمع من غيره من الأفراد ، فكل إنسان يسعى لنيل حقوقه ويعمل على تحسين أحواله دون أن يفكر فى غيره ، وحينما تتصادم الحقوق تقع المعركة ولكنها معركة لا تراق فيها الدماء لأنها معركة ختل ودهاء ، وهى معركة أقل رجولة ولكنها ليست أقل فتكاً وتدميراً ، ينتصر فيها الأقوياء بعتادهم المهيأ ويسحقون الضعفاء ، وقد دربت هذه الحرب الناس على الأثرة والشره المادى ، وقضت حرية الاعتقاد على عقيدة الجماعة كما أوجدت حرية التعليم الفوضى الأخلاقية وأصبح الناس لا رابطة تربط بعضهم بالبعض الآخر ولا جامعة تجمعهم ولا هدف يؤلف بين قلوبهم ويضم شملهم الشتيت ، وما دام كل إنسان ينشد المتعة ويجرى وراء مصلحته الخاصة فهو لا يبالى بغيره من الناس ولا يتورع عن وطئهم بالأقدام فى سبيل

الوصول إلى أغراضه ، فالناس إخوان فى الظاهر وأعداء فى الواقع وهذا ما أوصلتنا إليه فكرة « حقوق الإنسان » .

والحقوق موجودة من غير شك ، ولكن حينما يصطدم حق بحق فكيف نوفق بين الاثنين دون الرجوع إلى شئ أسمى من الحقوق كلها ؟ وحينما يصطدم حق فرد من الأفراد أو حقوق أفراد كثيرين بحقوق الوطن فإلى أى محكمة نحتكم ؟ وإذا كان حق الظفر بالعيش الراغد يخص كل إنسان فمن الذى يفض الخلاف بين الصانع وصاحب المصنع ؟ وإذا كان حق الوجود هو الحق الأول لكل إنسان فمن الذى يطالب بالتضحية بهذا الحق من أجل الناس ؟ وهل نطالب به باسم الوطن أو باسم المجتمع أو باسم إخواننا البشر ؟ وما هو الوطن فى رأى أصحاب فكرة حق الإنسان ؟ إنه المكان الذى تضمن فيه حقوقنا الفردية ، وليس المجتمع سوى مجموع أفراد قد اتفقوا على التساند لتحصيل الحقوق الفردية ، فكيف نطلب إلى المجتمع بعد ذلك التضحية بهذه الحقوق ؟ وبعد أن ظللنا نتحدث السنوات الطويلة عن المصالح المادية كيف نطلب إلى الأفراد الإعراض عنها والزهد فيها ؟ .

فالثورات التى تلت الثورة الفرنسية كلها كانت ترمى إلى تأكيد الحقوق لا إلى الاعتقاد بالواجبات ، ولقد جاهد الناس فيها باسم المطالبة بتحسين الأحوال ورفع مستوى الحياة وحرية التفكير ونيل المناصب السامية وتمكين الأكفاء من الوصول إليها ، ولكن بعد أن ظفر الناس بالحقوق المطلوبة وتيسرت لهم السبل إلى المناصب وأخذوا

حظهم من العيش الرافه وتقلبوا فى أعطاف النعمة بعد الضيق والحرمان نسى الظافرون منهم أمر الشعب ولم يشغلوا أنفسهم بالتفكير فيه ، وهم ليسوا خونة وإنما النظرية التى تبعوها هى الخائنة الغادرة !

والذى يؤمن بنظرية الحقوق وحدها كيف يعمل للغاية المشتركة والهدف العام ؟ وكيف يحمل نفسه على إنماء الفكرة الاجتماعية ؟ وإذا استمسك إنسان بنظرية الحقوق وأبى مناصرة إخوانه البشر فهل من حق الأغلبية إرغامه على خدمتها ورعاية مصلحتها ؟ وبأى حق تعاقبه ؟ وكيف نثبت للفرد أن عليه إخضاع إرادته لإرادة إخوانه العامة سواء كانوا إخوانه فى الوطن أو إخوانه فى الإنسانية ؟ لا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق السجن أو إنزال العقوبة ، ولكن هذه حرب ونحن نريد السلم وهذا طغيان ونحن نريد التربية والتهذيب

ونظرية الحقوق تمكننا من أن ننهض ونكتسح العقبات ولكنها لا تمكننا من توحيد العناصر وتقوية الروابط ، والاقتصار على طلب المعيشة اللينة ينشىء رجالاً أثرين يعبدون المادة ، والنظرية الأسمى من ذلك التى ترشد الناس إلى سبيل أقوم وتعلمهم الاستمرار فى التضحية وتقوى أواصر القربى بين البشر هى نظرية الواجب ، وكل إنسان عليه أن لا يعيش لنفسه وحدها وإنما يعيش للغير ، وإن هدف الحياة ليس هو أن يوفر كل فرد السعادة لنفسه وإنما هدفها هو أن يعمل على توفير السعادة لإخوانه البشر ، فيحارب البطل ويقر الحق ويدفع الظلم من أجلهم ، وليس معنى ذلك أن يهدر الإنسان حقوقه ،

وإنما معنى ذلك أن الحقوق لا توجد إلا نتيجة لواجبات نقوم بها وأن علينا أن نبدأ بالواجبات لنصل إلى الحقوق ! وليس معنى هذا الزهد فى المطالب المادية وإنما معناه اتخاذها وسيلة لا غاية ، ويقول مترينى للعمال « ادعو رجال الطبقات الأسمى منكم إلى معرفة الواجب وقوموا جهد استطاعتكم بواجباتكم ، وبشروا بالفضيلة والتضحية والحب وكونوا أنتم أنفسكم مستمسكين بالفضيلة سراعاً إلى التضحية بالنفس منطوين على الحب » .

فمترينى إذاً يدعو إلى معرفة الواجبات قبل المطالبة بالحقوق ، وعنده أن الله هو الذى فرض الواجبات ، وأن القانون الذى سنه هو قانون الواجب ، وأن التقدم فى كشف هذا القانون وتطبيقه واتباعه هو عمل الإنسانية ، ووجود الله فى رأى مترينى حقيقة غنية عن التدليل والبرهان فمحاولة التدليل على وجود الله فى رأيه تجديف وإنكار وجوده حماقة وسخف ، فالله موجود لأننا موجودون ، وهو حى فى ضمائرنا وفى ضمير الإنسانية وفى الكون الذى يحف بنا ، وضميرنا يلجأ إليه ويلوذ به فى ساعات الحزن الطاغى وفى ساعات السرور الغامر ، ونظام الكون ينم على وجوده ، والذين ينكرون الله لا يستحقون اللعنات وإنما جدير بنا أن نذرف من أجلهم الدموع ، وهناك كهنة وقساوسة وزعماء دين يدنسون اسم الله ، وهناك ظلمة طغاة جبابرة يدعون أنه حاميهم وناصرهم ولكن هل ننكر ضوء الشمس لأنه قد يخترق فى طريقه إلينا الضباب ؟ وهل نكره الحرية لأن بعض الناس الأشرار

ينقلونها إلى الفوضى ؟ إن الأباطيل تفنى والفساد يزول والطغيان ينتهى عهده ولكن الله باق لا يزول والشعب ينتصر فى النهاية ، ولكى نكون أمة وننشىء جيلا لا بد لنا من أن نؤمن بفكرة واحدة فى التربية ونؤمن بغرض واحد مشترك ، ويقتضى ذلك أن نؤمن بواجب واحد ، ولا نستطيع أن نستمد هذا الواجب الموحد إلا من فكرة الله ، وكل إصلاح فى الأمم التى فقدت اليقين بالله والاعتقاد به لا يدوم إلا مدى استجابته لأهواء الأفراد ومصالحهم ونزواتهم ، وقد علمتنا ذلك التجارب وممارسة الحوادث ، والله لم يخلقنا للتأمل وإنما خلقنا للعمل ، ولقد خلقنا الله على مثاله ، والله هو الفكر والعمل ، والفكر عنده والعمل ممتزجان لا انفصال بينهما ، وبدون الله من أين نستمد الواجبات ؟ إن أى نظام للحكم بدون الاعتقاد بالله إنما يقوم على القوة العاتية الظالمة الطاغية العمياء ولا مندوحة عن هذا ولا مفر منه ، وتقدم الإنسانية إما أنه متوقف على قانون العناية الإلهية الذى علينا جميعاً العمل على كشفه وتطبيقه والسير بمقتضاه وإما أنه نهب للمصادفات وخاضع لمن يعرف كيف يستفيد من الأحوال والملابسات ، وإذا لم يكن هناك عقل أسمى فمن ينقذنا من طغيان إخواننا البشر حينما يجدون أنفسهم أقوى منا ؟ وإذا لم يكن هناك قانون مقدس لم يصدره الإنسان فكيف نميز بين الحق والباطل والعدل والظلم ؟ وباسم من ومن أجل ماذا نعارض الطغيان وعدم المساواة ؟ بدون الله ليس هناك من سلطة عليا سوى الأمر الواقع ، الأمر الواقع الذى ينحنى الماديون إجلالا له سواء كان هذا الأمر الواقع اسمه الثورة أو كان

اسمه نابليون بونابرت ، وكيف نطلب منهم أن يتوروا ويضحوا بأنفسهم ويستشهدوا باسم الآراء الفردية ؟ إن الصوت الذى يلبيه الناس هو الصوت الذى يقول لهم « إن الله يريد كذا » فهو الصوت الذى ينبه الغافل ويهيب بالوانى المتقاعد ، وبدون الله تستطيع أن تأمر ولكن لا تستطيع أن تقنع ، وتستطيع أن تكون طاغية ولكن لا تستطيع أن تكون مربياً أو رسولاً .

وما دمنا نعيش فإن الحياة لها قانونها ، وكل موجود يخضع وجوده لقانون من القوانين ، فالمعادن لها قوانينها والنباتات تخضع فى نموها للقوانين وحركات الكواكب تتبع قوانين وكذلك حياتنا لها قوانينها ، ومعرفة هذه القوانين واتباعها هو أول واجباتنا ، والله وهب لنا الحياة وهو إذاً أعطانا القانون ، والله وحده هو الذى يسن القوانين للناس ، وقانونه هو القانون الوحيد الذى نتبعه ونخضع له ، والقوانين البشرية لا تكون صالحة ولا نافعة إلا إذا كانت تطابق قانونه الإلهى ، وإذا ناقضته وأغفلته فهى قوانين فاسدة ضارة ومن حقنا بل من واجبنا أن لا نطيعها وأن نبطلها ، وعلى أساس معرفتنا قانون الحياة تقوم الآداب والواجبات والتبعات ، ولكى نكون رجالاً لا بد لنا أن نعرف القانون الذى يميز الطبيعة البشرية من النباتات والمعادن ، ولكن كيف نعرف هذا القانون ؟

إن هذا هو السؤال الذى وجهته الإنسانية فى كل وقت لكل من نطق بكلمة الواجب وقد اختلفت الأجوبة عن هذا السؤال ، فالبعض

أجاب بإظهار قانون أو كتاب وأعلن للناس أنه يحوى القانون الأخلاقى برمته ، والبعض قال ليرجع كل إنسان إلى مناجاة قلبه فهناك يجد تعريف الخير والشر ، وفريق آخر رفض حكم الفرد ورجع إلى الإنسانية وأعلن أن اليقين الذى تجمع عليه الإنسانية هو اليقين الصادق .

ويرى متزينى أن كل هذه الإجابات لم تسلم من الخطأ وأن التاريخ أظهر ضعفها ، فالذين زعموا أن هناك كتاباً يحوى القانون الأخلاقى نسوا أنه ليس هناك قانون اعتقدته الإنسانية وأمنت به قروناً متعاقبة ثم لم تتركه باحثة عن قانون أفضل منه ، وليس هناك من سبب يدعو الإنسانية إلى تغيير هذه الطريقة ، والذين يقولون إن ضمير الفرد هو مقياس الحق والباطل والخير والشر فى حاجة إلى من يذكرهم أن لكل ديانة من يرفضونها ويصبأون منها ويستعدون لمواجهة الاستشهاد فى سبيل اتباعهم ما تمليه عليهم ضمائرهم ، ومن ناحية أخرى فإن الذين ينبذون شهادة ضمير الفرد ولا يستجيبون إلا لديانة الإنسانية العامة عليهم أن يذكروا أن كل الأفكار الكبيرة التى أعانت الإنسانية على التقدم كانت فى أولية أمرها مناقضة لعقيدة الإنسانية العامة وكان يدعو إليها أفراد تنتقصهم الإنسانية وتضطهدهم وتصابهم .

فلا ضمير الفرد ولا اليقين العام المشترك إذاً يكفيان لمعرفة قانون الله أو الحق ، ومع ذلك فإن ضمير الفرد مقدس وعقيدة الإنسانية العامة كذلك مقدسة، والذى يحرم نفسه من الاعتماد على أحدهما يحرم نفسه من طريقة أصيلة مجدية للوصول إلى الحق ، والخطأ هو الاكتفاء

بالإبقاء على جانب واحد من الجانبين، لأن ضمير الفرد إذا اتخذ مقياساً للحق يؤدى إلى الفوضى، والتعويل على عقيدة الإنسانية وحدها يؤدى إلى الجمود والركود وخنق الحرية ، وقد منحنا الله الرأى العام ومنحنا الضمير ليكونا جناحين نحلق بهما ، فلماذا نقطع أحدهما ونكتفى بالآخر ؟ ولماذا يعتزل الإنسان أو يذوب فى المجموع ويفنى ؟ ولماذا يسكت هاتف الضمير أو يخرس صوت الإنسانية ؟ وعند مترينى أن اتفاق الضمير مع الرأى العام أو العقيدة المشتركة هو مقياس الحق الصادق ، وحياة الفرد فى هذه الدنيا قصيرة وملكاته محدودة وهو فى حاجة إلى سند ومعين ، وهذا المعين هو الإنسانية جمعاء أى مجموع المواهب الإنسانية قديمها وحديثها ، وهذه الإنسانية كما قال أحد المفكرين « الإنسان الدائم التعليم » والقانون الأدبى لا يكتشفه فى كليته إلا الإنسانية فى مجموعها متضافرة متعاونة، ومعرفة قانون الله لا يكفى فيها أن نناجى ضميرنا ونسائله وإنما لا بد لنا من مناجاة ضمير الإنسانية جمعاء واستشارته ، والإنسانية فى رأى مترينى هى التى تفسر قانون الله فى الأرض ، ومن صوت الإنسانية العام متفقاً مع صوت ضميرنا يمكن أن نستخلص واجباتنا .

ويسترسل مترينى فى بيان واجبات الإنسان وأولها فى رأيه واجبات الإنسان نحو الإنسانية ، ونحن علينا واجبات مواطنين وأبناء وآباء وأزواجاً ، ولكن الذى يجعل هذه الواجبات مقدسة هو الرسالة أو الواجب الأكبر الذى تفرضه علينا طبيعتنا باعتبارنا رجالاً ، فواجبنا

آباءً أن نعلم أبناءنا عبادة القانون الإلهى واتباعه، وواجبنا مواطنين أن نعمل على رفع شأن قومنا فى الحاضر والمستقبل ، ولكن الذين يلقنون الناس واجباتهم نحو أسرتهم ونحو بلادهم ويقفون عند هذا الحد يعلمون الناس الأثرة الضيقة والعطف المحدود ، فإن الوطن والأسرة مثل دائرتين داخل الدائرة الكبرى التى تشملهما وهى دائرة الإنسانية، ولقد وهبت لنا الحياة لنفيد بها الإنسانية ولكى ننمى ملكاتنا ومواهبنا وقابلياتنا لنكون أقدر على خدمتها ، فعلينا أن نعلم أنفسنا وأن نعلم غيرنا وأن نعمل على استكمال نقصنا واستكمال نقص غيرنا ، ومتزيني لا يزدرى الكون ولا ينتقص الحياة الإنسانية ، فالكون فى نظره هو معبد الله المقدس ، والكثير من البشر خانوا طبيعتهم الإنسانية وأعرضوا عن القيام برسالتهم ،ولسنا نستحق أن نسمى مؤمنين إذا ظللنا إزاء ذلك جامدين غير مكترثين .

إن التضحيات التى اشتركت فيها الأمم المختلفة خلال سير التاريخ هى التى رفعت من مستوى الإنسانية وكشفت وجوهاً جديدة من قانون التقدم جعلت الإنسانية تزداد له فهماً ، ومن المهم أن تفيد الإنسانية من القدوة الطيبة والمثل الصالح والأسوة الحسنة ، وكل تقدم كسب للإنسانية جميعها يعود عليها بالخير العميم والنفع الشامل ، والإنسانية جيش ضخم تتقدم كتائبه فى مختلف الجهات عاملة على تحقيق هدف واحد ، وقد تشغل كل كتيبة بنفسها وتنسى ما تفعله الكتائب الأخرى ولكن الله من فوق الجميع يراهم ويوجه حركات الكتائب ، وعنده

وحده سر المعركة وهو الذى سيجمع الكتائب كلها فى معسكر واحد وتحت علم مفرد .

وواجب الإنسان نحو أسرته ونحو بلاده هماالخطوتان السابقتان لواجبه نحو الإنسانية جميعها ، وكلما ازداد فهمنا لقانون الحياة تكاثرت واجباتنا وتعاظمت تبعاتنا ، وكلما تقدمت الإنسانية ازداد رقى الفرد ، فتقدمنا رهن بتقدم الإنسانية ، ولكى يكون التقدم حقيقياً يجب أن يكون شاملاً ، ويؤكد متزينى فى كتابه القيم العميق عن واجبات الرجل أن الواجبات الأولى هى واجبات الإنسان نحو الإنسانية ، فكل من يجاهد من أجل الحق والعدالة والصدق فهو أخونا ، وكل من يلقى الاضطهاد والعنت والشدة والهوان من الظالمين الطغاة فهو أخونا ، والأحرار والعبيد إخواننا ، والأصل والقانون والغاية واحدة ، فلتكن العقيدة والعمل والعلم الذى نجاهد فى ظله واحداً ، ولا تقل إن اللغة التى يتكلم بها الغير غير لغتك فالدموع والأعمال والتضحية هى اللغة العامة لجميع البشر ، وكلنا نستطيع فهمها ، ولا تقل إن الإنسانية شىء عظيم وإنك شىء ضئيل فإن الله لا يزن الضخامة وإنما يقدر النيات ، وقبل أن تقدم على عمل فى دائرة أسرتك وبلادك فكر هل هو نافع للإنسانية كلها ، فإذا كان قد ينفع أسرتك أو وطنك ويضر بالإنسانية فأمسك عن القيام به .

ولا يمل متزينى من ترديد أن واجبنا الأول هو واجبنا نحو الإنسانية لأننا رجال قبل أن نكون مواطنين وقبل أن نكون آباء وأرباب أسر ،

وإذا لم يشمل حبنا الإنسانية وإذا لم نؤمن بوحدتها كما أن الله واحد وإذا لم نلب نداء المظلوم من إخواننا البشر وننصر المضطهد فإننا نخالف قانون الحياة ولا نفهم ديانة المستقبل .

ولكن الفرد ضعيف فى عزلته والإنسانية عظيمة هائلة ضخمة، وقد منحنا الله « الوطن » ليكون وسيلتنا لخدمة الإنسانية ، وقد أفسدت الحكومات السيئة الخطة الإلهية بالغزو والفتح والجشع والغيرة والمنافسة ولكن الغرض الإلهى سينتصر على ذلك كله ، وستستكمل كل أمة استقلالها ووحدتها وتستطيع بعد ذلك أن تؤدى واجبها نحو الإنسانية .

وبدون الوطن لا يكون لنا صوت ولا يعرف لنا اسم ولا يعترف لنا بحقوق، فلا بد لكل أمة من أن توطد مكانتها وتظفر بحريتها لتستطيع بعد ذلك أن تؤدى واجبها للإنسانية .

ويتحدث متزينى بعد الكلام عن واجب الإنسان نحو الإنسانية والوطن عن واجبه نحو الأسرة وهى عنده وطن القلب ، والأسرة تلطف الأحزان والأوجاع وتعين على النهوض بالواجبات ، والمرأة هى ملاك الأسرة، وهى — سواء كانت أماً أو زوجة أو أختاً — التى تبعث الرقة والعذوبة فى حياة الأسرة ، وعنده أن الأسرة أساس الحياة الاجتماعية الذى يحسن بنا الاحتفاظ به ومقاومة فكرة الذين يقولون إنها تعلم الأثرة وإن هدمها خير من الإبقاء عليها، والأسرة مثل الوطن عامل هام من عوامل الحياة ، بل هى أهم من الوطن لأن قوانين الإنسانية قد تشمل وتعم ويتوحد العالم ولكن الأسرة ستبقى بعد ذلك كله فهى مهد الإنسانية ،

وهى ككل حى تتطور وتتقدم وتسمو ولكنها لن تزول، والأسرة للوطن مثل الوطن للإنسانية ، فالوطن يعلمنا لنصبح صالحين لخدمة الإنسانية والأسرة كذلك تعلمنا وتهذبنا لنصبح صالحين لخدمة الوطن ، والأسرة التى تقصر فى ذلك الواجب تنفث الأثرة وتفسد العطف ، وعلينا أن نحترم المرأة ونحبها ونلتمس عندها الإلهام والعزاء ونستمد منها القوة والرجاء ، ولنمح من أذهاننا فكرة تفوق الرجل على المرأة ، فإنها فكرة خاطئة روجها إهمال تربية المرأة فى العصور السالفة ، وهى تتخذ الآن حجة ضد المرأة ، وملاك الزنوج فى أمريكا كانوا يزعمون أن هؤلاء الزنوج من جنس منحط وضيع ليسوغوا استعبادهم لهؤلاء الزنوج وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، وطالما ادعت الأمم الباغية أن غيرها من الأمم لا يعادلها فى نبل الأرومة وشرف السلالة ، فليس هناك تفاوت بين الرجال والنساء وإنما هناك اختلاف فى الوظائف والاستعدادات كما يوجد بين الرجال أنفسهم ، والمرأة شريكة الرجل فى حياته السياسية والاجتماعية ، ويفيض متزينى فى الحديث عن واجبنا نحو الأطفال وينثر خلال ذلك الكلمات الحكيمة والتوجيهات الرشيدة والدروس القيمة والنصائح الغالية التى تدل على عمق عاطفته ودقة تفكيره وواسع خياله ونبل نفسه ، ويتبع ذلك بالكلام عن واجبنا نحو نفوسنا ويجعل فى طليعة تلك الواجبات تعليمنا لأنفسنا والاستزادة من المعرفة وكل فرد مناله مواهب وملكات واستعدادات وقابليات والتعليم هو الذى يظهرها ويقدح زنادها ويمكننا من الانتفاع بها واجتناء ثمراتها ، والتعليم هو

الذى يحكم الصلة بين حياتنا وحياة الوطن ويؤكد العلاقة بيننا وبين الإنسانية فى حاضرها وماضيها .

وهذه الأفكار وأمثالها بينها مترينى فى كتابه عن « واجبات الرجل » وهو الكتاب الوحيد القائم بذاته الذى استطاع مترينى أن يخرجه للناس ، فقد كانت أكثر كتاباته فصولاً فى موضوعات شتى أدبية وسياسية وتاريخية وأخلاقية ودينية تمتاز جميعها بالبلاغة والنصاعة وسعة النظر ودقة الملاحظة وتنم على مواهبه الأدبية الممتازة وقدرته الباهرة على التأليف لو أنه وجد معيناً من الظروف القاسية التى كان يعمل فيها ويجاهد جهاده الشاق المرير ، وقد استطاع فى كتابه عن واجبات الرجل أن يفرغ لإيفاء الموضوع حقه من البسط والتفصيل والشرح والإبانة ولذا جاء هذا الكتاب عنواناً لآرائه ودليلاً على تفكيره واتجاهاته ، ولو فقدت كتابات مترينى كلها وبقى هذا الكتاب لأمكننا أن نعرف منه معظم آراء مترينى وطريقة تفكيره وأسلوبه فى علاج مشكلات السياسة والأدب والدين والاجتماع .

الفصل السابع عشر

كلمة الختام

يقول الفيلسوف الإيطالى المعاصر بندتوكروتشه عن متزينى « بالرغم من أنه لم يكن مفكراً متماسك التفكير ، ولا رجل دولة ، فإنه قد ارتفع فى أوروبا إلى مرتبة القيادة الفكرية والأخلاقية وحتى القيادة السياسية ، فالوطنيون والثائرون فى كل البلاد كانوا يعدونه أستاذهم على حين كانت الحكومات المستبدة المحافظة لا تكف عن محاربته يومياً بتسليط الجواسيس والمضللين الغاشين عليه وإغرائهم به » .

ومتزينى كما لحظ كروتشه لم يكن مفكراً متماسك التفكير ، ولم تكن له قدرة فائقة على التفكير العلمى المنظم أو البحث المنطقى المحكم ، وكانت تنقصه الدقة فى تنسيق الحقائق وتحليلها ، وكانت فيه جرأة على التعميمات العريضة وسرعة إلى استخلاص النتائج الشاملة ، وفى بعض الأحيان كان يسرف فى استعمال الألفاظ والمصطلحات بغير إمعان فى التحرى أو محاولة ضبطها وتحديد معناها ، وكان اعتماده على ثقوب فراسته ودقة فطنته ولمعان ذهنه أكثر من اعتماده على إطالة الدرس ، وإجادة البحث ، وسعة الإحاطة والاستيعاب ، وآراؤه فى التاريخ ومذاهبه وفى الدين والسياسة والاجتماع لا تنم على الدراسة

المستفيضة ، والمعرفة الواسعة الشاملة ، وإنما تدل على صدق الحس ، وبعد الغور ، وطرافة التفكير ، والبصيرة النافذة ، ومتريني لم يدّع لنفسه العبقرية ، ولكنه مع ذلك كان شديد الثقة بأفكاره ، قوى الإيمان بصحة آرائه ، وكان من الصعب عليه مع تواضعه وبعده عن الغرور والكبرياء أن يعترف بخطأ ، ولعل ذلك شأن القادة والزعماء ، ومحركي النهضات ، فهم فى حاجة ماسة إلى الإيمان بأنفسهم ، والثقة بآرائهم ، وهم من أجل ذلك يستعذبون الآلام الشديدة ويستهدفون للأخطار الماحقة فى سبيل الاستمساك بتلك الأفكار والآراء والدفاع عنها .

ومتريني المفكر إذاً له عيوبه وأخطاؤه ، ولكن أفكاره برغم ذلك لها قيمتها لأنها صادرة من رجل قوى العقل ، لامع الفكر ، جم التجارب واسع الخبرة ، جرئ ينفذ إلى الأعماق ، ويشق الحجب ، يعينه على ذلك حدته وصرامته وإخلاصه ونزاهته .

وقد عاش متريني عيشة جهاد وكفاح لم يكل فيها عزمه ، ولم تنهزم فى ميادينها نفسه ، ومضى فيها على سننه ، لا يصرفه صارف من أعاليل الأمانى وأضاليل الرجاء ، وبالرغم من أن هذه الحياة العملية الحافلة لم تمكنه من أن يفرغ لحياة الفكر والتأمل والدرس والبحث والعكوف على المراجع المختلفة فى شتى نواحى المعرفة الإنسانية فإن كتاباته غاصة بالأفكار النيرة ، والنظرات السديدة ، والملاحظات الدقيقة ، والحكمة المشرقة ، والشاعرية المتدفقة ، وهى تسمو بالنفس ، وتهذب المشاعر ، وتشعل الحماسة ، وتلهم الأمل ، وترد على الإنسان

ثقته بالنفس الإنسانية ، وإيمانه بالحق والخير والصلاح والاستقامة في عالم قد تميل بنا تجاربه المرة وأحواله المتكسة إلى الشك في القيم السامية .

ولست أدرى هل كان يمكن أن تتحقق الوحدة الإيطالية او لم يوجد متزيني ، فقد آمن بها ، ودعا إليها ، وأعلنها يوم كان الناس يعتقدون أنها حديث خرافة وفكرة رجل ملتاث العقل فاقد الوعى ، ولكنه أصر عليها ، ودافع عنها ، وعاش لها ، حتى اقتنع بها قومه ، واستمسكوا بها ، وحرصوا عليها ، وعملوا على تحقيقها ، ولكن الشيء الذى أدريه وأستطيع أن أقرره مطمئناً واثقاً هو أن متزيني كان الروح الملهمة لحركة الاستقلال والوحدة الإيطالية .

وقد كان متزيني شديد الإيمان بالدمقراطية ، قوى الاعتقاد بالعناية الإلهية المشرفة على أحوال هذه الدنيا ، وكان فوق ذلك محباً للإنسانية ، وكان حبه للإنسانية حباً عظيماً خالصاً نقياً لا تقف في سبيله حواجز الجنسيات ولا أسداد الخلافات المذهبية أو تباين العقائد الدينية ، كان حبه للإنسانية حباً شاملاً ، وكانت القومية في رأيه مجرد وسيلة لتحقيق الوحدة الإنسانية الشاملة .

وقد كانت حياة متزيني سامية صافية ، نظيفة نقية ، جميلة ملهمة ، تكاد تكون قصيدة غنائية حماسية ، بديعة النظم ، متخيرة اللفظ ، رائعة المعنى ، وقد امتحنته الأيام ، وتقلبت على عينه الدنيا ، وتوالت عليه المحن ، وترصدته المتاعب والعقبات ، فلم يعدل عن سبيله ، ولم

تضلعه الخطوب ، ولم تهل من جانبه الحوادث ، وظل ماضياً فى سبيله ، مثابراً على الجهاد لتحقيق غايته .

وكان مترينى فى حياته الخاصة كما كان فى حياته العامة مثالاً للوفاء والتضحية والكرم والبذل على ما كان يعانيه من الفقر والحرمان ، وكان حسن المواساة لأصدقائه يعنى بمتاعبهم ومشكلاتهم الخاصة ، ولا يضن عليهم بالنصائح الغالية ، وكانوا يستشيرونه ويستنصحونه فيغدق عليهم من عطفه ولا يبخل عليهم بمشورته ورأيه .

وكان واسع النظر إلى الحياة ، كبير القلب ، عظيم النفس ، لا تعرف الأحقاد ولا الصغائر السبيل إلى نفسه ، وبالرغم من تشدده الأخلاقى وإسرافه فى ذلك على نفسه كان يكره أن يكشف عن عيوب الناس ويأبى أن يخوض فى ذكر نقائصهم ومذماتهم ، ولم يكن ممن يغتنمون الفرصة للتبشير بين الأصدقاء ، وربما كان يقسو على خصومه فى حملاته السياسية بعض القسوة ويشتد عليهم ، ولكن كان مصدر هذه الشدة قوة شعوره بالواجب ، وكان هؤلاء الخصوم يحاربونه بكل سلاح ، ويرمونه بكل نقيصة ، ولم يكن يعتمد فى الرد عليهم وإبطال دعوتهم وتفنيد آرائهم إلا على شباة قلمه ومضاء لسانه .

ولم يكن الواجب عند مترينى مجرد فكرة تطوف بالرأس وإنما كان جزءاً من كيانه ، وقد جعلته السنوات الطويلة الموقرة بالآلام والحوادث الجسام أليف حزن دائم الاكتئاب ، وقد خفف من وطأة هذا الحزن الملازم ما لقيه من أصدقائه فى إنجلترا من حسن الرعاية ، وخالص

الود ، وصادق التقدير ، ولكن هذا الحزن مع ذلك ظل دأبه ، ولكنه كان حزناً رقيقاً رفيقاً يزيد نفسه صفاء وطهراً ، وقد جعله هذا الحزن ينسى نفسه ويستغرق فى أعماله ، ولم يكن هذا الحزن من الأحزان التى تفل العزم ، وتغرى بالزهادة فى الجهاد ، وأى قوة كانت تستطيع أن تفل قوة عزم هذا الرجل الفذ النادر ؟ لقد كان حزنه الحزن الذى يسمو بالروح ، ويهذب النفس ، ويطهر القلب من الأرجاس ، ويعين على احتمال عثرات الحظ وصدمات القدر ، وقد يكون لمتزينى المفكر أخطاؤه وعيوبه ، وقد يكون لمتزينى السياسى أغلاطه ونقائصه ، ولكن متزينى الإنسان كان من الأفراد القلائل فى القرن التاسع عشر الذين رفعوا مستوى البشر ، ونقلوهم إلى مستوى أعلى يتسع فيه الفكر ، وتسمو الروح ، وتستطيع أن تنظر إلى الحقائق التى تحجبها ظلمه حب النفس والحرص على المصلحة والخضوع للشهوة ، وقد جمع فى نفسه بين بطولة البطل وقداسة القديس ، ومن يقدر الواجب ويقدر التضحية بالنفس يعرف له فضله ومكانته ، ويمكن أن نردد اليوم ما قاله عنه الشاعر الإيطالى كاردتشى بعد مضى شهر على وفاته « لقد كنت دائماً أكبر أخلاق چوزيف متزينى العظيمة وروحه الكبيرة وحياته التى تربو على حياة البطولة ، ومن المحتمل أن إيطاليا لم يظهر بها منذ عصر الرومان من يشبهه فى استقامته وثباته ووحدة حياته » ولعل خير تراث خلفه متزينى للإنسانية هو حياته الجليلة السامية فهى أنموذج نادر قليل النظير ، وقد قيل « إنك إذا أردت الأفكار الجديدة فعليك

بقراءة الكتب القديمة ، وإذا أردت الأفكار القديمة فعليك بقراءة الكتب الجديدة » ويخيل لى أن هذا القول يصدق على ما كتبه مترينى ، فقد مضى على الكثير مما دبجته يراعته وجادت به قريحته نحو قرن من الزمان ، ولكن من يرجع إلى ما كتبه هذا الرجل العظيم سيجد فيه الكثير ممّا يلقى ضوءاً على مشكلات العالم فى العصر الحاضر وممّا يعين على تفريج أزماته وتبديد ظلماته لو أفدنا من حكمته واستضأنا بمثاليته واسترشدنا بتعاليمه .

ثبت المراجع

The Life of Mazzini. *By Bolton King*
Mazzini : Prophet of Modern Europe. *By G.O. Griffith.*
Mazzini : The Story of Great Italian. *By Edyth Hinkley.*
The Making of Modern Italy. *By Mary Clive Bayley.*
Essays Modern. *By J.W.H. Myers.*
Prophets & People. *By Hans Kohn.*
Italy & Italians. *By Count Carlo Sforza.*
The Remaking of Italy. *By Pentad.*
The Growth of International Thought. *By J. Melian Stawell.*
Nationalism. *By Frederick Hertz.*
Mazzini. Presented *By Ignazio Silone.*
Giuseppe Mazzini Selected Wr tings. Edited. *By N. Gangulee.*
The Duties of Mon & Other Essays, *By Joseph Mazzini.*
Essays : Selected From the Writings of Joseph Mazzini.
Nationalism & Culture. *By Rudolf Rocker.*
The Crisis of the National State. *By W. Friedmann.*

تاريخ أوربا الحديث تأليف هـ . ا . ل . فيشر وترجمة الأستاذين أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع
تاريخ التمدن الحديث لشارل سنبوس ترجمة دار الهلال .

فهرس



أعلام التاريخ

مجموعة من الكتب العالمية الرائعة ، تصور حياة العظماء الخالدين ، وتروى سيرتهم وفنون جهادهم ونضالهم ، وتجمع بين المتعة والفائدة ، ففيها يلتقى العلم والأدب والسياسة والحب ، وفيها تتضح القوة والضعف وطبائع الإنسانية فى مختلف عصورها . تقدمها دار المعــارف إلى المؤرخ والأدباء والطلاب ، فيجد فيها كل منهم ما يحبه ويرضا من تحقيق علمى ، وقصص شائق ، وأدب رفيع .



تصدر عن
دار المعــارف بمصر